مكتبة الأسرة 2000

مهرجان القراءة للجميع 2000

الأعمال الإبداعية

إحسان عبد القدوس

قصص قصيرة



تاريخ حياة أحد اللصوص



الهيئة المصرية العامة للكتاب

إلى أين تأخذني هذه الطفلة ؟

كانت سميرة جالسة كعادتها تقرأ كتابا بينما البنت الصغيرة فوزية جالسة بجانبها تشخبط بأقلام الألوان المتعددة تحاول أن ترسم شيئا لا تدرى هى نفسها ماذا ترسم .. وفجأة قفزت البنت الصغيرة وألقت بنفسها على سميرة كأنها تختبىء بين أحضانها وصاحت سميرة :

ـ جرى ايه يا فوفو ..

وقالت فوزية كأنها تهمس :

ـ بابا وصل ..

ولم يكن الأب قد دخل عليهما بعد ، ولكن الصغيرة فوفو قد أحست بوصوله ربما من صوت باب الشقة أو من وقع خطواته أو ربما تعودت أن تشم رائحته أو أن مجرد اقترابه منها حتى دون أن تراه يثير فيها كل هذا الخوف .. إلى أن ظهر أمامهما .. ليس على وجهه أى ابتسامة .. كل ملامحه معقدة صارمة كأن هذا هو شكله .. كأنه هكذا خلق .. صارم التقاطيع .. ولم يتعود الابتسام أبدا .. وقال بمجرد ظهوره أمامهما :

ـ كيف حال البنت يا انسة سميرة .

وقفزت سميرة واقفة بمجرد أن رأته وشدت البنت الصغيرة واقفة معها وهى ممسكة بيدها ، وقالت وهى تبتسم ابتسامة كبيرة كأنها تتعمد سد الفراغ الذى يصحب تبويزة الأب وصرامة وجهه :

ـ فوفو هائلة .. النهاردة كانت تقرأ وتكتب أحسن منى .. أنها فى منتهى الذكاء يا رحمى بيه .. ولم يكن الأب قد اقترب من ابنته فوفو ليقبلها ولا مد يده ليصافح سميرة ولكنه أخذ يتطلع إلى ما ترك على المائدة من أوراق وأمسك بالورقة التى كانت فوفو تملؤها بخطوط ملونة كأنها لا تدرى ماذا ترسم .. ثم رفع هذه الورقة وألقى بها فى وجه البنت الصغيرة ثم مد يده وصفعها على خدها .. وهو يصيح :

ـ ايه الشخبطة دى يا بنت ..

ثم التفت إلى سميرة صائحا :

هل تقصدين أنها أحسن منك فى الشخبطة ..

وكانت الطفلة فوفو قد القت رأسها على صدر سميرة وبدأت فى البكاء .. والغريب أنه بكاء صامت .. بلا صوت .. كأنها تخاف أن تصرخ ببكائها حتى لا يسكنها أبوها بمزيد من الصفعات .. وقالت سميرة وقد تجهم وجهها وتنظر إلى الأب فى سخط ·

ـ لقد كنا فى فترة أجازة وهى تلعب بالأقلام الملونة .. وكنا قد انتهينا من الدراسة من قبل .. وكأنه لم يسمعها وأدار لهما ظهره يهم بالخروج من الغرفة قائلا ·

ـ من كانت قبلك كانت تقول انها هائلة .. إلى أن اكتشفت بنفسى أنها خيبة .. انكن تدافعن عن أنفسكن وتحاولن اثبات انكن قادرات على الارتفاع بالبنات

إلى قمة العظمة .. أو ربما تشفقن على فوفو وهى ترفض أن تتعلم شيئا .. أو تعجز عن فهم أى شىء .. ربما كانت مريضة .. هل انت ستتركين البنت الآن ؟

وقالت سميرة :

ـ أمامى نصف ساعة وسأبقى مع فوفو إلى أن تتناول العشاء وتنام ..

ثم تركت فوفو وخطت نحوه بعد أن خرج من الغرفة وقالت له وهى تواجه عينيه بعينيها كأنها تتحداه :

ـ لماذا ضربتها الآن .. ؟

وارتعشت عيناه أمام عينيها كأنه فوجىء بإنسان يحاسبه على أعماله وقال وهو يلوى شفتيه أمام وجهها كأنه يحذرها :

ـ لأنى اكتشفت أنها لم تفعل شيئاً سوى الشخبطة بالأقلام الملونة .. وأنك كنت تكذبين على عندما قلت لى : انها أصبحت هائلة فى دراستها ..

وقالت سميرة :

ـ انها فعلاً درست .. هل تريد أن أمتحنها أمامك ..

وقال وهو يهم بالابتعاد عنها :

ـ لا يهم .. انك تجالسينها وتعملين عندى منذ قريب .. وأمامى فرصة لأختبرك .. وعلى كل حال ان ضرب البنات هو أحسن الوسائل لتربيتهن .. إنى أربى ابنتى على الخوف .. يجب أن تخاف منى حتى تخاف من أن ترتكب أى خطأ .. وحتى تخاف أن تخرج عن طوعى عندما تكبر ..

وقالت سميرة :

- هذه أسوأ طريقة لتربية البنات .. البنت الخائفة هى البنت المعذبة .. والبنت المعذبة هى التى تلقى بنفسها فى أول مصيبة تصادفها ..

وقال رحمى وهو يلوى شفتيه احتقاراً لما يسمعه وربما احتقاراً لسميرة نفسها :

- لقد عاشت أمها معى وهى خائفة دائماً .. كلها خوف .. وكانت من أنظف وأشرف وأعقل الزوجات ..

وقالت سميرة برنة ساخرة :

- ولهذا ماتت .. رحمها الله ..

وتجهم وجه رحمى أكثر وقال بلهجة جادة :

- إنها خالفتنى وتحررت من الخوف منى بأن ماتت .. لم أكن قد سمحت لها بالموت .. وأحطتها بكل ما يضمن لى انها لن تموت .. ورغم ذلك ماتت .. وأبشع ما فعلته أن تموت وتركت لى ابنتنا فوزية لأحمل همها وحدى ، ودون أن تقدر انى لا أستطيع أن أكون أما وان كنت أعتبر خير أب .. وقالت سميرة وهى تنظر إلى رحمى فى تعجب ودهشة :

- ربما ماتت من الخوف ..

وتركها رحمى دون أن يرد عليها ولعله لم يسمعها ودخل إلى حجرته المجاورة وأغلق الباب وراءه ..

وعادت سميرة إلى الطفلة فوزية واحتضنتها إلى صدرها وقلبها يتمزق عليها . . انها فتاة يتيمة الأم بين يد أب مجنون .. وأخذت تضفى عليها من الحنان والتدليل حتى هدأت وتناولت طعام العشاء وظلت معها حتى نامت ..

. ارتدت معطفها وجمعت حوائجها ثم خرجت .. وعلى الباب قابلتها أم أمينة التى تقوم بمهمة الشغالة فى البيت .. قابلتها كأنها تواجهها ثم مدت لها يدها بورقة مالية قيمتها عشرة جنيهات .. قائلة فى سخط :

- البيه ترك لك هذا المبلغ ، وأراد منى أن أسلمه لك .. والله حسارة .. أنا الأولى بكل هذا .. ولم ترد عليها سميرة .. أخذت ورقة الجنيهات العشرة ووضعتها فى حقيبتها بهدوء وفتحت الباب وخرجت وحتى دون أن تحيى أم أمينة بكلمة ..

□ □

وعادت سميرة إلى البيت ودخلت حجرتها بخطوات واسعة دون أن تبحث عن أمها أو أختها الأصغر كأنها تحاول أن تختبىء .. انها فى حالة لا تطيق معها أن تلقى أمها أو أختها وتناقش معهما أو مع من تجد منهما شئون حياتهن .. انها تحس كأنها مغتاظة غيظاً كأنه قنبلة داخل صدرها على وشك الانفجار .. والسبب هو الفتاة الطفلة فوزية .. انها تعيش فى كل فكرها ولا تتركه وهى لا تحاول أن تطردها منه .. كيف تنقذها من صرامة وكراهية أبيها لها .. لعله لا يكرهها ولكن هذا ما يؤمن به .. وهو أن الفتاة - أى فتاة - يجب أن تعيش على الخوف حتى تحتفظ لنفسها بالسلامة .. ولا تخاف أباها وحده .. بل تخاف كل من فى الدنيا ممن يقتربون منها ويفرضون حقاً عليها .. ولكن ماذا تستطيع هى بالنسبة لهذه الفتاة .. انها ليست ابنتها ... ولا قريبتها ولا حتى صديقة من صديقات العائلة ، انها مجرد جليسة معها تقضى معها ساعات منفقاً عليها نظير أجر .. وهى ما يسمى بالانجليزية وينطق بكل اللغات BABYSITTER .. جليسة أطفال .. وان كانت لأول مرة فى حياتها تتفق على أن تكون جليسة لطفلة طوال النهار نظير عشرة جنيهات فى اليوم .. انها طفلة بلا أم .. وأبوها مشغول فى عمله طوال النهار وإن كان يتعمد أن يتفرغ بالليل للاشراف على ابنته .. وعشرة جنيهات فى اليوم ليست كثيرة .. لقد

مرت عليها أعمال كانت تتقاضى فيها عشرة جنيهات فى الساعة أو كل ساعتين ..

إنها ليست المرة الأولى التى تعمل فيها كجليسة أطفال .. وقد تنقلت بين مسئوليات أعمال كثيرة .. لقد ولدت لتعمل وتكسب حياتها بعرق جبينها .. وقد فتحت عينيها على الحياة وأبوها مسئول عنها .. أب رائع مثالى ينفق كل مليم يصل إليه على أولاده .. ولم يكن له أولاد إلا هى وأختها .. وقد وضعها عندما شبت فى مدرسة سان جوزيف تتلقى العلم باللغة الفرنسية .. وظلت بها إلى أن وصلت إلى السنة النهائية وكان المفروض أن تتفوق فى امتحان التخرج وتتم تعليمها فى باريس .. ولكن الأب مات .. لقد مات فجأة .. واتضح انه لم يترك وراءه أى قرش .. لقد كان ينفق كل ما يصل إليه على العائلة .. ولم يهتم بأن يكون له رأس مال يحتفظ به فى البنك لتواجه به العائلة الأحداث .. بل إنه لم يكن له معاش فهو لم يكن موظفاً فى الحكومة .. لقد كان يعتبر نفسه من رجال الأعمال وقد ترك وراءه ديوناً لعمليات صغيرة كان يقوم بها .. كما أن بعض زملائه وأصدقائه أضافوا مبالغ لمساعدة العائلة .. وكلها مبالغ لا تحتمل إلا شهوراً بل يمكن أن تضيع كلها فى أيام ..

وكان أول ما واجهت الأم هو التساؤل عن المستقبل .. كيف تعيش هى والابنتان .. انهن نساء وليس أمامهن من طريق إلا الزواج من رجل لكل منهن يتحمل مسئوليتها .. والأم نفسها لم تعد تصلح للزواج .. انها عجوز وليس لديها أملاك أو أموال تغرى أى رجل بأن يمد يده إليها رغم أن كثيرات فى مثل سنها تزوجن للمرة الثانية .. إنها لم تتجاوز الحادية والأربعين من عمرها .. ورغم ذلك فهى تتمنى لنفسها رجلاً يتزوجها .. لقد كانت تحب زوجها وأب ابنتيها .. ولكنها فى حالة لا تتيح لها الاحتفاظ بالحب إنها حالة تفرض عليها أن تتدبر ما يكفل لها الحياة ولابنتيها ..

لا أمل إلا أن تتزوج سميرة .. ولكن سميرة لا تتميز بجمال يمكن أن يعرض نفسه على الرجال .. وان كانت تتميز بشخصية رقيقة مهذبة واسعة المعرفة تعتبر شخصية تجذب كل من حولها وكل من يتعامل معها .. ستجد من يتزوجها .. رجل يستطيع أن يضمن حياة العائلة .. وعليها أن تبذل جهوداً كبيراً لتجد هذا الرجل .. ولكن سميرة ترفض هذا التخطيط لتدبير حياة العائلة .. إنها لن تتزوج .. ولن تسعى للزواج .. الطريق الوحيد الذى تسير فيه بعد أن مات أبوها هو أن تعمل .. وتكسب .. وتركت مدرسة سان جوزيف قبل أن تنال الشهادة النهائية .. لتؤجل هذه الشهادة إلى عمر آخر .. وباتت تقضى كل دقائق عمرها فى البحث عن عمل .. عمل ليس فى حاجة إلى أن تكون فى منتهى الجمال .. لأنها ليست جميلة .. ولكنه فى حاجة إلى مهارتها فى التقاط وسائل الخدمة .. كل الخدمات .. وقد استطاعت فى اسبوع ... أن تكون موظفة فى كباريه كل مهمتها أن تستقبل الزبائن وتجلسهم ... لهم الجرسون .. أى لم تكن ممن يبعن أجسادهن للزبائن بل ترحب ... وانتقلت إلى عمل آخر وصلت إليه كبائعة كتب فى احدى مكتبات شارع ... النيل .. وتعتمد على اللغة الفرنسية التى تعلمتها فى سان جوزيف للتفاهم ... الكتب ومع الشارين .. ووجدت نفسها تقضى معظم ساعات يومها فى ... القراءة .. فالزبائن الذين يترددون على المكتبة لا يزيدون عن مجرد بضعة ... وقد يمر يوم كامل لا ترى فيه أى زبون .. وهى تهوى القراءة ، ولكنها لا تريد أن تكون مجرد قارئة إنها تريد أن تكون عاملة .. واستقالت من العمل فى المكتبة خصوصاً وأن المرتب كان ضئيلاً لا يتجاوز ثمانين جنيهاً فى الشهر .. والجنيهات هذه الأيام لم تعد لها قيمتها واحترامها .. وقضت أياماً تبحث عن عمل جديد .. ولم تطل بها الأيام وأصبحت عاملة فى فندق شيراتون ... عهدوا إليها بأن تخدم فى الكافيتريا .. وبسرعة استطاعت أن تكشف أسرار العمل كله ، وأسرار التعامل مع الزبائن أو مع العاملين فى الفندق نفسه ..

وأصبحت تكسب أكثر .. مائتى جنيه فى الشهر علاوة على نصيبها من البقشيش ..

ولم تهتم بأى رجل .. إنها تتعامل كأنها معهم من جنس واحد .. والواقع أنه لم يتقدم إليها أى رجل يغازلها ويحاول أن يقيم معها علاقة خاصة .. إنها ليست مغرية كامرأة .. وجاذبيتها الخاصة لم تفكر فى استغلالها إلا فى حدود مجرد المعرفة وتقديم الخدمات .. وقد استطاعت فى هذه الحدود أن تكسب كثيراً من الأصدقاء والصديقات .. بل استطاعت أن تكسب صداقة كثير من الصديقات ممن تعودن التردد على الكافيتريا لتناول الافطار أو الغداء .. وأغلبهن أجنبيات وقد قالت لها احداهن يوماً :

ـ ان صديقتى فى حاجة إلى من تجالس أطفالها فى غيابها على أن تكون قادرة على التفاهم بالفرنسية .. فهل يمكن أن نجد واحدة .. وكيف ..

وقالت سميرة وعيناها تلمعان كأنها وجدت ما يبهرها :

ـ أنا .. انى أحب أن أجالس الأطفال ..

وقالت السيدة الأجنبية :

ـ ولكنك تعملين هنا ..

وقالت سميرة وهى تسلط كل لباقتها من خلال ابتسامتها :

ـ أستطيع أن أوفق بين العملين .. وأدبر الأوقات التى أحتاج فيها للتفرغ لكل عمل .. ووجدت سميرة نفسها تعمل جليسة طفلين فى السادسة والرابعة من عمريهما وأمهما سيدة فرنسية تعمل فى احدى الشركات الفرنسية فى مصر .. والمرتب محترم .. خمسة جنيهات فى الساعة .. ومطلوب منها أن تجالس

الطفلين من الساعة التاسعة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر .. وفى أيام كثيرة تخرج السيدة مع زوجها فى المساء وتطلب من سميرة أن تجالس طفليها فى المساء أيضاً .. بل حدث أكثر من ذلك .. فإن كثيراً من الزوجات الأجنبيات أصبحن يلجأن إليها لتجالس أطفالهن فى غيبتهن .. والساعة بخمسة جنيهات ورفعتها بعد أن عرفت المجتمع الأجنبى الواسع فى مصر إلى عشرة جنيهات .. إنها تكسب كثيراً .. ثلاثمائة جنيه فى الشهر على الأقل وقد تصل إلى أربعمائة أو إلى خمسمائة .. إنها تكسب ما يكفيها للتفرغ لتكون جليسة أطفال فحسب .. واستقالت من عملها فى فندق شيراتون .. وتفرغت لتلبية مطالب الأمهات لمجالسة أطفالهن أثناء غيبتهن .. وكانت قد أعدت ودبرت نفسها على النجاح فى مهمتها .. إنها أصبحت تعرف كيف تلاعب الأطفال فى مختلف الأعمار .. وكيف تتعامل معهم .. ثم كيف تشغلهم بما يريحها منهم وتجلس هى وتقرأ ما تحمله معها من كتب .. إنها تقرأ كثيراً وتعد نفسها لنيل الشهادة التى تؤهلها للالتحاق بالجامعة .. ولكنها كانت تصادف العجائب فى التعامل مع الأطفال ..

لقد كان بينهم طفل أو صبى فى السادسة أو السابعة من عمره .. قدم لها وهو مرتد أزياء عسكرية تغطيه من رأسه إلى قدميه وفى يده بندقية وحوله ألعاب كلها ألعاب قتال .. مسدس .. وقوس وسهم .. وعصا .. ومجموعة من الرصاص الذى يطلق من البنادق .. وطبعاً كلها ألعاب .. ليس بينها أى شىء سوى مجرد لعبة .. واستقبلت كل ذلك مبتسمة .. ربما كان والده هو الملحق العسكرى فى سفارة بلده .. وأخذت تلاعب الصبى .. ألعاباً أقرب إلى التحركات العسكرية .. إلى أن تعبت وطلبت منه أن يترك اللعب ويقرأ فى الكتب التى حوله ويتفرج على الصور وكلها صور عسكرية .. وقالت له إنها ستستريح قليلاً وتقرأ فى الكتاب الذى معها هى الأخرى .. وإذا بالصبى المسلح يصرخ أيضاً قائلاً لها :

- انت هنا لتكونى دائماً معى وتلبى كل ما أريده .. انت أسيرة تحت سلطة الجيش ..

وكان يقول هذا الكلام وهو يوجه البندقية إلى صدرها ثم ترك البندقية وأمسك بالقوس وأطلق عليها السهم .. وكل تحركاته اعتداءات .. وصحيح إنها مجرد لعب ولكنها خافت وطاوعته وأخذت تلعب معه ألعاباً عسكرية .. إلى أن عادت أمه ومعها أبوه فسلمته لهما وقبضت حقها .. خمس ساعات بخمسين جنيهاً .. ومن يومها لم تذهب لتجالس هذا الطفل .. وتعتذر دائماً عن تلبية دعواتهما .. والعجيب .. إنه طفل ألمانى لا أمريكى ولا انجليزى .. ومفروض أن ألمانيا لا تربى أولادها على خوض الحروب .. والإيمان بالحرب .. ولكن لقد ثبت لها العكس .. ربما كان الأمريكان ينشئون أولادهم على الإيمان بالحرب حتى يضمنوا السلام .. والألمان يربون أولادهم على الإيمان بالحرب ليشتروا كرامتهم بعد الهزيمة القديمة التى لا يستطيعون التخلص من آثارها ..

كان هذا واحداً من الصبية الذين أثاروا عجبها واعتبرته شخصية شاذة .. إلى أن دعيت يوماً لمجالسة فتاة ستغيب عنها أمها بضع ساعات .. إنها ليست طفلة بل هى صبية ربما كانت فى الحادية أو الثانية عشرة من عمرها .. واستقبلتها الصبية بترحاب كبير ، ثم أخذت وهما جالستان وحدهما تقدم لها كل ما فى البيت من قطع الحلوى والشيكولاته .. ثم فجأة أخرجت من جيبها عشرة جنيهات أعطتها لسميرة وأخذتها منها فى دهشة وسألتها فى تعجب :

- ما هذا ..

وقالت الصبية :

- هذا كل ما استطعت أن أحتفظ به لنفسى لأعطيه لك حتى تحبينى وتشملينى بعطفك .

وقالت سميرة ضاحكة وهى لا تفهم ما تريده الصبية :

- إنى أحبك .. إنك حلوة إلى حد أن لا أحد يستطيع أن يقاوم حبك ..

وقالت الصبية وهى تتكلم باللغة الفرنسية .. رغم انها من أهل السويد :

- إذا كنت تحبيننى .. فإنى أرجو أن تسمحى لى بالخروج من البيت ..

وسألت سميرة فى تعجب :

- لماذا ..

وقالت الصبية :

- أريد أن أريح نفسى من هذا البيت .. وأمى لا تخرج منه وتحبسنى معها بين هذه الجدران ..

وتحرك عقل سميرة بسرعة عنيفة كأنه بركان .. لماذا تريد هذه الصبية أن تخرج .. ربما تريد أن تهرب من البيت .. ولكن لعل هناك دوافع أخرى .. وقالت لها وهى تربت عليها وتدللها :

- سنخرج .. أنت وأنا وحدنا ..

وصاحت الصبية :

- لا .. أريد أن أخرج من البيت وحدى .. وقالت سميرة وهى تحتضنها بإبتسامتها تريدها أن تستسلم لها حتى لو كانت تخدعها :

- ستكونين وحدك حتى وأنا معك .. أنا لست أمك رغم حبى لك ولن أقول شيئاً لأمك عما تريدينه من الخارج .. ولكنى مضطرة أن أخرج معك ..

وقالت الصبية فى سخط :

- تعالى ..

وسبقت سميرة على السلم للوصول إلى الشارع وسميرة تجرى وراءها .. إلى أن وجدتها تقف أمام شاب كان ينتظرها قريباً من البيت .. إنه قطعاً شاب مصرى أسمر .. وهو ليس كبيراً .. ربما كان فى الخامسة عشرة من عمره .. والتصق الشاب بالصبية وخطت إليهما سميرة .. واحتفظت بابتسامتها ومدت يدها تصافح الشاب .. وقالت له :

- سأكون معكما .. ولكن بعيدة عنكما .. وصحب الشاب الفتاة وسميرة تسير بجانبهما ولا تحاول أن تسمع كلامهما ولكنها غارقة فى الدهشة وفى الحيرة .. ماذا تستطيع أن تفعل .. لا شىء .. إنها حتى لن تقول شيئاً لأمها بعد أن تعود .. هكذا وعدت الصبية .. وسار الشاب والصبية إلى أن دخلا فى احدى الحدائق .. وأخذا يجريان كأنهما يلعبان استغماية .. ثم يجلسان على الحشيش .. ومال الصبى وقبل الصبية .. وسميرة تتلقى القبلة البريئة كأنها صفعة على خدها هى .. إنها قطعاً قد أخلت بمسئوليتها عن الصبية .. وقد يأتى يوم يلتقيان بين الجدران ليلعبا بما هو أكثر .. إنه أمر عادى فى المجتمع الأوربى وخصوصاً فى مجتمع السويد .. ان كل ما تستطيعه هو أن تهرب من هذا المجتمع ومن هذه الصبية .. وقد ظلت تراقبها حتى أعادت الصبية إلى البيت .. ومن يومها أصبحت ترفض أن تكون مسئولة عنها .. ولكنها قالت لها قبل أن تتركها :

- يجب أن تقدمى كل من تلعبين معهم إلى ماما وبابا .. حتى تلعبا فى البيت كما تلعبان فى الشارع ..

وقالت الصبية فى زهو كأنها فخورة بصديقها المصرى :

- إنه لا يريد أن يدخل البيت .. ولا يشرفه أن يعرف ماما وبابا .. ومالنا والعواجيز .. لذلك فنحن نلعب دائماً فى الشارع أو فى بيته بعيداً عن أمه وأبيه ..

وأقنعت سميرة نفسها بأنه مهما كان ما يحدث بين الفتى والفتاة فهو ليس غريباً عن مجتمع السويد ، أى المجتمع الذى تنتمى إليه الفتاة .. إنه مجتمع مفتوح لا قيود فيه بين الفتى والفتاة ، وكل ما هنالك إنها لا تستطيع أن تحتمل هذا المجتمع وتقبل تقاليد الحياة فيه .. إنها ليست سويدية إنها مصرية ..

وقد تنقلت خلال هذه الفترة بين عشرات من العائلات وتقوم بمجالسة الأطفال .. وكلها عائلات أجنبية .. ان العائلات المصرية لا تعترف بحاجتها إلى جليسة أطفال .. وغاية ما يمكن أن تصل إليه هو التعامل مع دور الحضانة .. إلى أن جاءتها صديقتها عزيزة وطلبت منها فى رجاء أن تعمل جليسة للطفلة فوزية .. وقالت لها إنها يتيمة الأم وأبوها رحمى بيه من رجال الأعمال ويعيش وحده مع ابنته الطفلة حائرا معها ويتعذب بمسئوليته عنها .. وهو غنى مستعد أن يدفع لمن تتحمل معه مسئولية معاشرة هذه الطفلة .. إنه مقتنع بنظام جليسة الأطفال أو « بيبى سيتر » على الأقل لترعى ابنته إلى أن يعود من العمل إلى البيت .. وترددت سميرة فترة .. ولكن صديقتها عزيزة ظلت تلح عليها وأكدت لها إنها لن تعامل كخادمة فى هذا البيت ولكن ستعامل كما تعامل فى بيوت الأجانب .. جليسة أطفال .. وأخيراً قبلت عملها الجديد .. لتجرب العمل مع العائلات المصرية ..

□ □

وذهبت إلى عملها الجديد وكل ما وصفت به صديقتها عزيزة صاحب البيت وأب الفتاة الصغيرة هو انه رجل جاد .. إنها تعمل فى مكتبه منذ سنوات مطمئنة إلى انه فى منتهى الجدية .. ولكن سميرة رأته أكثر من رجل جاد .. إنه رجل مخيف .. صارم التقاطيع .. يتكلم فى صوت جاف .. ولا يبتسم أبداً بل يتكلم من خلال شفتين مطبقتين كأن لسانه فى صدره .. ورغم ذلك فهو ليس منفراً .. إن فيه شيئاً خفياً يريح من يقف معه .. وقد قال لها فوراً بعد أقصر وأسرع تحية مما تسمعه فى استقبالها :

- إنى أريدك أن تكونى مع ابنتى فوزية من الساعة العاشرة صباحاً حتى السادسة بعد الظهر .. وتكونى مسئولة عنها خلال هذه الفترة .. إلى أن أعود أنا إلى البيت .. والمسئولية تشمل كل ما تتطلبه تربية فتاة صغيرة .. أى العلم والأدب والتعامل الاجتماعى .. كل شىء .. وسأدفع لك عشرة جنيهات فى اليوم ..

وكان يتكلم كأنه يلقى أوامر ولا ينتظر رداً عليه .. إنه لا يعلم إنها تتقاضى عشرة جنيهات فى الساعة الواحدة فى بيوت العائلات الأجنبية التى تخدمها .. ولا يمكن أن تقبل أن تكون الجنيهات العشرة أجراً لليوم كله وفى بيت مصرى .. بيت بلا عائلة .. بيت رجل يبدو كأنه الحاكم بأمر الله .. لا .. لن تقبل ..

وقبل أن تتكلم دخلت امرأة ترتدى زياً كأنه زى احدى الفلاحات .. ووجهها أسمر كالح ليس فيه أى بادرة حلاوة .. وكانت تحمل فتاة .. لا شك إنها فوزية .. إنها حلوة فى منتهى حلاوة الأطفال .. ولكن منكمشة على نفسها وتبدو كأنها ترتعش .. وقال رحمى بسرعة :

- هذه نفيسة بنت بلدنا وتقيم معنا منذ قديم .. ولا تزال فلاحة كما هى لهذا ظلت معنا منذ سنوات لأنها لا تتغير ..

ثم مد ذراعه وشد الطفلة فى عنف وقدمها إليها كأنه يلقى بها إليها قائلا :

- هذه ابنتى فوزية التى ستكونين مسئولة عنها ..

ثم أدار ظهره وخطا ناحية الباب قائلا :

- سأعود إلى البيت فى الساعة السادسة تماماً ..

لم ينتظر أى مناقشة مع سميرة .. لم ينتظر أن ترد عليه بالقبول

أو الرفض .. وسميرة تعلق عينيها بالطفلة فوزية ومدت يديها إليها وهى تحس انها تنشلها من جحيم ألقوها فيه .. وتنازلت عن الرد على رحمى .. وستقبل الجنيهات العشرة فى اليوم كله .. ولا تدرى لماذا هذا الاستسلام .. إن المعروف عنها إنها تحب الأطفال ولكن حبها لهذه الطفلة فاق أى حب مر بها مع الأطفال .. إن مجرد التقائها بها فى نظرة واحدة جعلها تحس بأنها مكلفة بإنقاذها .. مم تنقذها ؟ لا تدرى .. ولكنها لاحظت انها كانت تنظر إلى ابيها فى خوف .. وإلى الفلاحة نفيسة فى خوف .. مم تخاف .. لا تدرى ..

ووجدت نفسها قد وافقت على أن يدفع لها عشرة جنيهات فى اليوم لا فى الساعة .. وأحست كأنها مقبلة على مغامرة تستحق أن تضحى فى سبيلها .. على كل حال فهى تستطيع الآن أن تضحى ببعض مكاسبها .. إنها تكسب دائماً ما يكفيها ويكفى أمها وما يكفى جنون أختها الأصغر التى تعيش بلا عمل سوى البحث عن رجل يتزوجها .. لقد قدمت لها أختها الأصغر ثلاثة شبان على أن كلا منهم يريد الزواج منها .. ولم يتزوجها أى واحد .. وهى فى انتظار أن تقدم لها أختها الشاب الرابع ..

وسميرة تستعرض حالها وحال عائلتها وهى ممسكة بيد الطفلة فوزية تطوف بها فى أرجاء البيت .. لا شك أن كل شىء فى البيت كان جميلاً وموضوعاً فى مكانه .. ولكنها الآن ترى كل شىء ، مبعزقاً ، بلا ترتيب .. الأثاث .. والتحف .. والسجاجيد .. حتى لوازم المطبخ .. كلها مبعزقة فى فوضى مما يجعل البيت كأنه بلا صاحب .. إنه فعلاً بلا ست بيت .. والمرأة الوحيدة فيه .. نفيسة .. تسير بجانبها ، وهى تنظر لها فى سخط كأنها تقول لها مالك ومالنا .. ومالك والبيت بما فيه .. ولكنها لا تتكلم .. وسميرة لا تسألها .. على كل حال ليس من مهمتها أن ترتب أو تشرف عليه .. وصلت إلى الحجرة المخصصة للطفلة فوزية وكانت قد ابتكرت لها اسماً تدللها به .. فوفو .. إنها حجرة ليس فيها شىء يحتاج إليه الطفل .. بل إنها معفرة بالتراب

ملطخة بأكوام الزبالة .. واستطاعت أن تحصل على مكنسة وفوطة وأخذت تعد الغرفة وتنظفها من جديد وهى تقول لفوفو ضاحكة .. نظفى معى يا فوفو .. وفوفو لا تدرى ماذا تفعل ولكنها تتحرك وراء سميرة وتقلدها كأنها هى الأخرى تنظف الحجرة .. وسميرة تمسك بها بين كل خطوة وأخرى وتقبلها .. إنها تحب فوفو حباً آخر له طعم آخر عما كانت تحس به ناحية كل الأطفال الذين صاحبتهم .. ربما كان هذا الحب هو ما دفعها إلى كل هذا الجهد الذى تبذله لإعداد غرفتها .. بل إلى كل هذا التطلع ومعرفة حقيقة كل ما تعيش فيه الطفلة ..

وأصبحت الساعة السادسة وسمعت باب البيت يفتح ويغلق .. لابد أن رحمى قد عاد .. والطفلة فوفو التصقت بها وأمسكت بثوبها كأنها تحتمى بها وهمست فى خوف :

ـ بابا عاد .. لا تتركينى يا ماما .. ورفعتها سميرة إلى صدرها وقبلتها وقالت لها :

ـ أنا لست ماما .. ماما الله يرحمها .. أنا نينة .. أو طنط .. أفضل أن أكون نينة .. ولا تخافى من بابا .. انتظرى إلى أن يأتى إلينا وابتسمى له ودعيه يقبلك ..

ولكن رحمى بيه لم يظهر بينهما .. ودخل غرفته مباشرة .. وتركها تنصرف فى الساعة السادسة وكانت الفلاحة نفيسة هى التى أعطتها أجرها عن يومها .. الجنيهات العشرة ..

ومضت أيام ورب العائلة لا يراها .. وهى تحس مع الأيام كأنها تعمل فى بيت بلا أم وبلا أب .. وهى تتصرف داخل البيت فى حرية تامة كأنها سيدته .. وقد اكتشفت أن فى البيت رجلاً يعمل كطباخ .. ولكنه مجرد فلاح .. من نفس

بلد نفيسة ربما كان أخاها أو قريباً لها .. ولا يعرف كيف يقدم طعاماً على الطريقة المودرن المتطورة .. لا يعرف إلا ما يعرفه أى فلاح .. فأخذت تدخل المطبخ وتعلمه كيف يعد الطعام لها وللطفلة فوفو .. إن فوفو دائماً معها أصبحت كأنها قطعة منها .. وهى لا تدخل هذا البيت إلا لتكون مع فوفو ..

ولم يظهر لهما رحمى بيه إلا فى هذه المرة التى قلب فيها أوراق فوفو ثم صفعها بالقلم .. ضربها .. وصارح سميرة بأنه يؤمن بأن الخوف هو الذى يربى البنات .. لذلك فهو لا يدلل فوفو .. إنه يفرض عليها الخوف .. وقطع الكلام معها وانصرف عنهما ودخل غرفته .. ويومها لم تترك سميرة البيت فى الساعة السادسة كما ينص الاتفاق .. خافت على فوفو بعد أن رأت فى أبيها هذه الشخصية ، وبقيت معها حتى قدمت لها طعام العشاء وإلى أن وضعتها فى فراشها واطمأنت إلى أنها قد نامت .. وكانت الساعة قد أصبحت التاسعة .. إنها تقدم ساعات عمل مجاناً .. ووضعت نفيسة فى يدها الجنيهات العشرة كما هى العادة ..

وقد قضت هذه الليلة بعد أن عادت إلى بيتها وهى ساهمة كأنها تائهة حتى إنها لم تحس بأمها وأختها وهما معها داخل البيت .. ماذا تفعل حتى تنقذ فوفو من هذا الأب الذى يفرض الخوف على ابنته .. يجب أن تفعل شيئاً .. وإن كانت لا تستطيع أن تحدد هذا الشىء ..

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى فوفو فى الساعة الثامنة صباحاً لا فى العاشرة كما ينص الاتفاق .. إنها خائفة أن تترك فوفو وحدها حتى لا ينفرد بها أبوها ويضربها لمجرد أن يبذر فيها بذور الخوف .. وبمجرد أن دخلت البيت وجدته فى مواجهتها جالساً فى الصالون الكبير يقرأ الصحف .. ونظر إليها فى دهشة ثم رفع يده ينظر فى ساعته .. وقالت فى صوت متحفز لأى خناقة :

ـ لقد جئت مبكرة قبل الموعد حتى أحمى فوفو ..

وقال ووجهه المتجهم لا يخفى دهشته :

- تحميها من ماذا ؟

وقالت فى حدة :

- من الخوف الذى تربيها عليه .. لعلك تصعد إليها وتضربها ، كما ضربتها بالأمس .. يا رحمى بيه أحب أن أقول لك إنى لا أؤمن بفرض الخوف على الأطفال لتربيتهن .. المفروض أن تعتمد فى التربية على الاقناع ..

وقاطعها دون أن يبدو عليه الغضب :

- إن الخوف هو أضمن طريقة للاقناع . . ان المقتنع بالله يخافه أكثر مما يخافه الكافر به ..

وقالت وهى لا تزال محتدة :

- هذا كلام رجعى .. إن الاقناع لا يحتاج إلى الخوف .. بالعكس إن الاقناع مع الخوف يسمى الاستسلام .. انك تريد من فوفو أن تستسلم لك ، وهو ما يدفعها إلى أن تستسلم لغيرك .. لكل ما يخيفها .. وكأنك جعلت منها حيواناً أليفاً ..

ونظر إليها نظرة ليست غاضبة أو مهددة :

- ماذا تريدين ؟

وقالت كأنها تفرض أوامرها :

- أريدك أن تترك لى حق تربيتها كاملاً .. أى شىء تريده منها أطلبه منى أولاً .. حتى لو أردت أن تضربها يجب أن أوافق أنا أولا على ضربها .. إنها أول مرة أضع شروطا للاستمرار فى الخدمة ..

وقال فى هدوء :

- كما تشائين . .

ثم قام من أمامها ودخل غرفته ..

وتتبعته إلى أن أغلق الباب وراءه .. غريبة .. إنه ليس حاد الطباع كما كانت تتوهم .. وهو يحتمل أن يوجهه غيره مهما اختلف معه .. وقد أصبحت تذهب إلى فوفو فى الثامنة صباحاً ولا تتركها إلا بعد أن تتناول العشاء وتنام .. وفى مرات كثيرة كانت تلتقى به فى الصباح جالساً يقرأ الجرائد ، وتكتفى بتحيته من بعيد وهو يرفع رأسهُ عن الجريدة ويرد تحيتها .. ولم تر أبداً ابتسامة يستقبلها بها .. ولكنها ترى فى عينيه خطوطاً مرحبة بها ، كأنه يبتسم بعينيه .. ولم يكن يدخل غرفة فوفو كل يوم .. كان يدخل أحياناً ويكتفى بأن ينظر إليها من بعيد ثم ينقل عينيه إلى سميرة ثم يخرج .. وفى مرة استوقفته قائلة :

- ان فوفو ستتم السادسة ولم تدخل مدرسة حتى الآن ..

وقال وهو يقلب شفتيه كأنه قرفان :

- إننا نستدعى لها مدرسات ثم إنك معها .. وهذا يغنيها عن المدرسة ..

وقالت كأنها تتحفز لمعركة طويلة :

- لا .. هذا لا يكفى ..

قال مقاطعاً وهو يبتعد خارجا من الغرفة :

- لنؤجل المناقشة إلى العام القادم ..

ووقفت مجمدة مغتاظة .. إنه أصبح يحل المشاكل بالهرب منها .. وكانت قد تتبعته طوال هذه الأيام والأسابيع التى قضتها مع ابنته ، وهى تحاول أن

نكتشف شخصيته .. ما هو ؟ .. وقد استقرت على انه يعيش شخصية فلاح من الجيل القديم .. إنه فلاح .. ابن فلاح .. وكل ما عاشه فى المدينة لم يجرده من شخصيته كفلاح .. إنه يؤمن بالخوف كطريق وحيد لتربية الأطفال والتعامل مع الناس وهو نفس ما كان يؤمن به أسياد القرى من سادة الفلاحين فى معاملة أهل القرية .. وهو لا يريد أن تذهب ابنته إلى المدرسة كما كانت بنات العائلات الكبيرة فى الريف لا يذهبن إلى المدرسة .. ونفيسة التى تخدمه ويعتمد عليها كل الاعتماد من أهل قريته .. كذلك الرجل الذى يعتبر نفسه الطباخ والسفرجى إنه أيضاً فلاح .. والبيت الذى يقيم فيه انقلب إلى دوار فلاحى بمجرد أن توفيت زوجته .. وهو يكره ابنته .. لا .. لايكرهها .. ولكنه يعاملها معاملة البنات فى عائلات الريف الكبيرة أيام زمان .. وأحيانا تحس إنه يعتبر ابنته عورة .. قد تفضحه .. هكذا كان ينظر رجال زمان من الفلاحين إلى بناتهم .. بل إنه عندما يجلس إلى المائدة ليأكل ويكون وحيداً لا يستعمل الشوكة والسكين وهو يأكل .. إنه يأكل بأصابعه .. وبمنتهى حرية التعامل مع ما يأكله .. إنه ابن فلاح .. ولا يزال هو فلاحاً .. ورغم ذلك فقد بدأت تحس انه يمكن أن يحتمل .. بل بدأت تحس بالاطمئنان إليه .. وتحس أن شخصيته تهب شخصيتها منتهى القوة .. لقد دخل عليها مرة من المرات النادرة التى يدخل فيها حجرة فوفو .. ورأى البنت جالسة وصدرها عار فرفع كفه وهم أن يضربها ولكنها أمسكت بيده قبل أن تصل إلى صدغ فوفو وقالت له :

- انك لم تتفق معى على ضربها .. كما عاهدتنى ..

وهبطت ذراعه وأطبق على كفه دون أن يضرب ابنته .. ولوى شفتيه كأنه يحتقر ما حوله .. أو ربما يحتقر نفسه .. إنها تربيها وتنشئها بكل ما تحتاج إليه التربية .. ثم إنها أصبحت تصارح نفسها بأنها تهتم أكثر من الاهتمام العادى بتحليل شخصية رحمى وتتبعه فى كل تحركاته .. إنها تحس بأنها

أصبحت متعلقة بهذه الشخصية الفلاحى رغم كل ما فيها من شذوذ .. ربما أصبحت تحبه .. لا .. إنها حرمت على نفسها حب أى رجل .. ثم من أدراها أن رحمى يمكن أن يحبها هو الآخر .. إنها ليست جميلة جمالاً يغريه بها حتى يحبها ويريدها أكثر .. لعل كل ما هناك أن شخصيتها الجذابة هى التى دفعته إلى تحملها كل هذه المدة .. وتحمل كل ما تريده لابنته .. على كل حال ، فقد تعودت على العمل فى هذا البيت كأنها لم تعد تستطيع الاستغناء عنه .. وعن ابنتها فوفو .. إنها تحبها كأنها فعلاً ابنتها .. تعودت على العمل فى هذا البيت حتى إنها لم تعد تفكر فى المطالبة برفع أجرها .. إنها إلى الآن تعرف الطريق إلى عائلات السلك الدبلوماسى الذين يدفعون عشرة جنيهات فى الساعة لا فى اليوم ..

إلى أن دخلت يوماً البيت فى الصباح الباكر كما تعودت ، وقام من على مقعده واقترب منها وقال ، وليس فى صوته ابتسامة ولكن فيه رنة رجاء وتحايل :

- إنى مضطر أن أسافر غداً إلى بورسعيد .. وسأضطر إلى أن أغيب يومين .. فهل يمكن أن تبقى مع فوفو هذين اليومين ولا تتركيها وحدها ..

ولم تفكر سميرة طويلاً ، وقالت وهى تبتسم :

- لا .. لا يمكن .. إنى سأبقى معها إلى أن تنام ثم أعود إلى أمى .

وقال فى صوت آمر :

- قولى لأمك أنك ستقضين الليل هنا مع فوفو ..

وضحكت سميرة كأنها تستهين به كرجل يستطيع أن يأمر :

- أمى لا يمكن أن توافق على أن تختفى البنت عن البيت طوال الليل إلا إذا
- كانت قد تزوجت ..

وقال رحمى فى صوت لا يبدو فيه المفاجأة وكأنه يقول ما قرره من زمن طويل :

ـ لنتزوج .. اليوم سأذهب معك إلى والدتك ومعنا المأذون ..

وقالت سميرة وهى ترتعش من الدهشة ..

ـ ماذا تقول ؟

وقال فى هدوء :

ـ سنتزوج .. وإن كنت أرجو اعفائى من أى حفل لزواجنا .. لن يكون معنا غريب .. وثقى انى سبق أن فكرت طويلاً فى هذا الزواج .. لا من أجل التخلص من عبء تربية فوفو فحسب .. ولكن لأنى فى حاجة إلى هذا الوضع ..

وكان يقول كل هذا دون أن تبدو بين شفتيه ابتسامة ، ولكن نظرات عينيه فيها رجاء لها .. وقالت وهى ساهمة دون أن تنظر إليه :

ـ إنى لا أستطيع أن أعيش خائفة ..

وقال بسرعة :

ـ أعرف .. أنك تعيشين بالمنطق والاقناع لا بالخوف ..

وقالت فى صوت متردد ..

ـ اذن كما تريد ..

□ □

وتم الزواج .. وعادا وحدهما إلى البيت .. وفوفو فى انتظار سميرة وهى

تبكى لغيابها عنها .. وأخذتها سميرة بين أحضانها ودخلت بها إلى غرفتها .. وقال رحمى من بعيد :

ـ سأنتظرك فى غرفتى ..

وقالت وهى تضحك ضحكة لم يسمع البيت مثلها من قبل :

ـ لا .. سأنام مع فوفو .. كان الزواج لها ولننتظر إلى أن يصبح لك .. وأكون كأنى أصبحت زوجتك لا زوجة فوفو وحدها ..

ودخل غرفته وقذف بالباب وراءه يغلقه فى عنف كأنه يصفعها على وجهها ..

وبدأت القصة من جديد ..

صديق ذهب..

تعودت نسيان أى قصة أكتبها بعد نشرها حتى يتفرغ عقلى تفرغاً كاملاً للبحث عن قصة أخرى أكتبها .. إنى أكتب كل قصة وكأنى لم أكتب قبلها أى قصة .. وأحس انى فى حاجة دائماً لمن يذكرنى بما نشر لى من قصص قصيرة فإنى منذ وعيت وأنا أهوى كتابة القصص القصيرة إلى حد الادمان .. حتى انى أكاد أكتب كل اسبوع قصة قصيرة ووصل عدد ما نشر إلى مئات .. وكل قصة انساها وأعيش كلى فى قصة أخرى أكتبها ..

ولكنى بعد أن انتهيت من كتابة هذه القصة القصيرة وجدت خواطرى تندفع إلى تذكر انى عرضت موضوع هذه القصة فى قصة أخرى سابقة قد أكون نشرتها منذ عام او منذ عشرة أو عشرين عاماً .. ودون أن أحاول التأكد بمراجعة ما سبق أن نشر لى من قصص قررت بينى وبين نفسى عدم نشر هذه القصة .. ولكن لماذا لا أنشرها .. إن الموضوع الواحد يتسع لعشرات القصص .. تختلف كل منها فى رسم الشخصيات .. وفى تحديد الأحداث .. وفى الوصول إلى النتائج .. ثم فى اسلوب السرد نفسه .. بل أن بعض كبار الكتاب العالميين أعادوا كتابة قصص سبق أن كتبوها ونشروها بعد أن خطرت لهم صور وأفكار أوسع مما سبق أن كتبوه .. ولا يمكن أن يتهم كاتب بأنه يسرق أفكاره من نفسه أو يحدد

نفسه مادام يقدم جديداً حتى فى موضوع يعتبر قديماً بالنسبة له بعد أن سبق أن عرضه .. لذلك ودون أن أراجع ما سبق أن كتبته فقد أقدمت على نشر هذه القصة وأنا متأكد انها قصة جديدة حتى لو كانت تعرض موضوعاً سبق أن عرضته .

□

سألوه وهو بينهم :

- أين صديقك معتز عبد الرحمن .. لقد تعودنا أن نراه دائماً وهو فى صحبتك .. ثم لم نعد نراه .. وابتسم الدكتور ياسر وقال وقد انطلقت عيناه إلى بعيد كأنها تعلقت بذكريات :

- ولا أنا .. لم أعد أراه ..

وكان الناس قد تعودوا فعلاً على أن يروا معتز عبد الرحمن ، وكأنه ولد ملتصقاً بالدكتور ياسر .. فهو دائماً معه فى جميع مجالات المجتمع .. بل أن الدكتور ياسر كان يدعى أحياناً بمفرده إلى إحدى السهرات ، فيستأذن دائماً فى صحبة معتز معه .. وحتى فى العيادة الطبية التى يعمل فيها الدكتور ياسر فقد كانت تنقسم إلى غرفة مكتب بجانب غرفة الكشف على المرضى .. وكل مريض يدخل إلى غرفة المكتب يرى معتز قابعاً فيها .. منزويا على مقعد جانبى بعيداً لا يتكلم ولا يسمع .. ولكنه يقطع الوقت الطويل يتصفح الصحف والمجلات أو قراءة كتاب .. حتى ينتهى الدكتور ياسر من الكشف على مرضاه فيخرج من العيادة وبصحبته معتز الذى تنطلق على شفتيه ابتسامة فرحة كأنه طفل يصحبه أبوه إلى نزهته ..

وقد ارتبط أحدهما بالآخر منذ كانا طالبين فى المدرسة الثانوية .. ومنذ البداية والفارق شاسع بين شخصية كل منهما .. فقد كان ياسر يعيش الحياة كلها ، ويقبل على التمتع بكل جوانبها .. كان وهو طالب من الشخصيات البارزة بين الطلبة .. كان من البارزين فى أكثر من رياضة .. وكان من قادة كل المشاكل الطلابية .. وكان فى الوقت نفسه ينجح بسهولة فى امتحان كل عام .. كما كان أيضاً يعيش فى قصص غرام متنقلاً بين قصة وقصة ، أى بين فتاة وأخرى .. بينما كان معتز لا يمارس الحياة ، ولكنه يبدو كأنه لا يستطيع أكثر من الفرجة عليها .. ولعل ما كان يربطه بياسر إنه أدمن الفرجة عليه .. يتفرج عليه وهو يلعب .. وهو يعمل .. وهو يضحك .. وهو جاد .. حتى وهو يغازل فتاة .. أو يهرب من فتاة .. كان معتز يبدو بلا أى شخصية فى أى مجال .. كان يبدو كأنه يعيش كمجرد إناء يصب فى نفسه متعة الفرجة على ياسر .. وقد إنتهى ياسر من دراسته الثانوية قبل معتز بسنتين .. والتحق بكلية الطب .. واستطاع بعد تخرجه بسنوات قليلة أن يكتسب اسماً محترماً بين الأطباء ، وثقة هائلة بين المرضى .. أما معتز فبعد أن اجتاز الدراسة الثانوية بمشقة التحق بكلية التجارة ، وطال عمره فيها إلى أن تخرج ، واستسلم لوظيفة حكومية متواضعة جاءت إليه دون أن يسعى إليها .. ورغم هذا فقد عاش دائماً ملتصقاً بياسر .. مستسلماً لادمانه الفرجة عليه ..

وقد تعود الدكتور ياسر على صحبة معتز والارتياح إليه كأنه هو الآخر أدمنه .. ربما لأنه مستسلم له كل هذا الاستسلام .. ولأنه ليس فيه شىء يثيره أو يخشاه .. ولذلك كان يترك بابه مفتوحا له على آخره .. ويترك له حق الاطلاع على كل أسرار تصرفاته .. سواء تعمد اكتشاف هذه الأسرار أو وصلت إليه تلقائياً بحكم معاشرته .

ولم يكن فى مظهر معتز ما يفرض عليه هذا الاستسلام لشخصية ياسر ..

أى ليس ـ مثلاً ـ له مظهر منفرد بحيث يعتزل الناس كلهم ويكتفى بارتباطه بياسر .. أو يصاب بعقدة نفسية تجعله يتصور أن الناس تنفر منه ولا يطيقه إلا ياسر .. بالعكس .. لقد كان معتز عبد الرحمن شاباً وسيماً رشيقاً مريحاً يمكن أن يجتذب كل من يلتقى به .. ولكنه هو نفسه لم يكن يحس بوسامته ولا برشاقته حتى يحاول الاعتماد عليها واستغلالها .. كان غريباً .. لا يحس بأى صفة من صفاته .. لا يحس بأنه وسيم أو رشيق .. ولا يحس بأنه ذكى أو غبى .. ولا يحس بأنه قوى أو ضعيف .. كأنه حتى بعد أن أصبح شاباً لا يزال طفلاً رضيعاً لا يحس بأى حاجة من نفسه إلا حاجته إلى ثدى أمه .. وكأن صديقه ياسر قد أصبح الثدى الوحيد الذى يحس به ويحتاج إليه ليرضع .. وهو دائماً مبهور بكل ما يرضعه من هذا الثدى .. مبهور بالشخصيات التى يتفرج عليها وهو بصحبة ياسر .. ومبهور بالمجتمعات اللاهية أو الجادة التى يصحبه إليها ..

وقد كانت ناحية من نواحى شخصية الدكتور ياسر قد ازدادت اتساعاً بعد أن نجح كطبيب وأصبح ذا اسم رنان فى المجتمع .. وهى ناحية تعلق البنات والنساء به وادمانه اشباع متعته بهن .. إلى منتهى ما يستطيع أن يصل إليه من متعة .. حتى إنه نظم حياته كلها على هذا النوع من البنات والنساء اللاتى وقعن فى التعلق به .. ولم يطرأ على باله أبداً أن يتزوج .. إنه ليس فى حاجة إلى الزواج .. ولم تصادفه واحدة فرضت عليه الاقتناع بأن يتزوج .. ثم لماذا يضحى بكل هذه المتعة السهلة التى توفرها له شخصيته ونجاحه ويتزوج ..

وكانت كل امرأة من هذه المجموعة تأتى إليه فى العيادة بالاتفاق معه .. وتبقى فى غرفة المكتب إلى أن ينتهى من مرضاه فيغلق باب العيادة ويتفرغ لها فى غرفة المكتب .. وصديقه معتز دائماً فى غرفة المكتب والمرأة الوافدة تجلس بجانبه .. ولم يكن من طبيعة معتز أن يثير الحديث بينه وبين أى إمرأة .. فكانا يجلسان صامتين .. وربما يقنعان نفسيهما بالصمت حتى

لا يزعجا الدكتور ياسر وهو يؤدى عمله .. حتى يغلق باب العيادة ويبدأ الدكتور ياسر نفسه فى بث الحياة الأخرى فى الغرفة .. ويرتفع انبهار معتز بأسلوبه فى التعامل مع المرأة .. وينبهر بكل الكلمات التى يتداولها معها .. كأنها كلمات موسيقية تطرب أذنيه .. إنها كلها كلمات حب .. ورغم إنها كلمات مكررة يتبادلها ياسر مع كل امرأة إلا إنها كلمات مطربة .. ثم يقوم معتز ويعد الكؤوس ومستلزماتها دون أن يطالبه الدكتور ياسر بشىء .. وكأنها مسئولية مكلف بها معتز .. وفى الغرفة دولاب صغير مبتعد مختف يضم كل متطلبات الكأس ولا يعرف سره إلا معتز .. ثم يعود ويجلس معهما حول الكؤوس التى أعدها إلى أن يقدم الدكتور ياسر ويشد المرأة إلى الغرفة الأخرى .. غرفة الكشف .. وهو يقول ضاحكاً .. عن اذنك .. سأكشف على ست الحسن والجمال .. لعل صحتها قد تحسنت .. ثم يغلق باب الحجرة الأخرى عليهما .. ومعتز قد يبقى وحيداً منتظراً نهاية الكشف وهو يكمل كأسه .. أو قد ينصرف بلا استئذان .. وهو لا ينصرف ولا يبتعد عن الدكتور ياسر إلا إذا ألح النوم على جفنيه ولم يعد يستطيع مقاومته ..

كانت هذه مظاهر روتينية فى الحياة التى تجمع بين ياسر ومعتز .. وإن كان ياسر أحياناً يستقبل امرأة فلا يتركها تنتظره فى غرفة المكتب بل يصحبها مباشرة إلى غرفة الكشف بعد أن يؤجل موعد الكشف عن أحد المرضى المنتظرين .. خصوصا إذا كانت هذه المرأة جديدة التردد على العيادة .. أو كانت صغيرة لا تستطيع الانتظار الطويل .. وفى مثل هذه الحالات يحس معتز بحسرة .. يحس إنه ظلم مع هذه الفتاة .. لأنه حرم من جلسة الفرجة التى يعيش بها ..

إلى أن ظهرت ماجدة فى العيادة وأصبحت ممن ينتظرون فى غرفة المكتب ..

وماجدة امرأة شابة جميلة .. ومثيرة .. وإن كان جمالها يبدو كأنه مرسوم كما يبدو انها تحترف الاثارة .. ولم تكن ماجدة تجلس صامتة بجانب معتز وهما فى الانتظار بل كانت تستطيع دائماً أن تشد معتز إلى أحاديث يتبادلانها فى همس .. ومعتز يستجيب إلى هذا الهمس كأنها تنتشله من طبيعته .. والدكتور ياسر يصل هذا الهمس إلى أذنيه .. ويلومها بنظرات عينيه .. فيعودان إلى الصمت برهة ثم لا تلبث ماجدة أن تضيق بصمتها وتعود إلى الهمس مع معتز .. إلى أن ينتهى الكشف على المرضى ويغلق باب العيادة وتبدأ الجلسة الروتينية دون أن يتغير فيها شىء ..

إلى أن جاءت ماجدة ذات مساء إلى غرفة المكتب وانتظرت .. ولكنها كانت متعجلة .. وطلبت من الدكتور ياسر أن يؤجل الكشف على مرضاه .. ولكنه اعتذر فى كلمة حلوة .. أن العيادة مزدحمة هذا المساء بالمرضى وهو لا يستطيع أن يتخلى عنهم .. أو ربما لم تكن ماجدة دافعاً كافياً له للتخلى عنهم وقالت ماجدة بابتسامتها المثيرة :

- آسفة .. إنى مضطرة أن أتركك .. لنؤجل موعد الكشف إلى موعد آخر يا دكتور ..

وقال الدكتور ياسر ضاحكاً :

- كما تريدين .. مادمت لست فى حالة حب خطيرة .. ثم التفت إلى معتز قائلاً :

- اصحب ماجدة فى سيارتك إلى حيث تريد .. وقام معتز مستسلماً فى صمت وخرج من غرفة المكتب وراء ماجدة ..

وتفرغ الدكتور ياسر لاستقبال مرضاه إلى أن انتهى منهم كلهم .. وألقى نفسه على مقعده فى غرفة المكتب وهو يزفر أنفاساً متعبة .. ثم فجأة وبسرعة

اتسعت عيناه دهشة كأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه .. أين معتز .. إنه ليس معه فى الغرفة .. وأطل فى ساعته .. لقد مضى على خروجه أكثر من ساعتين .. وتكليفه بتوصيل ماجدة إلى حيث تريد لا يمكن أن يستغرق أكثر من نصف ساعة .. وليس من عادته أن يتصرف فى نفسه بأكثر مما يكلف به .. فلماذا لم يعد إلى العيادة حتى الآن .. أين ذهب .. أو ماذا حدث له .. وضاقت عينا الدكتور ياسر جزعاً وهو يتصور أن معتز قد يكون قد تعرض لحادث وهو يقود سيارته ..

وفجأة دق جرس التليفون .. ورفع ياسر السماعة فى لهفة .. إنه معتز .. وقبل أن ينطق بكلمة سمعه يصيح :

- لا تكلفنى مرة ثانية بتوصيل ماجدة .. أو مجرد أن تتركها تنفرد بى فى أى مناسبة .. لقد حاولت أن تحرضنى على نفسها .. إنها من الصنف الذى يسعى إلى إلتهام أى رجل ..

وابتسم ياسر بينه وبين نفسه ابتسامة ساخرة ثم قال فى هدوء :

- لماذا لم تعد إلى .. أين أنت الآن ..

وقال معتز بكلمات مرتعشة :

- لقد انهكتنى مقاومة ماجدة وتأديبها حتى انى بعد أن تخلصت منها أحسست اننى لن أستطيع أن أقف على قدمى .. وقررت أن أعود إلى البيت وألقى بنفسى على الفراش حتى أسترد أنفاسى بعد أن أتصل بك بالتليفون وأطمئنك ..

وقال ياسر من خلال دهشته :

- إذن .. إلى الغد .. تصبح على خير ..

وألقى سماعة التليفون وهو يحس بإحساس غريب يطرأ عليه لأول مرة كأنه يريد أن يثبت لمعتز إنه لا يهمه وإنه يستطيع أن يستغنى عنه فى أى ليلة من الليالى ..

ولم تمر سوى دقائق حتى دق جرس التليفون مرة أخرى .. ورفع الدكتور ياسر السماعة وهو يعتقد إنه معتز عاد ليقدم مزيداً من الاعتذارات .. أو ربما تحامل على نفسه وقرر مقاومة ما يدعيه من إنهاك ويبلغه إنه فى طريقه إليه .. ولكنه ليس صديقه معتز .. إنها ماجدة .. وقالت له فوراً :

- يبدو أن الصداقة لا تساوى شيئاً بين الرجال .. وأنت تعتبر أن معتز صديقاً لك حتى انى كنت أغار منه عليك .. وأتحمل فى سخط انك تفرضه علينا فى كل جلسة تجمع بيننا .. وكنت أتحمله مقتنعة بما يربطكما من صداقة كأنكما أخ وأخوه .. لا يا دكتور .. أحب أن أقول لك أن معتز لا يحترم صداقتك .. لقد حاول أن يعتدى علىّ بعد أن انفرد بى بعيداً عنك .. كأنه لا يعترف بأنى لك وحدك .. كأنى زوجة أخيه .. إنه لم يراع شرف المبادىء التى تجمع بين الأصدقاء .. ولكنى قاومته حتى وصلت به إلى اليأس من أن أمنحه ولو مجرد لمسة ..

وافتعل ياسر ضحكة عالية وقال :

- اعذريه يا ماجدة .. فإن جمالك لا يقاوم ..

وقالت ماجدة فى حدة :

- لا تترك له الفرصة لينفرد بى مرة ثانية .. وأنا نفسى لن أقبل أن أنفرد به ..

وقال ياسر وهو لا يزال يضحك :

- اطمئنى .. سأدعوه إلى المبارزة وسأقطع رقبته .. وسأنتظرك غداً ..

وقالت ماجدة فى تردد :

- لا .. ليس غداً .. وإلى اللقاء ..

ووضع الدكتور ياسر سماعة التليفون وهام فى تحليل ما سمعه وما حدث .. ووجد نفسه ينتهى إلى ترجيح إنه قد تم كل شىء بين معتز وماجدة .. لقد أعطى كل منهما نفسه للآخر .. أخذ معتز ماجدة .. وأخذت ماجدة معتز .. وذاب كل منهما فى جسد الآخر .. ولكن لا شك أن معتز متأكد من قوة تعلق النساء بصديقه الدكتور ياسر وربما خشى أن تسبقه ماجدة وتروى له ما حدث بينه وبينها وتدعى انها كانت بريئة ومغلوبة على أمرها .. ولذلك فقد سبقها هو إلى صديقه ياسر وروى له انها حاولت إغراءه ولكنه قاومها .. وكذلك من ناحية ماجدة فهى لا شك تقدر مدى ارتباط معتز بصداقة ياسر وخشيت أن يسبقها إليه ويروى له ما حدث مدعياً هو الآخر إنه مغلوب على لذلك فقد حاولت أن تسبق معتز إلى التحدث مع ياسر حتى تبرىء نفسها كل ما يمكن أن يقوله له معتز .. أى أن كلاً منهما حاول أن يبرىء نفسه كى يحتفظ بصداقة الدكتور ياسر .. وارتباطه به .. وثقته فيه ..

ما وصل إليه فكر الدكتور ياسر .. واعتمد على عدة مظاهر تؤكد إنه على حق .. فقد اتصل به كلاهما بالتليفون فى وقت واحد .. وبعد أن مضت ساعات على ابتعادهما عنه تكفى ليحققا خلالها متعة لقائهما معاً ..

ورغم ذلك فهو ليس ثائراً ولا ناقماً على ماجدة أو على معتز .. ان ماجدة ليست سوى متعة عابرة من بين عشرات المتع التى تملأ حياته .. ولا يطالبها بأى دليل على الحب إلا دليل ترددها عليه بين وقت وآخر .. ولا يحس بأنه يفرض عليها الاخلاص وأن تكون له وحده .. مادامت تعطيه ما يريد .. وهو لا يريد أكثر من لحظات المتعة . . أما معتز فقد ربطته به فعلاً صداقته الطويلة .. حتى لم يعد يستطيع أن يستغنى عنه وعن صداقته .. وقد كان

اطمئنانه إليه يتخلله إشفاق عليه لأنه يعزل نفسه عن متع الحياة كل هذا العزل .. ويكتفى بمجرد الفرجة عليه .. وكثيراً ما حاول أن يدفعه إلى مصاحبة فتاة يختارها له .. أو يدفعه إلى عمل واسع يوفر له مكانة اجتماعية خاصة به .. ولكن شخصية معتز .. الشخصية المتباعدة والخجولة والضعيفة اجتماعيا كانت لا تحتمل أى تطور بها .. فإذا كانت ماجدة قد استطاعت أن تحقق هذا التطور وتشد معتز إلى دنيا جديدة عليه .. فإن ياسر سعيد .. وربما لو أن معتز نفسه سأله أن يترك له ماجدة لتركها له ..

إنه لا يهمه ما حدث بين ماجدة ومعتز مهما كان ما حدث .. إن كل ما يهمه هو أن يتأكد من معرفة ما حدث بكل تفاصيله ..

وكان قد تأخر الليل وهو جالس فى مكتب العيادة شارداً مع خواطره .. ثم إنه لم يتعود أن يخرج ليقضى سهرة دون أن يكون معتز فى صحبته .. لذلك قرر فى هذه الليلة أن يخرج من العيادة إلى البيت .. دون أن يحس بحاجته إلى أى متعة ترفه عنه تعبه مع مرضاه ..

إنه لا يزال مرتبطاً بمعتز .. كلاهما يقضى السهرة وحده فى البيت .. وإن كان معتز فى هذه المرة هو الذى فرض إرادته ..

□ □

وعاد معتز مواظباً كعادته فى التردد على العيادة والانتظار الطويل فى غرفة المكتب إلى أن ينتهى الدكتور ياسر من عمله ولقاء مرضاه .. وقد فقد واحدة من المعجبات إلى غرفة المكتب ، ويقوم معتز فى بساطة بتأدية واجبه المفروض عليه بتقديم الكؤوس وما تحتاجه الكؤوس .. إلى أن يترك الدكتور ياسر يصحب المرأة إلى غرفة الكشف ويغلق الباب وراءه .. وفى هذه الأيام لم يحاول ياسر أن يلح على معتز حتى يروى له ما حدث بينه وبين ماجدة ..

إنما مجرد بعض كلمات ضاحكة عابرة كانت تمر كلما جاء ذكر ماجدة .. وكان ياسر لا يحاول أن يفتح الموضوع فى نقاش مع معتز فى انتظار أن يبدأ هو بالحديث فيه ورواية أسراره .. ولكن معتز لم يبدأ أبداً كما أن ياسر لاحظ أنه أصبح أكثر سرحاناً وصمتاً مما كان عليه .. بل أن معتز بدأ يتأخر كثيراً عن موعد ظهوره فى العيادة وانتظاره فى حجرة المكتب .. كما إنه فى أحيان كثيرة يعتذر عن إتمام السهرة بصحبة ياسر ويدعى حاجته إلى العودة إلى بيته ..

وفى نفس الأيام بدأ الدكتور ياسر يلاحظ أن ماجدة لم تعد تفد عليه دون أن يدعوها إلى لقائه فى غرفة المكتب كما تعودت .. كأنها قد انهت إرتباطها به .. مضت أيام طويلة لم تظهر فى العيادة .. وهو لم يتعود أن يبدأ بدعوتها ولكنه كان يكتفى دائماً بالسماح لها بزيارته عندما تطلب وعندما يحس بحاجته إليها ..

وقد اشتدت الحيرة بالدكتور ياسر حتى تجرأ واتصل بماجدة وبدأ هو بدعوتها إلى رؤيته مؤكداً فى كلمات حارة إنها قد أوحشته .. وقالت ماجدة كأنها تقاوم استسلامها :

ـ أريد أن أراك وحدك .. وانت تعرف لماذا ؟ فقد سبق أن شكوت لك ..

وقال ياسر بسرعة :

ـ إنى وحدى وليس لى إلا أنت ..

كأنه خدعها بكلمة حلوة ..

وفى نفس اليوم تأكد أن معتز سيكون معه ولو إنه حرص على ألا يبلغه انه اتفق مع ماجدة لتكون معهما ..

إنه يريد أن يفرض واقعاً بعينه على اكتشاف السر الذى لم يصل إليه بعد .. يريد أن يعرف أسرار ما تغير فى شخصية صديقه معتز وما تغير فى ارتباط ماجدة به ..

وجاء معتز وجلس على مقعده المنزوى فى انتظار أن يبدأ الفرجة ..

وبعد قليل دخلت ماجدة ..

ولاحظ ياسر رعشتها كأنها صدمت برؤية معتز .. ولاحظ أنفاس معتز تنهج كأنه صدم برؤية ماجدة ..

ولكن كليهما كتم مشاعره وبدأت الجلسة مع الدكتور ياسر كما تعودوها .. وإن كان معتز قد ابتعد عن ماجدة كأنه لا يريد أن يستمع إلى همساتها التى عودته عليها كلما إلتقيا فى هذه الغرفة .. وماجدة نفسها لا تحاول أن تهمس له .. وقد أدارت رأسها عنه كما أدار رأسه عنها ..

وكما هى العادة إنتهى الدكتور ياسر من مرضاه وانتقل جالساً بينهما .. ومعتز لم يندفع فى اعداد الكؤوس كعادته حتى اضطر ياسر أن يصيح به :
- أين الكؤوس يا معتز ..

وقام معتز متكاسلاً دون أن ينظر إليهما وعاد بالكؤوس .. ثم استمر لجلسة باردة ثقيلة تتردد فيها كلمات مفتعلة دون أن يستطيع الدكتور ياسر بكل خفة دمه ولباقته أن يزودها بأى ضحكة .. إلى أن قام وشد يد ماجدة قائلاً :
- تعالى لأكشف عما جرى .. انى متأكد انك أصبحت مريضة ..

وحاول أن يشدها إلى الغرفة الأخرى .. فإذا بها تقاوم وهى تنظر إلى معتز كأنها تستغيث به .. وقام معتز منطوراً قائلاً :

- إنى منصرف ..

وصاحت ماجدة :

- انتظر .. سأنصرف قبلك ولن أنصرف معك حتى لا تدعونى إلى سيارتك ..

ثم التفتت إلى ياسر وقالت من خلال ابتسامة مرسومة :

- اسفة يا دكتور .. إنى متعبة ..

ودون أن تنتظر منه كلمة شدت يدها من يده وخطت كأنها تجرى إلى خارج العيادة ..

وانتظر معتز دقائق وهو صامت .. والدكتور ياسر ينظر إليه كأنه يحلق فيه متسائلاً وهو صامت هو الآخر .. إلى أن خطا هو الآخر خارجا من العيادة ..

وابتسم الدكتور ياسر ابتسامة ثقيلة وهو يقول لنفسه .. من يدرى .. ربما وجد ماجدة فى انتظاره داخل سيارته ..

□ □

ومن يومها لم تدخل ماجدة العيادة ولم تجلس فى غرفة المكتب فى انتظار أن تبدأ السهرة .. ولم يحاول الدكتور ياسر الاتصال بها ودعوتها .. لم يعد فيها ما يجذبه إليها .. وازدحام حياته يجعله فى غنى عنها ..

والأغرب من ذلك أن معتز عبد الرحمن أيضاً بدأ يتباعد عند الدكتور ياسر .. كأنه يهرب منه أو كأنه يقطع نفسه منه بعد هذا الارتباط الكامل الذى جمع بينهما كل هذا العمر الطويل .. وقد اتصل به بالتليفون وقال فى لهجة لم يسمعها منه من قبل :

- لن أراك الليلة .. فإنى مشغول .. مشغول جداً .. وسأروى لك التفاصيل عندما نلتقى ..

ومع صدمة الدهشة استسلم الدكتور ياسر إلى اعتذاره دون أن يلح عليه .. وكان أشد ما أثار دهشته هى اللهجة التى يحدثه بها معتز .. إنه يتحدث فى لهجة قوية باترة كأنه يفرض عليه قراره بعدم رؤيته . . وهى لهجة لم يتعود سماعها منه .. فقد كانت لهجته دائماً لهجة استسلام وضعف كأنها لهجة طفل يحادث أباه .. لهجة محتاج .. على الأقل محتاج للفرجة .. لعل معتز قد كبر وأصبح رجلاً يمكن أن يستقل بشخصيته ويرتفع فوق الاستسلام .. ياترى فيم هو مشغول حتى يستطيع أن يعيش بلا رؤيته ؟ .. مشغول بنفسه إلى حد لم يعد فى حاجة إلى أن يكون مجرد متفرج على صديقه .. وابتسم الدكتور ياسر ابتسامة ساخرة وهو يقول لنفسه .. لعله أصبح مشغولاً بماجدة ..

وقد جاء إليه معتز بعدها بأيام ووقف أمامه كأنه شخص جديد لم يره من قبل .. واقف مشدود أمامه كأنه فى منتهى قوة الشخصية .. وقال فى كلمات حاسمة كأنه لا يسمح بمناقشته :

- لقد استقلت من الوظيفة الحكومية .. وساهمت فى شركة للتصدير والاستيراد .. أكاد أتحمل كل مسئولياتها .. لذلك فإنى متفرغ لها تفرغاً كاملاً ولم أعد أجد الوقت للقياك .. أعذرنى ..

وقال الدكتور ياسر فى دهشة :

- مبروك .. إنى أؤيد انطلاقك فى الأعمال الحرة و ..

وقاطعه معتز بسرعة قائلاً :

- لن أستطيع أن أسهر معك .. إنى على موعد .. وسأحاول أن أراك .. سلام عليكم ..

ومد يده يصافح ياسر .. وهذا أيضاً شيء غريب .. فهما لم يتعودا المصافحة بالأيدى .. فقد كانا من الاندماج : احدهما بالآخر إلى حد لا يشعران بحاجتهما إلى مصافحة الأيدى .. كأن ليس بينهما ما يفرق بين أيديهما .. إنهما يلتقيان ويبتعدان بمجرد لقاء النظرات .. يكفى أن يرى كل منهما الآخر ..

وغاب معتز بعدها عن ياسر .. لم يعد يراه .. ولم يحاول ياسر أن يبحث عنه .. إنه يعتقد إنه سيتنازل عن قوة شخصيته .. شخصية السيادة .. أو على الأقل شخصية الأخ الكبير المحترم .. ولكنه كان يصل إلى أخباره من بعيد .. وقد عرف إنه استقال فعلاً من الحكومة .. وإنه يعمل فعلاً فى شركة تصدير واستيراد .. وعرف إنه شوهد أكثر من مرة وهو بصحبة ماجدة .. هل هى ماجدة التى غيرت معتز كل هذا التغيير وجعلت منه شخصية جديدة مختلفة تماماً عن الشخصية التى كان يعيشها .. أو ربما كان معتز فى الواقع يعيش بلا شخصية فخلقت له ماجدة هذه الشخصية .. أو ربما كان كل ما حدث أن معتز بعد أن كان مستسلماً للحياة مرتبطاً بالدكتور ياسر أصبح يعيشها مستسلماً لارتباطه بماجدة .. ولكنه استسلام نقله إلى دنيا جديدة وإلى شخصية أخرى أقوى وأقدر على إثبات وجودها .. وماجدة امرأة شاطرة تستطيع أن تلهم بناء الشخصيات ..

وقد أصبح الدكتور ياسر يعانى فقدان معتز .. لقد عاش حياته كلها ومعتز بجانبه يعيشها معه .. وقد فقده .. ومن المستحيل أن يجد شخصية أخرى تعوضه عنه .. لن يجد أبداً شخصاً آخر يعيش كمجرد متفرج عليه كما كان معتز .. إنه يعيش الآن وهو فى منتهى الوحدة ولا يحس بأحد يتفرج عليه .. ولكنه كان لا يزال يتتبع أخبار معتز من بعيد .. كأنه يتتبع قطعة منه قد تركته وهاجرت إلى الخارج .. إلى أن عرف أن معتز قد تزوج ماجدة فعلاً .. وإنهما أصبحا يقيمان فى عش الزوجية ..

ولم يكن معتز قد دعا ياسر إلى عقد الزواج .. وحتى بعد ذلك لم يدعه أبداً إلى عش الزوجية كمجرد صديق ..

ولـه حق ..

إنه يحرص على نسيان ماضى زوجته وينأى عن كل ما يذكره به ولعل زوجته هى التى لا تريد أن تذكره بماضيها ..

الحب والفن ..

لقد حقق النجاح منذ البداية .. وأصبح مخرجاً سينمائياً من أفراد القمة الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة .. ولم يكن مجرد مخرج سينمائى بل كان أيضاً منتجاً سينمائياً .. وكان قد ورث عن أبيه مشروعاً زراعياً كبيراً ترك إدارته كله لأخيه الأصغر ، وتفرغ هو للسينما وكان يسحب على حساب المشروع الزراعى وينتج فيلماً .. وأخوه لا يعارضه أبداً .. ولكنه كان يغطى دائماً قيمة ما سحبه من المشروع الزراعى إلى أن أصبح الدخل السينمائى أضعاف دخل المشروع ..

أى إنه كان منتجاً ومخرجاً سينمائياً ناجحاً جداً .. وذلك أيام مجد السينما أى قبل عصر التليفزيون .. وكان أيضاً إنساناً اجتماعياً وسيماً خفيف الدم ..

وكل هذه الصفات كانت كافية بلا شك لتجذب إليه كل أنواع البنات والنساء .. يذبن صبابه فيه ولو من بعيد لبعيد .. ولكنه منذ البداية كان قد حرم على نفسه نوعين من النساء .. فهو لا يقيم علاقة خاصة مع أى أنثى تعمل فى السينما كممثلة أو تسعى لتكون ممثلة ونجمة سينمائية .. لا لأنه لا يحترم نساء السينما أو يعتبرهن من عالم آخر غير عالمه الخاص البعيد عن السينما .. أى عالم حياته الخاصة .. إنما فقط لأن الفن أقوى من الحب .. وأى امرأة تعمل فى التمثيل السينمائى هى فنانة .. وفنها يغلبها على الرجل الذى

يمكن أن تحبه أو تتزوجه .. أى تهجره أو تخونه إذا اضطرها الفن أن تهجر أو تخون .. ولا تهجر أو تخون الفن نفسه من أجل رجل سواء كان حبيبها أو زوجها أو أباها أو اخاها .. وهو يريد من أى فنانة تعمل معه أن تعيش الفن وحده .. لا شىء غير الفن .. لا حب .. ولا زواج ولا حتى مجرد ساعات متعة .. وعلاقة أقرب إلى علاقة رسمية بين مخرج سينمائى وفنانة .. لذلك لم تعرف عنه أى علاقة مع أى امرأة أو فتاة فى كل المجتمع السينمائى أو كل المجتمع الفنى .. أى بما فيه مجتمع المسرح ومجتمع الموسيقى ومجتمع الرقص ..

وكان دائماً يستشهد بأنه لا الحب ولا الزواج استطاع أن يعيش بين اثنين من الفنانين .. أى بين رجل وإمرأة كل منهما يحترف الفن .. والمجتمع الفنى مزدحم برجال تزوج كل منهم امرأة فنانة مثله .. وتمر الأيام ولابد أن يقع الطلاق .. وقد يتزوج نفس الرجل أو يعاشر فنانة أخرى وأيضاً لا تمر الأيام إلا ويقع الانفصال .. يبدو أن الفنان أو الفنانة لا يستطيع أن يعيش فى حالة فن طول اليوم والعمر كله .. فهو يقضى عمله مع الفن ثم يعود إلى البيت ويجد زوجته أو تجد زوجها فلا يجد أحدهما ما يتحدث فيه إلا الفن .. ويصاب كل منهما بنوع من الزهق والملل ثم تنتهى بالفراق .. إن الإنسان يجب أن يفصل حياته الخاصة عن حياته العامة .. أى إذا كان يقضى عمله بين فنانين فيجب أن يعود إلى بيته فلا يجده أيضاً يضم فناناً أو فنانة .. لذلك فان كل الفنانات اللاتى تزوجن أصحاب مهن أخرى كأطباء أو مهندسين أو مدرسين عشن العمر كله فى استقرار أكيد قوى ، وكذلك كل الفنانين الذين تزوجوا ستات بيوت لسن فنانات ..

المهم إنه لم يكن فى حياته الخاصة أبداً ممثلة من ممثلات السينما .. إنه لم يخلط أبداً بين عمله وأغراضه وأمزجته الخاصة ..

أما النوع الثانى من النساء اللواتى حرمهن على نفسه . . فهن النساء أو الفتيات اللاتى يعملن فى الصحافة وخصوصاً اللاتى يحررن الصفحات الفنية فى الصحف والمجلات .. فإن الصحافة قد تتمكن من الصحفى حتى تتغلب على أى حب .. أى قد يستغنى عن حبيبته أو تستغنى عن حبيبها إذا وجدت ما يفرض نشره الاستغناء عن الحب .. وقد عرف كثير من الفتيات الصحفيات وكل منهن تقدمت إليه وهى تعرض أى شىء وكل شىء فى سبيل الحصول منه على خبر أو على موضوع أو على حادث يثير ضجة لو نشرته .. أو على الأقل يصلح للنشر .. ولكنه كان يتعمد أن يعامل الصحفيات باحترام شديد ولا يعطى لنفسه أى فرصة لإقامة أى علاقة شخصية بينه وبين أى صحفية .. وكان بينهن كثيرات من الفتيات المغريات .. ولكنه كان يقاوم هذا الإغراء بحيث يظل كل ما بينه وبين أى واحدة منهن هو الاحترام المتبادل .. وهو لا ينكر إنه فى حاجة إليهن للنشر فى المجلات عن أفلامه وعن نفسه .. كما إنهن فى حاجة إليه للوصول إلى مواد النشر .. وقد عرفن عنه إنه لا يخضع للإغراء النسائى ولاشباع شهواته بل قيل عنه إنه عنين .. وهو عنين فعلاً تجاه الصحفيات ..

وقد اكتسب فى مجال عمله سمعة الفنان المحترم الهادىء الذى لا يتاجر بفنه لمجرد المتاجرة أو يبيع نفسه لشهواته مع النساء المحيطات به من الفنانات والصحفيات ..

ولكن بعيداً عن مجالات العمل السينمائى وبعيداً عن دنيا الفن كانت له دنيا خاصة واسعة مزدحمة بالنساء والبنات .. فهو شاب وسيم .. ومخرج ناجح .. وغنى يكسب الكثير .. كل ذلك كان يشد إليه بنات ونساء المجتمع الراقى .. وقد ارتبط بواحدة .. والثانية .. والثالثة .. والرابعة .. و .. و .. وكان يقول لنفسه إنه ينتظر إلى أن يجد من يتزوجها .. ولكنه لا يعتبر الزواج بداية تجربة .. بل يعتبر الزواج نهاية تجربة لتوفير حياة مستقرة أبدية تجمع بينه

وبين من تزوجها .. وحتى يكون الزواج نهاية تجربة لا بداية تجربة فيجب أن تستمر التجربة مدة طويلة .. سنوات .. حتى تؤكد أن كلا من الرجل والمرأة لم يعد احدهما يستطيع أن يستغنى عن الآخر وأن كلا منهما يوفر شخصية الآخر للاستمرار بالحياة .. ولكن .. كأنه يحلل الحرام .. فكيف يقضى مع امرأة يحبها سنوات دون زواج .. كيف يعاشرها بلا زواج .. يقصد المعاشرة الجنسية .. ولم يكن يهتم بهذا التساؤل .. إنه يترك هذه المعاشرة من حرية الطرفين .. فقد تقبل امرأة المعاشرة بلا زواج أو تمهيدا للزواج وقد ترفض أخرى أن تلمسها يد رجل إلا بعد الزواج .. وهو يحترم كل واحدة وإرادتها وحريتها .. لم يحاول أبداً أن يخدع امرأة أو يفرض إرادته على امرأة .. يجب أن تكون هى حرة كما إنه هو حر .. وقد قضى شهوراً طويلة مع امرأة فى لقاء يومى وليس بينه وبينها أى لقاء جنسى وقضى شهوراً أخرى مع إمرأة أخرى كانت لا تربط الجنس بالزواج .. المهم إنه لا يخدع ولا يفرض نفسه .. ولا يعد بالزواج إلا إذا وجد من تنتهى إليها التجربة .. ولم يجد حتى اليوم من تنتهى اليها هذه التجربة . . والزواج ليس لقاء جسد إمرأة بجسد رجل حتى يكفى فيه الاتفاق عليه دون تجربة كاملة .. إن الزواج هو لقاء الفكر والأحاسيس والطبائع بين رجل وإمرأة ولذلك فهو يتطلب مدة طويلة وتجارب واسعة حتى ينتهى إلى نجاح التجربة التى تؤدى إلى عقد القران .. وربما كان ذلك من تقاليد الزواج الشرعية فالتقاليد تخصص فترة خطوبة قد تطول سنوات .. هى فترة تجربة كل منهما للآخر حتى تنجح التجربة فى لقاء الفكر والأحاسيس بين الرجل والمرأة فتنتهى فترة الخطوبة ويعقد القران .. أى إنه كان يعتبر نفسه مع كل فتاة يجتاز فترة خطوبة .. وللأسف لم يجتز فترة الخطوبة مع أى إمرأة إلى فترة الزواج ..

حتى اليوم ..

أى إنه ليس متزوجاً ..

وهو فى الخامسة والستين من عمره ولم تصل به أى تجربة إلى الزواج ..

واتسعت عيناه فى دهشة عندما اكتشف إنه فى الخامسة والستين .. كأنه كان قد نسى .. ومهما كان مستوى احتفاظه بقوته التى يعيش بها فهو معرض لأن ينتهى عمره فى أى يوم .. يموت .. وهو يعلم أين ستذهب كل أفلامه وإنتاجه بعد أن يموت .. ولكنه خسر شيئاً هاماً .. فإن فى مكتبه درجاً يعتبره درج الأسرار يضم ألبوما كبير الحجم لصور جميع النساء اللاتى كان لهن دور فى حياته ، وكان لكل منهن بعض شهور أو سنوات استولت خلالها عليه .. فماذا يصنع بهذه الصور .. لا يجب أن يتركها حتى يرثها من بعده ورثته .. إن بينها صوراً لنساء تزوجن وأصبحن أمهات ومهما كانت الحالة التى تعيش فيها الآن فلا يجب أن تقع صورهن فى أيد غريبة قد تستغلها ضدهن رغم إنها كلها صور بريئة ..

وقد كان من عادته منذ شبابه كلما قامت علاقة خاصة يسميها علاقة حب بينه وبين أى امرأة فإنه يطلب منها صورتها أو يلتقط لها بنفسه صورة ويحتفظ بها فى درج الأسرار ويرفض أن يعيد الصورة إلى صاحبتها حتى بعد أن تنقطع العلاقة بينهما .. ولم يفرض إرادته ويثير مشاكل بسبب إعادة هذه الصور إلى صاحباتها ، ولكنه كان رقيقاً مقنعاً بحيث تسمح له كل واحدة بالاحتفاظ بالصورة إلى الأبد .. وكان يحس كأن مجموعة هذه الصور تمثل حياته إنها مجتمعة صورة لحياته الخاصة وما جرى فيها .. ورغم ذلك فهو لم يتعود أن يفتح الدرج السرى فى مكتبه ليراجع مشاهدة هذه الصور .. إنه يحتفظ بها كأنها فى داخله .. والإنسان لا يتفرج على داخله .. لا يتفرج على الكبد والطحال والقلب والأمعاء .. و .. و .. ولكن كلها فى داخله يعيش بها .. وكذلك هذه الصورة .. إنها فى داخله يعيش بها دون أن يراها أو يتفرج عليها .. وان كان يحس كثيراً بما تركته فيه من ذكريات .. وهو لا يستطيع أن يتخلص منها حتى لا يتركها وراءه قبل أن يموت .. لا يستطيع أن يمزقها أو يحرقها حتى يصون صاحبتها من أن تقع أى صورة فى يد غريبة قد تعكر حياة صاحبتها أو على الأقل كأنه يذيع سراً من أسرار حياة هذه المرأة الخاصة

بعد أن مات .. إنه يحس إنه لو تخلص من هذه الصور وطبعاً معها الخطابات الغرامية التى يحتفظ بها أيضاً .. يحس لو تخلص منها كأنه ينتحر .. لو أحرق هذه الذكريات فكأنه أحرق نفسه .. ومضت أيام طويلة وهو حائر بين التخلص من هذه الصور يحرقها قبل أن يموت وبين أن يحتفظ بها حتى يموت ويترك الصور إلى المصير المجهول ..

وتذكر إنه مضت سنوات لم يتفرج على هذه الصور .. إنه يراها ويتذكرها كأنها تعيش فى داخله .. ولكن يجب أن يشاهد كل إمرأة مرت فى حياته .. تحية لها ولنفسه .. ومد يدا مرتعشة إلى الدرج السرى فى مكتبه .. وأخرج الألبوم الكبير وبدأ يفتح صفحاته بيد مرتعشة .. تزداد ارتعاشاً أحياناً كلما ذكرته صورة من الصور بذكريات تثيره ..

هذه صورة سعاد .. لا شك إنها أحبته حباً كبيراً ولكنها لم تتحمل أن تستمر فى التجربة حتى يتم الزواج .. كانت تريد الزواج حالاً .. لذلك فقد خدعته وخانته .. تعرفت على شخص آخر وعدها بالزواج .. وظلت عدة شهور وهى تجمع بينه وبين هذا الآخر دون أن يدرى شيئاً .. إلى أن فاجأته بالهجرة وذهبت إلى الآخر .. وللأسف .. فقد كان يكذب عليها ويخدعها فلم يتزوجها بعد أن جعلها له وحده .. أى أن سعاد لم تحبه الحب الكامل الذى يمكن أن يبقى العمر كله .. إذن فهى تستحق أن ينزع صورتها من الألبوم كما نزعته من قلبها ..

ونزع صورة سعاد ومزقها وألقى بقصاصاتها فى صندوق المهملات ..

وهذه صورة خديجة .. لا شك أن خديجة أعطته كل ما يستطيع أن يعطى حب امرأة لرجل .. لم ينقصه شىء أبدا وهو معها .. ولكنه يذكر الآن ما كان عليه الحال أيامها ولم يكن يهتم به وهو ملفوف بلحاف الحب .. لقد كانت خديجة متزوجة وتوفى زوجها وتركها مع اثنتين وبطنها منفوخ أعطى ابنة

ثالثة .. ولم يترك لها ما يكفى لكفالة البنات الثلاث وتنشئتهن بحيث تصل بهن إلى المستوى الذى تريده لهن .. مستوى أولاد الذوات .. وتعبت سنوات طويلة وهى تسعى إلى جمع ما يكفى لتنشئة بناتها إلى أن التقت به .. ولا شك إنه بهرها كمجرد رجل وسيم ناجح خفيف الدم .. وكانت هى الأخرى جميلة وخفيفة الدم وذكية .. وفى أيام ربطهما الحب ووجد نفسه دون تعمد منها أو اضطرار منه مسئولا عن كفالة البنات .. وقد استطاع بثرائه أن يوفر لهن غاية ما تريده لهن أمهن .. ولم تشده إلى التفكير فى الزواج وهو نفسه لم يحس بحاجته إلى الزواج بها .. إنه لا يحتاج منها إلى أى شىء آخر يفرض الزواج .. ولكن البنات كبرن .. وهن يتأثرن بما يقال اجتماعياً عن أمهن .. والحب يضعف غالبا وهو يقاوم المجتمع .. إنها لا تدرى ما يكون عليه مصير بناتها وأمهن معروفة بأنها عشيقة رجل .. وبدأت تلح عليه فى الزواج .. ولكنه لا يستطيع الاقتناع بالزواج .. لا يستطيع أن يصل إليه .. وكان إن ابتعدت خديجة هى وبناتها عنه .. لتعيش زوجة لرجل آخر .. لا تحبه هذا الآخر ولكنه يوفر لها ما يفرضه عليها وعلى بناتها المجتمع .. المجتمع الذى يفرض الزواج ..

إذن فإنها لم تكن تحبه كل الحب .. كامل الحب .. كانت تحبه من خلال حبها لبناتها .. ورفع الصورة بين يديه وبدأ فى أسى يمزقها ويلقى بها فى سلة المهملات .. ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن ينكر إنها كانت تعطيه منتهى الحب .. ويحس وهو يمزق الصورة كأنه يكاد يبكى ..

وعاد يقلب فى صفحات الألبوم .. هذه صورة ميرفت .. لقد عاشت معه شهوراً تبدو وكأنها أيام بل تبدو كأنها دقائق .. لقد كان أيامها فى حاجة إلى الحب .. إلى امرأة تعطيه الحب .. كان فى أزمة نفسية تحتاج إلى أن يخفف منها .. واستسلم سريعا لحب ميرفت .. ووجد نفسه فى الشهور الأولى يصل بكرمه إلى حد أن يشترى لها شقة باسمها .. وانتقلت إليها هى وأمها بعد أن

أشرف بنفسه على تجهيزها .. ولكن كيف تقيم ميرفت فى شقة بلا زواج ..
ولكنه لم يقتنع أبدا أن يتزوجها .. ربما لم يكن أبداً مقتنعاً بالحياة الزوجية ..
وبسرعة استطاعت ميرفت أن تجد رجلا آخر يتزوجها كأنها تكمل به عفش
وتجهيز الشقة التى أصبحت ملكها .. وعرضت عليه أن يبقى مرتبطاً بها حتى
بعد الزواج .. ولكن لا .. مستحيل .. هذا ليس من طبعه .. إنه يريد المرأة
له وحده .. هذا هو الحب ..

ورفع صورة ميرفت من الألبوم ومزقها وألقى ببقاياها فى سلة المهملات
التى سيشعل بداخلها النار ..

ومرت بين أصابعه كل صور الألبوم .. وهو يجد فى كل ما يقنعه بأن
الحب لم يكن كاملاً فيمزقها ليحرقها .. وربما كان يبالغ فى تصوراته ليقنع
نفسه بالتخلص من هذه الصورة قبل أن يموت حتى لا يتركها ليستغلها أحد
من الورثة ..

ولكن بقيت صورة ..

لم تكن هذه الصورة هدية من صاحبها .. إنها صورة توزع فى الشوارع ..
صورة الفنانة الكبيرة .. السيدة مديحة بليغ .. وقد التقطها واحتفظ بها كأى
واحد من الناس ...ولكنه لم يحتفظ بها كمخرج ومنتج سينمائى قد يحتاج
إليها .. احتفظ بها لأن لها قصة ربما كانت أهم قصة فى حياته الخاصة ..

لقد كان أول من جاءته من رجال السينما .. إن فن التمثيل السينمائى يعيش
فيها ولا تستطيع أن تعيش بغيره .. وقد وجدها منذ النظرة الأولى جميلة ..
جذابة .. محترمة .. عاقلة .. وجد نفسه يستطيع أن يجلس معها ساعات دون
أن ينقطع الحديث بينهما .. وهو دائماً حديث نظيف .. وقد بدأ يفكر فى أن
يظهرها بطلة للفيلم ولكنه وجد نفسه يؤجل اتخاذ هذا القرار .. إنه يريدها
لشىء آخر أهم .. وكل يوم يجد الساعات التى تجمعه فى حديث معها .. وهى

تصر على ألا يتم اللقاء إلا داخل الاستوديو .. لقد رفضت دعوته لأن يلتقيا
فى مكان آخر .. ورفضت إلحاحه فى أن تزوره فى بيته بحجة تقديمها إلى
أمه .. إلى أن قالت له :

ـ متى سأبدأ التصوير ..

قال مرحا فى بساطة :

ـ لن تبدئى الفيلم .. هناك ما هو أهم ..

وقالت فى دهشة :

ـ ما هو أهم ..

قال فى حب :

ـ الأهم هو إننا سنتزوج .. والمعروف عنى إنى لا أجمع بين الفن والزواج ..
وقد اخترت لك الزواج ولذلك سأخطفك من الفن ..

وقالت فى لهجة جادة دون أن يبدو عليها أى سخط :

ـ لا شك إنك قد أحسست بأنى أحبك ربما أكثر مما تحبنى . . وانى اتمنى
الزواج بك ربما اكثر مما تتمناه .. ولكنى لا أستطيع أن أترك الفن حتى
فى سبيل الزواج بك .. إنى أحس بالفن فى دمى وأنى سأموت لو لم أظهر
كفنانة .. دعنا نتزوج وأنا فنانة تخرج لى أفلامى ..

وقال فى حدة :

ـ مستحيل أن أجمع بين الفن والزواج .. لن أتزوج واحدة أحركها أمام
الكاميرا لا أمام اقتناعى ..

قالت وهى تبتسم فى بساطة :

- ومستحيل أن أترك الفن لأتزوجك .. ولا أريد أن أضحك عليك بأن أبدأ بالموافقة .. باى باى .. ابتعدت عنه وتركته مذهولا وقد فقد كل ثقته بنفسه .

واستطاعت أن تتصل بمخرجين وممولين آخرين .. وظهرت فى أول فيلم .. والثانى .. والثالث .. والمائة .. أصبحت كبيرة ممثلات مصر .. ولم تقدم على أن تتركه يخرج لها أى فيلم .. كانا إذا التقيا صدفة يلتقيان فى منتهى الرقة والفرحة ولكن لا يعرض احدهما أن يعمل مع الآخر .. إلى أن كان الأسبوع الماضى والتقيا بنفس الفرحة وقال لها :

- ألا يمكن الآن أن أخرج لك فيلماً ..

قالت مبتسمة :

- لا .. مستحيل ..

قال :

- لماذا ؟

- لأنى مازلت أحبك .. وأنت لا تجمع بين الحب والفن وعودتنى على أن أكون مثلك ..

قال :

- لقد أصبحنا الآن عواجيز ..

قالت :

- حبنا لا يزال فى عز شبابه .. ولكن فننا لا يزال هو الأقوى وهو كل حياتنا حتى اليوم .. وقد احتفظ بصورتها لا فى داخل الألبوم بل رفعها واحتفظ بها تحت الوسادة التى يضع رأسه عليها لينام ..

لمن أترك كل هذا ؟!

هذه القصة من وحى سطرين سجلتهما فى تحليل شخصية أحد أبطال رواية « قلبى ليس فى جيبى » .. التى سبق نشرها ..

□

كان يعتبر نفسه دائماً إنساناً قادراً على النجاح فى تحقيق كل ما يخطر على باله .. ولم يكن يخطر على باله إلا الوصول إلى مستوى أعلى وأرقى من المستوى الذى عاش فيه مع أبيه .. وقد وصل إلى هذا المستوى العالى الذى يشمل كل نواحى الحياة التى يعيشها .. وكان يقضى معظم ساعات يومه متفرغاً لتحقيق كل هذه النواحى ، ولكنه خارج مسئوليته عن عمله كان يجذبه التفرغ لناحية واحدة تتركز فى مسئوليته كأب ..

وكان وهو يعيش هذه المسئولية يحس بأن الحياة كلها تتركز فى ابنته سناء وابنه علاء .. وعقله لا يكف عن تخطيط مستقبل كل منهما .. وهو واثق انهما سيستمران بنجاحه من بعده ويصلان إلى مستوى أعلى مما وصل إليه .. لقد كانت كل عواطفه وكل أحلامه متعلقة بابنته وابنه .. إنه يعتبرهما كأنهما الشاهد الأول على نجاحه .. لقد أنجبهما وهو لا يزال فى شبابه وقبل أن يحقق

كل هذا النجاح .. كان لايزال فى العشرين من عمره عندما قرر أن يتزوج أمهما .. وكان هذا الزواج مجازفة دفعته إليها ليس مجرد حب هذه الفتاة التى تزوجها ، ولكن تقديره لنفسه ولقدرته ولامكانيته هو ما دفعه إلى هذا الزواج .. كان تقديره لنفسه يصل إلى حد تقدير مستقبله .. وقد رفض الأهل كلهم الموافقة على هذا الزواج .. رفض أهله لأنه لم يكن قد حقق بعد ما يكفى ليكون زوجاً مسئولا عن عائلة .. ورفض أهلها لأنهم لا يريدون أن يقذفوا بابنتهم فى المجهول .. ورغم ذلك فقد عاند وعاندت حتى تزوجا رغم سخط الأهل عليهما .. ولم يمض عام حتى بدأ يحقق نجاحه .. وفى هذا العام الأول أنجب ابنته سناء .. واستمر نجاحه لتحقيق مستوى أعلى .. وأنجب بعد عامين ابنه علا .. وكان لايزال مستمراً فى اتخاذ القرارات التى يطمئن إليها فى ضمان مستقبله .. وكان من بينها أن اتخذ قرارا بأن يكتفى بابنته سناء وابنه علا ولا ينجب أكثر منهما .. ووصل إلى أن أقنع زوجته بإجراء عملية جراحية توقف قدرتها على الانجاب .. بعد أن أقنعه الطبيب بأنها تستطيع إجراء عملية عكسية أخرى لكى تعود إلى القدرة على الانجاب .. وهو يريد الآن أن يكتفى بالولد والبنت لأنه مقتنع بأن الدخل المالى الذى يحققه حتى اليوم ، وتقوم عليه ميزانية حياته كلها لا يحقق إلا القدرة على الوصول بالاثنين إلى أرقى مستويات الحياة .. وقد يعجز عن الوصول بهما إلى هذا المستوى لو أضاف إليهما مولودا ثالثا ورابعا وخامسا .. أى لو ترك نفسه لتحمل مسئوليات الانجاب دون أن يقدر امكانياته الاقتصادية التى توفر لأبنائه مستوى الحياة كما يريدها وكما يحلم بها .. وهو مطمئن .. فلو صدمه القدر بفقد ابنته أو ابنه .. فإنه يستطيع أن يجرى لزوجته العملية الجراحية التى تعيد إليها قدرتها على أن تلد له ابنة أخرى أو ابنا آخر .. إنه يفرض على زوجته أن تستسلم لقراراته .. هى التى تجرى هذه العملية الجراحية مهما كان تأثيرها على طبيعة متعتها كامرأة .. وهو لا يتكلف شيئا ، ولا يفقد شيئاً من متعته بها كامرأة يضاجعها .. لم يكلف نفسه مجرد التفكير فى المساس بمتعته كرجل

بأن يتحمل مع زوجته مسئولية عدم الانجاب .. وربما كانت هذه طبيعته التى حقق بها نجاحه .. طبيعة الاعتماد واستغلال الآخرين ..

كيف كان يتصور المستقبل الذى يحققه لابنته سناء وتحققه له ؟

إنه فى النهاية يريدها زوجة وست بيت .. لا يريدها أن تتولى مسئولية أى عمل خارج البيت .. إنه مقتنع بأن أمها أى زوجته كان لها الفضل فى نجاحه الذى حقق نجاح كل العائلة بتفرغها الكامل له وللبيت .. ولكن قبل أن تتزوج ابنته يجب أن تصل إلى مستوى عال من العلم والثقافة .. حتى تكون قادرة على مواجهة كل نواحى الحياة .. وفى الوقت نفسه تتخصص فى ناحية من هذه النواحى حتى تكون قادرة على الانفراد بتخصصها فى تغطية مطالبها إذا ما واجهتها أى ظروف تفرض عليها الانفراد .. أى أن تكون طبيبة .. أو مهندسة .. أو محامية .. أو إدارية تستطيع إدارة الأعمال الواسعة .. حتى وإن لم تعمل بعد الزواج فى الطب أو الهندسة أو المحاماة ، أو تتولى إدارة أى عمل وظلت متفرغة بكل كيانها وكل عقليتها للبيت .. ثم إنه يجب أن يبدأ فى تلقينها تفاصيل وأسرار المشروعات والأعمال التى حققها هو لأنها ستكون وريثته .. ولن تستطيع أن تكون أمينة وحريصة على استمرار نجاح هذا الإرث إلا إذا استوعبت التفاصيل والأسرار دون أن تكتفى بالاعتماد على أخيها علاء الذى سيحمل معها مسئولية هذا الإرث .. أو الذى سيحمل من مسئولية ما يرثانه ضعف ما تحمله .. وأخيراً .. فكيف يتصور الرجل الذى تتزوجه .. إنها لا يمكن أن تتزوج إلا رجلاً ناجحاً .. وحتى يتأكد من نجاحه فيجب أن يكون أبوه أيضاً ناجحاً .. وكل النجاح الذى يتصوره هو النجاح فى الثراء .. والنجاح فى استمرار هذا الثراء .. إنه طوال حياته لم يعرض نفسه للحكم على الناس بمقاييس الأخلاق والعفة والأمانة والشرف .. إنها مقاييس ليس لها واقع يحددها أو يؤكدها .. ليس لها أرقام تعلن عنها كالأرقام التى تعلن الثراء وتؤكد قيمته .. والثراء لا يتعارض دائماً مع الأخلاق والعفة والأمانة والشرف ..

هكذا كان يتصور المستقبل الذى يرسمه لابنته سناء .. فكيف كان يتصور مستقبل ابنه علاء .. ؟

إن أول ما كان يتمناه هو أن يكون صورة طبق الأصل منه .. يريده أن يكون بنفس شخصيته وبنفس عقليته وبنفس ذوقه ومزاجه وقوة احتماله .. إن الثراء يتطلب قوة احتمال أكثر مما يتطلبها الفقر .. وهو قد بدأ كل هذا النجاح بلا شىء أما ابنه فسيبدأ والنجاح بين يديه فعلاً .. وهو يريده أن يكون قادراً على الاستمرار بهذا النجاح .. على الأقل الاستمرار بكل البناء الذى أقامه هو .. وكان يرفع عينيه إلى السماء داعياً أن يستطيع ابنه أن يحقق فى المستقبل أبنية ومشروعات جديدة تضاف إلى البناء الذى سيتركه له .. ويبتسم مع أحلامه بمستقبل ابنه .. إنه هو شخصياً قد حقق لنفسه مكانة اجتماعية مرموقة .. كل المجتمع ينظر إليه فى إكبار واحترام لأنه رجل أعمال ناجح .. ولم يحاول أبداً أن يجمع بين مكانته الاجتماعية ومكانة أخرى رسمية .. أى أن يكون وزيراً أو زعيماً سياسياً له قوة رسمية يفرضها على الناس .. إنه هو شخصياً كان يبعد نفسه عن تحمل أى مسئولية رسمية لأنه كان متفرغاً للمشروعات التى تحقق له مزيداً من الثراء .. ولكن ابنه علاء ولد فى هذا الثراء وربما يجد انه يستطيع أن يصل إلى القمة الرسمية .. ويستغل الثراء فى الوصول إلى هذه القمة .. أن يكون وزيراً .. واتسعت ابتسامته وهو يتصور أن ابنه قد يصل إلى أن يكون رئيساً للجمهورية .. إنه يفرح حتى بعد أن يموت من أن يكون أباً لرئيس الجمهورية ..

□ □

ومرت السنوات به وبابنته سناء وابنه علاء ..

إنه سعيد بابنته سناء سعادة طاغية ، ومقتنع بأنها تسعى لتحقيق أحلامه يوماً بعد يوم حتى تصل إلى المستقبل الذى يريده لها .. إنها تلتهم العلم والثقافة

وتتفوق فى دراستها وتنجح فى كل امتحان .. ومن صغرها قد أصبحت تجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية وطبعاً اللغة العربية .. وقد اختارت بعد أن كبرت وأصبحت فى السابعة عشرة من عمرها أن تلتحق بالجامعة الأمريكية وتتخصص فى إدارة الأعمال .. وهى تهوى الإدارة حتى انها لا تكف عن التردد عليه فى مكتبه ، والطواف بالمصانع ومكاتب الشركات وتحاول أن تفهم كل شىء .. وكثيراً ما تبدى ملاحظات وآراء فى الإدارة يقتنع بها وينفذها ، وإن كان كثيراً ما يحس بأن شبابها يطير بها إلى السماء وتبدى مقترحات بعيدة عن الواقع .. ويبتسم فرحاً بها وهى تعرض عليه هذه المقترحات ويحاول فى هدوء أن يشدها إلى الواقع الذى لا تصل إليه أحلامها .. وأكثر من ذلك .. لقد أثبتت انها يمكن أن تكون ست بيت ممتازة .. وقد بدأت وهى لاتزال صبية تتدخل فى كل ما يخص العائلة .. وتساعد أمها فى كل قرار تتخذه .. وكثيراً ما تفرض قرارها هى على أمها .. وأصابعها تمتد إلى كل درج وكل مسمار فى البيت كأنها تحمل المسئولية كاملة .. وربما كان يأخذ عليها ، أو يخاف عليها من انها أحيانا تبدو جريئة أكثر من ذلك .. ولكن ماذا يهم .. إنه هو نفسه كان يعتبر فى شبابه جريئا ، وربما كانت جرأته هى سر نجاحه .. ثم انه أحيانا يأخذ على سناء عدم مراعاتها للتقاليد الاجتماعية المفروضة على كل بنت .. إنها تعتبر نفسها حرة وتطلق حريتها إلى آخرها .. إنها خارج البيت دائما .. وأحيانا تغيب حتى ساعات متأخرة من الليل .. ولا يستطيع أن يحدد المجتمعات التى تختلط بها ، ولا نوع الأصدقاء والصديقات الذين تصاحبهم .. وكان يلومها ويحذرها أحيانا ، ولكنه لم يفقد ثقته فيها أبدا ..

وكانت قد بلغت التاسعة عشرة من عمرها ، ولاتزال طالبة فى السنة الثانية بالجامعه الأمريكيه عندما جاءته يوما ووقفت أمامه بابتسامتها البريئة التى يستسلم لها دائما حبا فيها وفرحا بها .. وقالت وكلماتها منطلقة كأنها ضحكات :

- بابا .. ألم يخطر على بالك يوما أنى قد أتزوج ..

قال ورنين الحب يزفه إلى ابنته :

ـ إنك منذ ولدت وأنا انتظر زواجك .. بل أعيش وأنا أحدد ما أتطلبه فى زوج ابنتى ..

وقالت وهى تنظر إليه كأنها تحذره من أن يغضبها باختياره :

ـ وماذا تطلب فيمن أتزوجه ..

وقال فى فرحة :

ـ أطلب أولاً أن يكون ناجحاً ابن ناجح ..

وقاطعته وهى تلوى شفتيها رافضة :

ـ لا يهم أن يكون ابن ناجح .. فأنت نفسك لم تكن ابن ناجح ، وكان جدى فى مستوى عادى .. وليس الفتى من قال كان أبى ، إنما الفتى من قال هأنذا .. ولا يهم أن يكون هو نفسه قد أتم الوصول إلى النجاح .. ولكنه يسعى إلى النجاح .. فأنا قطعاً سأتزوج من لايزال فى شبابه .. والشباب يسعى إلى أن يصل ..

وقال الأب وهو يحلق فيها كأنه يحاول أن يفهمها :

ـ المهم أن اقتنع بانه يستحق ابنتى ..

قالت وهى تعود إلى ابتسامتها الجريئة :

ـ ألم تختر لى بعد من أتزوجه ..

وقال كأنه يعترف :

ـ إن أنانية الأب تدفعه إلى الاحتفاظ بابنته له وحده أطول سنوات عمرها ..

لذلك لم أفكر حتى الآن فى اختيار ، أو ترشيح زوج لك منتظرا أن تنتهى من دراستك الجامعية ..

وقالت وابتسامتها تتسع أكثر :

ـ آسفة يا بابا .. لقد قاومت أنانيتك واخترت لنفسى ..

وارتفع صوته فى دهشة وكأنه يصرخ :

ـ اخترت من ؟!

قالت دون أن تهتز ابتسامتها :

ـ اخترت عبد الكريم بسيونى ..

وسرح الأب لحظة وهو يردد اسم عبد الكريم .. عبد الكريم .. كأنه سبق له أن سمع هذا الاسم ، ويحاول أن يتذكر صاحبه .. وكأن ابنته سناء تريد أن تساعده على التذكر فعادت تقول :

ـ الأسطى عبد الكريم ..

وقفز الأب واقفاً كأنه ضرب بشلوت ألقى به فى هاوية وصاح :

ـ عبد الكريم السائق الذى كان يعمل عندنا .. مستحيل .. لا يمكن .. انت مجنونة .. أو ربما خدعك حتى يستولى عليك ..

وكان عبد الكريم بسيونى هو السائق الذى خصصه الأب لخدمة العائلة فى نقلها بالسيارة المخصصة لها .. لم يكن سائقاً يقود سيارته الخاصة به .. وقالت سناء وهى تحاول أن تسيطر على أعصابها لتحتفظ بهدوئها وإن كان صوتها يرتفع كأنها تتأهب لمعركة :

ـ إنى لست مجنونة .. وعبد الكريم لم يحاول أن يخدعنى .. بل ربما كنت أنا التى شددته إلىّ .. وهو ليس مجرد سائق سيارة .. إنه شخصية كاملة

وقد كان حتى خمس سنوات مضت طالبا فى الجامعة إلى أن توفى أبوه فجأة ولم يترك لهم شيئاً يعيشون عليه وبه ، فاضطر أن يكون سائق سيارات محترماً حتى يحصل على ما يكفى إعالة عائلته .. وهو لايزال يعد نفسه للتخرج فى الجامعة .. وأفكاره مزدحمة بالمشروعات التى يقيم عليها مستقبله بعد أن يعتزل احتراف أن يكون سائقا ..

وصاح الأب بكل صوته :

ـ انت مجنونة .. وكل هذا الكلام يقوله أى شاب يحاول أن يخدع فتاة .. والمشروع الوحيد الذى يبنى عليه مستقبله هو أن يستولى عليك انت شخصياً حتى يستولى على أموالك وأموال ابيك .. كل مشروعاته قائمة على أن يستغلك ويستغلنى ، وعلى الأقل يعيش فى رخائنا وعلى مستوانا ..

وصاحت سناء أعلى من صياح ابيها :

ـ إنه هو الذى ترك خدمتنا منذ أسابيع .. أتدرى لماذا خرج من خدمتنا .. لقد خرج بعد أن اتفقنا على أن نتزوج .. وهو لا يريد أن يكون خادماً عند حماه .. والد زوجته .. ولا يريد أن يكون على أبى فضل عليه .. بل انه اشترط على حتى نتزوج أن لا أقبل أن آخذ منك « ولا مليم » .. حتى نتحمل وحدنا مسئولية بناء حياتنا .. وحتى أعيش ما نصل إليه لا ما وصل إليه أبى .. أى ما وصلت إليه أنت ..

وصاح الأب :

ـ هذا كلام يقال قبل الزواج ، ولكنى متأكد انه بعد الزواج سيكون تحت أقدامى لينهبنى بعد أن نهب ابنتى ..

وقالت وهى تنظر إليه ساخطة :

ـ إنى أثق به كما أثق بك .. بل إنى اعتبره صورة منك ، ويريد أن يتحمل مسئولية بناء نفسه كما فعلت أنت ..

وقال الأب ساخرا :

ـ ولكنى لم أتزوج فتاة غنية أو ابنة غنى حتى استرزق .. لقد تزوجت من فى مستواى فدعيه يبحث عن زوجة فى مستواه ..

وقالت وهى تقاوم ثورتها :

ـ إننا على مستوى فكرى واحد .. وما يريده هو ما أريده .. وانت تعتبرنى دائماً فتاة ناجحة فدعنى أجرب أن أنجح وأنا زوجة عبد الكريم ..

وقال ضاحكاً :

ـ إن مجرد زواجك به يعتبر هزيمة نكراء ..

وصرخت هى الأخرى :

ـ انك تعتبرها هزيمة لك ولن تكون هزيمة لى .. حتى النجاح تريده أن يكون نجاحاً لك، لا لى .. إنك تعتبرنى مجرد مشروع من مشروعاتك تريد أن تحقق به صفقة حتى لو كانت مجرد صفقة اجتماعية باختيار من تبيعنى له كزوجة ..

وقال وهو يحاول أن يعود هادئاً :

ـ إن مستقبلك هو مستقبلى سواء نجحت أو هزمت .. إنى لا أبيعك ولكنى أبيع نفسى بك .. ولذلك من حقى أن أختار معك المشترى ..

وقالت وهى تحاول أن تسترد ابتسامتها :

ـ بابا .. إنى مصرة على الزواج من عبد الكريم وأتمنى موافقتك حتى يعيننى حبك على احتمال ما قد أعانيه ، وأنا ابنى مستقبلى ..

وقال كأنه يبصق فى وجهها :

ـ لن أوافق ..

وقالت وهى تحاول أن تعود إليها ابتسامتها :
- سأنتظر إلى أن يدفعك حبك لابنتك إلى الموافقة .. ولكنى لن انتظر طويلاً .. وأخشى أن يغلبنى الاحساس بأنك لا تحب ابنتك ولا يهمك أن تهرب منك ..

واختفت من أمامه .. وسقط رأسه على صدره،كأنه يسقط فى هوة عميقة مظلمة .. وبدأ كأنه يحاسب نفسه .. ربما كان هو الذى دفع ابنته إلى هذه المصيبة .. فقد دفعه الثراء الذى حققه إلى أن يحيط عائلته بالمظاهر التى يعتبر انها علامات الطبقة الراقية .. فخصص للعائلة سيارة خاصة ، ثم عهد بهذه السيارة إلى سائق شاب وجيه وسيم .. هو عبد الكريم بسيونى .. وكان هذا السائق ينفرد بابنته سناء طوال اليوم ، وهو يحملها بالسيارة إلى المدرسة ثم إلى أى مكان آخر .. ولم يخطر على باله أبداً أن يحمى ابنته من وجاهة هذا السائق ووسامته وخصوصاً بعد أن شبّت وأصبحت عرضه للضعف أمام وجاهة ووسامة الشبان .. بل إنه رآها مرة وهى تجلس فى السيارة بجانب السائق عبد الكريم ، وليس فى المقعد الخلفى المخصص لأصحاب السيارة .. ولم يهتم .. ربما كانت هذه هى تقاليد الجيل الجديد من المجتمع الثرى الراقى .. أن يرفعوا الكلفة بينهم وبين الخدم ، حتى يجلسوا بجانب السائق الذى يعمل فى خدمتهم .. ولا يجلسون خلفه كأنهم يطؤونه تحت أقدامهم .. وربما لو كان قد استطاع أن يحتفظ بتقاليد المجتمع القديم الذى ولد فيه لما ارتكب كل هذه الأخطاء .. ولما سمح لشاب وجيه وسيم يعمل فى خدمة العائلة كسائق أن ينفرد بابنته فترات كافية ليخدمها وليستولى عليها .. لقد ولد فى مجتمع أهم ما يحرص عليه هو حماية البنات من الأولاد .. ولكنه تخلى عن تقاليد هذا المجتمع متصوراً إنه يرتفع إلى أعلى .. إلى مجتمع أرقى .. وترك سائق السيارة يستولى على ابنته ..

وقد ترك السائق عبد الكريم خدمة العائلة .. تركها وليس هو الذى طرده ..

ولم يهمه أن يترك عبد الكريم خدمته بل لم يسأل عن السبب الذى دفعه إلى ترك الخدمة .. فإن تحت يده مئات من الموظفين يعتبرهم كلهم خدماً .. ولا يهمه من يخرج منهم ومن يبقى .. إن مصر مزدحمة بالخدم من كل الأنواع .. ولكن من أصبح يقود سيارة العائلة بعد عبد الكريم .. إنه شاب آخر اسمه مصطفى .. وهو أيضاً وجيه ووسيم .. فهذه هى المظاهر التى يفرضها مجتمع الأثرياء .. ومن يدرى .. ربما استطاع مصطفى أيضاً أن يستولى على فتاة أخرى من العائلة .. وابتسم فى مرارة وهو يتصور أن السائق الآخر يمكن أن يستولى على زوجته ..

وضغط على جرس بجانبه يستدعى سكرتيره الخاص ، وأصدر إليه أمراً فورياً بالاستغناء عن خدمات السائق مصطفى مع دفع ما يستحقه .. ثم قال فى حدة :
- لم تعد هذه السيارة فى خدمة العائلة .. إنها فى خدمتى الخاصة .. ولا يستعملها أى فرد من العائلة إلا بإذن منى ..

وبعد قليل بدأ يرفع رأسه من هوة السخط الذى دفن نفسه فيها .. وبدأ يفكر كأنه يلوم نفسه .. لماذا يتخذ كل هذه القرارات بعد أن هددته ابنته بالزواج من سائق السيارة .. وأحس بنفسه كأنه غبى وسخيف فلن يصل بهذه القرارات إلى شىء .. ويجب أن يعترف بأن ابنته أصبحت أقوى منه فى حرية اتخاذ القرارات التى تخص حياتها .. ثم لماذا لا يوافق ابنته على زواجها من هذا السائق .. إنه هو نفسه تزوج قبل أن يحقق أى ثراء .. وقد رفضت عائلتها أن توافق على زواجها منه ورغم ذلك تزوجا .. كل منهما كان مصمما على الآخر .. إلى أن بدأت عائلتها تتشرف وتتباهى بهذا الزواج بعد أن بدأ يحقق نجاحه .. فلماذا يكرر نفس الموقف .. فقد ينجح السائق عبد الكريم أيضاً بعد زواجه من ابنته .. وهو ليس مجرد شاب وجيه ووسيم إنه مهذب ويلمح فيه الذكاء والطبيعة الجادة .. ولكن .. لا .. إنه لم يتزوج فتاة غنية يتهم بأنه طامع

فى استغلالها .. وابنته غنية يمكن أن يطمع فى استغلالها كل من يتقدم إليها إلا إذا كان غنياً مثلها .. أو على الأصح إذا كان أبوه ناجحاً كما هو ناجح .. وهو يحس بأنه لو وافق على زواج ابنته من هذا السائق ، فكأنه يهوى بها وبنفسه إلى البداية التى كان فيها .. أى إلى الفقر .. ويعرضها ويعرض نفسه إلى محاولة التجارب من جديد .. تجارب الوصول إلى أعلى .. وهو قد اجتاز ومعه ابنته هذه المرحلة .. مرحلة التجارب وانتظار النتائج .. ولا يريد أن يعود إليها من جديد .. ثم انه قد وصل إلى مكانة اجتماعية لا يشرفه فيها أن يزوج ابنته من سائق سيارة .. ولن يوافق .. لا يمكن أن تتزوج ابنته هذا السائق .. مستحيل ..

□ □

كانت هذه هى الحالة التى وصل إليها مع ابنته سناء .. أما ابنه علاء فقد نشأ صامتاً منعزلاً بنفسه لا يهتم بشىء ولا يسأل عن شىء .. ولا يهتم حتى بالدراسة منذ دخل فى مدارس الأطفال .. إنه لا يحس بأى دافع للدراسة أو بأن يتعلم .. وكان يرسب فى كل الامتحانات ويقضى سنوات لينتقل إلى الفصل الأعلى من المدرسة رغم أنه كان يحيطه بعدد من المدرسين فى كل المواد .. ومستحيل أن يتطور .. ان من طبيعته عدم الاهتمام بالدراسة أو بالنجاح فى الامتحانات .. وربما كان كل اهتمامه منذ البداية هو فى الاستماع إلى الموسيقى .. وبين يديه طوال يومه جهاز راديو صغير يطلق له الانغام الموسيقية .. وقد استطاع وهو لا يزال فى صباه أن يقنع أمه بأن تشترى له آلة بيانو .. والبيانو الكبير الذى يتصدر الصالة مخصص له لا لأخته سناء .. كما جرت العادة فى العائلات الثرية بأن تجهز البنت مقدما ببيانو حتى لو لم تعزف عليه .. مجرد استكمال المظهر الراقى .. وأمه هى التى اشترت له البيانو وليس أبوه .. بل كذبت الأم على الأب وقالت له انها اشترته لتوفر

ما يحتاجه مظهر ابنتها فى البيت .. وعلاء أقرب إلى أمه منه إلى ابيه ويصارحها باحتياجاته ولا يصارح أباه بشىء .. وهو لا يجلس لعزف البيانو أبداً فى حضور أبيه وهو يتلقى دروس العزف من المدرس الذى جاءت به أمه إليه .. لعله لا يطيق أباه .. فهو أب لا يكف عن الحديث إليه عن المدرسة والمذاكرة والامتحانات .. ورغم ذلك فهو ابن مهذب مستسلم لأبيه لا يرفض أوامره ، ولا يرفع صوته عليه أبداً .. وإن كان لا يستطيع أن يخفى محاولته الدائمة للهروب من أبيه والابتعاد عنه .. ويضطر الأب كلما أراده أن يبحث عنه ويرفع صوته عالياً يناديه .. علاء .. أين علاء .. إلى أن ييأس علاء من الابتعاد عنه ويستسلم له ..

وكان الأب يتعمد كل يوم بعد عودته إلى البيت أن يجلس مع ابنه ولو دقائق .. وكان يتعمد فى كل جلسة بعد أن ينتهى من محاسبته على دراسته أن يروى له قصة من قصص النجاح فى العمل وجمع الثروات .. وأحياناً يضمن قصته نكتة يعتقد إنها ستضحك ابنه حتى يجذبه إليه .. وابنه يستمع صامتاً دون أن يسأل سؤالاً أو يعلق بكلمة وقد يضحك لا لأنه استمع إلى النكتة بل لأنه رأى أبيه يضحك فضحك معه استسلاما له .. ومنذ شب علاء إلى العاشرة من عمره بدأ الأب يصحبه بين وقت وآخر إلى شركاته ومصانعه لعله يثير فيه الاحساس بما يملكه وبما سيرثه عنه .. ولعله يتجاوب مع المجتمع العامل ويتعلق بأحد من العاملين .. ولكن علاء كان يذهب ويجول وكل ما فيه صامت مرتخ لا يحاول أن يفهم شيئا ، ولا يثيره شىء يتعلق به .. إن عينيه مفتوحتان ولكن كأنه لا يرى شيئاً .. وأذناه مصغيتان ولكن كأنه لا يسمع شيئاً ..

والأب يعانى من أنه لا يستطيع أن يفهم ابنه وأن ابنه لا يصارحه بما يريده لنفسه .. وكان يعتمد على زوجته ليعرف ما يريده هذا الصبى .. وقد عرف أخيراً أنه طلب من أمه أن تشترى له آلة كمان بعد أن اشترت له البيانو ..

العام الثالث .. والأب يحاول أن يخفف عن مصيبته فى ابنه .. إنه هو نفسه سبق فى شبابه أن قرر ألا يستمر فى دراسته .. لم يدخل الجامعة وحتى لم يتم دراسته الثانوية ، ولو أنه لم يرسب فى أى امتحان . إن هناك عقولاً لا تحتمل استيعاب الدروس التى تفرض عليها لترددها فى الامتحانات كالببغاوات .. إنها عقول لا تستوعب العلم إلا بالممارسة .. أى بأن تعمل فيما تريد أن تدرسه .. ولعل ابنه علاء من أصحاب هذه العقول .. فلا يهم أن يستكمل دراسته المدرسية ويتمها بالالتحاق بالجامعة .. إن الحل الوحيد هو أن يأخذ ابنه ويضعه فى مجال ممارسة العمل .. أى أن يأخذه معه ، ويعهد إليه بالعمل فى شركاته حتى يستوعب مسئولياته . .

ولكن .. كانت قد جدت حالات على علاء .. فقد أصبح كثير الغياب عن البيت ، وقد يغيب أحيانا حتى ساعات متأخرة من الليل .. ولم يعد يهمه التأنيب الذى يصبه عليه أبوه .. بل لم يعد يهتم بدموع أمه .. لعله يعتقد أن أمه لا تبكى خوفاً عليه من غيبته عن البيت بل تبكى خوفاً عليه من أبيه .. وهو لا يدرى أين يغيب ابنه .. إنه لا يعود سكرانا ولا يبدو عليه أى انحلال .. لعله يختفى مع شلة يلعب معها هذه الموسيقى التى يهواها .. وهو إذا أخذه معه للعمل فقد يستمر فى اختفاءاته ويهرب من العمل كما يهرب من البيت ..ويجب أن يبدأ من إنتشاله من هذه الشلة التى يغيب معها .. وبعد طول تفكير وجد أن الحل الوحيد هو أن يبعد ابنه عن مصر كلها عاماً أو عامين أو ثلاثة يعود بعدها متحرراً من هذه الشلة وهذه الهواية .. مقبلاً على التفرغ للعمل وعلى حفظ ميراثه .. وسأل الأب كل من يعرفهم من آباءفى مثل نجاحه وفى مثل ثرائه وأيضاً فى مثل مصيبته بأبنه .. واستقر على أن يرسل ابنه إلى مدرسة فى فرنسا ليتم تعليمه هناك .. ويعود وقد أصبح رجلاً كاملاً متفرغاً للاستمرار فى نجاح أبيه ..

وفرح علاء بأن أباه يرسله إلى فرنسا على أساس إتمام تعليمه هناك ..

أيام المظاهرات..

وسافر حتى قبل أن يدخل امتحانه الثالث فى الفصل الأول من المدرسة الثانوية وكان يمكن أن يرسب فيه أيضاً ..

ولم تكن الجامعة التى اختارها الأب فى فرنسا ليلتحق بها ابنه فى باريس نفسها ، ولكنها فى إحدى ضواحى باريس .. وهى ليست جامعة ، ولكنها أقرب إلى معهد متخصص فى اكتشاف مواهب الشبان وتعليمهم بما يتفق مع مواهبهم .. وقد خرجت كثيرين من رجال الأعمال الموهوبين .. هذا ما سمعه الأب عنها .. وقد مضت شهور وعلاء يرسل خطابات ولكنه يرسلها إلى أمه ، ويكتفى بسطر أو سطرين يحيى بهما أباه .. ولكن الأب كان يتصل تليفونيا بالمشرفين على هذا المعهد ليطمئن على ابنه .. وهو لا يستطيع أن يتكلم الفرنسية ولا الانجليزية فكان يعهد إلى ابنته سناء بأن تتولى هذه المكالمات التليفونية إلى أن قالت له يوماً بعد احدى هذه المكالمات :

ـ لقد أرسل المعهد علاء إلى معهد آخر فى باريس ليتم فيه تعليمه ..

وصاح الأب فى دهشة :

ـ أرسلوه إلى أى معهد وماذا يتعلم فيه . .

وقالت سناء :

ـ لم يخبرونى .. يكفى أنه يتم تعليمه ..

لعل سناء تخفى عن أبيها ما قالوه لها .. ولكنه استسلم صاغراً .. لم يعد أمامه إلا الاستسلام للقدر والاتكال على الله ..

وعلاء لايزال يرسل الخطابات إلى أمه .. إنه دائماً يطالب بمزيد من المبالغ التى يرسلونها له .. وأمه وأخته يجيبان عليه .. والأب يحس كأنه يحتفظ بكرامته كأب ، فمادام ابنه لا يكتب له فلن يكتب له هو الآخر .. ولكن ثقل

شوقه إلى ابنه دفعه لأن يقرر السفر إليه هو وزوجته .. وأرسلت سناء تبلغه بأنهم سيأتون إليه فأجابها بأنه لن يبقى فى باريس ، وسيسافر مع طلبة المعهد فى رحلة حول دول أوربا .. لعله يرفض مجرد لقاء أبيه ..

وبعد عامين فوجئت العائلة بعودة علاء إليها ..

وتحامل الأب على نفسه حتى لا يلوم ابنه على عدم اتصاله به خلال غيبته وسأله مبتسماً :

ـ ماذا تعلمت حتى الآن ..

وقال علاء وقد تغيرت لهجته ، وأصبحت قوية جريئة كأن الغربة قد جعلت منه شخصاً آخر :

ـ تعلمت الموسيقى ..

وصاح الأب كأن حجراً ألقى على رأسه :

ـ وماذا ستفعل بهذه الموسيقى ..

وصاح علاء فى هدوء :

ـ سأكوّن فرقة موسيقية وأعمل بها ومعها ..

وصرخ الأب ويده تشوح فى الفراغ كأنه يهم أن يصفع ابنه :

ـ أى انك ستعمل فى أحد الكباريهات أو أحد ملاهى شارع الهرم .. وتتزوج راقصة ..

وقال علاء وهو يضغط على عينيه حتى يحتفظ بهدوئه :

ـ يا بابا .. إن المعهد الذى أرسلتنى إليه اكتشف أن ليس لى هواية ولا أصلح

لأى شىء إلا للموسيقى وأن أكون موسيقارا .. وهذا المعهد هو الذى أرسلنى إلى المعهد الآخر الذى استكملت فيه هوايتى بدراسة أوسع .. وقد وصلت إلى أن وضعت ألحاناً كانت تقدم وتعزف داخل باريس ..

وصرخ الأب :

- إنى لا أقبل أن يكون ابنى من نجوم شارع الهرم .. هذه فضيحة لى ..
وقال علاء وهو يبتسم ، وعيناه حالمتان كأنه يحادث نفسه :

- ان موسيقاى لا تصلح لشارع الهرم .. وموسيقى عبد الوهاب ليست محصورة فى شارع الهرم .. ومن يدرى .. ربما وصلت إلى نجاح عبد الوهاب .. وسألحن أغانى وأصاحب بفرقتى الموسيقية من يغنى .. ولكنها ليست من النوع الذى يغنى فى شارع الهرم .. ثم أن عمرو سليم وعمار الشريعى يعتبران من أقدم وأرقى العائلات ، ورغم ذلك احترفوا الموسيقى ، وأصبحا يشرفان عائلتيهما .. ثم لماذا نرفض شارع الهرم .. إنه مجال حى من مجالات الفن المنطلق .. إنه مجال الموسيقى الأقرب إلى الأغلبية الشعبية .. قد تكون الموسيقى فيه كأنها الفول المدمس أو العدس الذى يشبع الأغلبية الشعبية .. وأنت يا أبى رغم كل نجاحك لاتزال تفضل الفول المدمس والعدس اللذين تعودت عليهما .. تفضلهما على كل ما يستطيع ثراؤك أن يضعه أمامك .. وأنت إلى الآن لاتزال تسمع الموسيقى التى تنطلق من صالات شارع الهرم ، حتى لو أخفيت وأنكرت الاستماع لها .. وأنا لا يهمنى أين أقدم الموسيقى ولا نوع ما أقدمه ، ولكنها موسيقاى أنا وسأبقى دائما موسيقارا ..

وقفز الأب من على مقعده وصاح ، وهو يشير إلى الباب كأنه يطرد ابنه :

- إذا صممت فأنت لست ابنى .. ولن أتركك تستغلنى وتبعثر أموالى على

إقامة فرقة موسيقية لترقيص الناس .. وسأتبرأ منك ولن أطيق أن تقيم معى فى بيت واحد .. اما أن تعيش نجاحى أو لا تعيش فى بيتى ..

وقال علاء فى برود :
- أمرك يا بابا .. سأعيش وحدى بعيدا عنك .. ربما كان هذا يحفزنى أكثر على النجاح ..

وخرج علاء إلى غرفته يعد لنفسه حقيبة يجمع فيها بعض ملابسه .. إنه سيعيش فى القاهرة ، كما كان يعيش فى باريس .. بلا عائلة .. ولكن أمه نفعت بالصوت .. لا يمكن أن يطرد ابنها من بيتها .. لا يمكن أن يعيش بعيداً عنها مادام فى القاهرة وحده .. إنه ابنها ..

واضطر الأب أن يستسلم لما تريده الأم .. وهو فى دخيلة نفسه لا يطيق أن يتخلى عن ابنه ولو بمجرد وجوده معه فى بيت واحد .. وعدل علاء عن أن يهجر البيت كأنه يجفف دموع أمه .. إنه يبقى لها لا لأبيه ..

□ □ □

هكذا أصبح حالة بين ابنته سناء ، وابنه علاء ..

وقد تزوجت ابنته من السائق عبد الكريم بسيونى رغما عنه ، ودون أن ينتظرا موافقته .. وهى تعيش بعيدة عنه .. لا يراها ولا يعرف عنها إلا النادر الذى تعرفه أمها .. وأقام علاء فرقته الموسيقية دون أن يحاول أن يأخذ من أمواله شيئا .. ولعله قد أصبح له كيان .. فقد بدأ يقرأ عنه فى الصحف ، ويرى صورته فى بعض المجلات الفنية .. ولكنه لا يراه رغم أنه لايزال يقيم فى البيت .. لقد تغير كل شىء فى البيت .. وأصبح كأنه خرابة تجمع بين قطع من الأثاث الفاخر .. حتى ساعة تناوله الغداء أصبح يجلس على المائدة وحيداً مع زوجته وليس معه ابنته أو ابنه ..

وهو يسأل نفسه عن مصير كل ما أقامه من مشروعات بعد أن يموت .. لعل ابنته وابنه سيبيعان كل ما يرثانه عنه من أملاك .. أو يهملا إرثهما حتى يشاهد وهو فى قبره اعلان افلاسه .. وضياع كل شىء تركه فى الحياة حتى اسمه .. لن يعود احد يذكر اسمه ، ولن يظل هذا الاسم معلقاً على شركاته .. ووصل فكره إلى أن يتصور أنه يستطيع أن ينجب ابنا ثالثا يحافظ على إرثه ويظل رافعا اسمه .. وهو الآن فى السابعة والخمسين من عمره ولكنه متأكد أنه لايزال قادرا على الانجاب .. إن الرجل قد ينجب حتى بعد الستين .. وكل ما يحتاج إليه هو أن يحمل زوجته إلى الطبيب ليجرى لها عملية جراحية تعيد إليها قدرتها على الانجاب .. لقد سبق أن أكد له الطبيب أن هذا ممكن .. وقد حمل زوجته إلى الطبيب فعلاً ، وكانت قد استسلمت له رغم انها أكدت له أن هذا مستحيل .. إلى أن أكد له الطبيب أيضاً هذا المستحيل .. لقد انقطعت عنها القدرة على الانجاب بحكم السن ..والتهبت أفكاره حتى كاد يجن .. لعل الحل الوحيد هو أن يتزوج من جديد .. يتزوج امرأة شابة يمكن أن تنجب له ابنا .. ولكن مستحيل .. إنه لا يستطيع .. ليس من طبيعته أن يبحث عن امرأة أخرى غير التى أحبها وتزوجها .. ثم .. إذا كان يخشى بيع ابنته وابنه هذه الشركات الضخمة التى سيرثونها عنه .. فليبيعها هو مقدما حتى لا يتركها تقع فى يد غريب .. ليبيعها ويعيش وهو يبعثر الملايين على إمتاع نفسه بالطواف حول العالم .. ويشترى طائرة .. ومركب ياخت ضخما يعبر بها المحيطات كما يفعل أصحاب الملايين فى أمريكا وفى أوربا بل وفى البلاد العربية أيضا .. لا .. إن النجاح الذى يحقق الملايين يعتبر بالنسبة له هواية لا يستطيع أن يعيش دون أن يغرق فيها كل عمره .. إنه يعمل لا ليجمع الملايين بل لانه لا يستطيع أن يعيش بلا عمل ، وبلا فرحة النجاح فى كل عمل ..

واستمر يعمل ، وقد إزداد جرأة فى مغامراته واندفاعاته .. لم يعد حريصا على ضمان استمرار نجاحه من بعده .. إنه يعمل لمجرد اشباع هوايته ، كانه يلعب الطاولة أو الكوتشينة ويكسب كل من يلاعبه ..

ثم أخذت الحياة العائلية تهدأ من حوله .. لقد أصبحت ابنته سناء تأتى إليه ، وتلقى بنفسها بين أحضانه وزوجته تحيطها بابتسامتها العاقلة المريحة التى تفيض بالحب .. ووصلت ابنته إلى انها أصبحت تصحب زوجها السائق عبد الكريم بسيونى فى زيارته .. ويجد نفسه مضطراً إلى الاجتماع به والجلوس معه .. إنه لم يعد مجرد سائق يبدو عليه أنه وصل إلى مستوى أعلى ، ويبدو كأن وجهه تغير .. وصوته تغير .. وشخصيته تغيرت .. إنه يجلس معه كأنه لم يكن واحداً من خدمه .. بل كأنه ارتفع إلى دنياه .. دنيا النجاح وتحقيق الثراء .. بل إنه أصبح يحادثه فى مواضيع كأنها مواضيع مشتركة بينهما .. ورغم ذلك فهو لا يحاول أن يستعين بزوج ابنته فى أى عمل ، أو أنه يشركه فى أى مشروع .. كأنه لا يستطيع استكمال اطمئنانه إليه .. أو كأنه يفضل أن يتركه وحده فى دنياه حتى يستكمل بناء نفسه دون أن تقوم شخصيته على مجرد إنه زوج ابنته .. زوج ابنة المليونير الناجح ..

وابنه علاء لايزال يقيم معه .. إنه يقيم مع أمه لا معه .. ويتعمد ألا يراه أو يلتقى به ولو لقاء صدفة .. ولكن ابنه أرسل إليه فى يوم مجموعة من الكاسيت مسجلا عليها ألحانه وموسيقاه .. وغضب على نفسه أن يستمع إليها .. وأحس كأنه خرج من بلده ، وأخذ يطوف فى دنيا جديدة عليه .. دنيا الموسيقى .. إنه لا يفهم فى هذه الدنيا شيئا ، ولكنه كأنه يتفرج ومجرد الفرجة تسعده .. وأرسل يستدعى ابنه ، وقال له وهو يبتسم .. كأنها ابتسامة رجل يعترف أخيراً بهزيمته :

ـ اجلس .. لقد أوحشتنى ..

وفرح علاء باستعادة رضاء أبيه .. وأخذ يحدثه عن الموسيقى والفرقة التى أقامها ، والالحان التى أذيعت له .. والأب لا يحاول أن يفهم ما يسمعه منه .. يكفى أن يسمع صوت ابنه .. وقد عود ابنه بعد ذلك على ألا يراه إلا إذا

استدعاه .. لم يحاول أن يقيم معه مشروعا موسيقيا ضخما يمده فيه بملايينه .. بل تركه كما هو .. لا يستعين إلا بأمه ولا يلجأ إلا إليها ..

إنه استعاد إحساسه بأنه رب عائلة ..

ولكنه لم يعد يعمل ليستمر عمله من بعده فى ورثته .. ورغم ذلك فهو يزداد نجاحاً وتزداد ملايينه ..

وجاءت له بمدرس آخر يعلمه العزف على الكمان .. والأب يحاول أن يقنع نفسه بأن هذه مجرد هواية لابنه .. وكونه يهوى اللعب بالآلات الموسيقية أفضل من أن يهوى اللعب بالكوتشينة مثلاً التى قد تحوله إلى لاعب قمار .. وقد يصل إلى المقامرة بكل ما يرثه عنه .. ورغم أن علاء كان يتعمد ألا يمسك بأى آلة موسيقية فى حضرة أبيه إلا أن الأب فاجأه مرة وهو معه قائلاً :
ـ ألا تسمعنى شيئاً مما تعلمته على البيانو أو الكمان ..

وفرح علاء فرحة كبيرة ، وقفز إلى البيانو يحرك أصابعه عليه .. وحاول الأب أن يحتفظ بابتسامة يشجع بها ابنه على الاستمرار فى العزف .. ولكنه معروف عنه أنه لا يطيق الاستماع إلى أى موسيقى .. بل لم يكن يستمع إلى أم كلثوم أو عبد الوهاب إلا مضطرا لمجاملة من يحتاج إليهم فى عمل إذا جمعته الظروف بهم فى جلسة ترتفع فيها هذه الموسيقى وهذه الأصوات .. ولذلك لم يستطع أن يحتفظ بابتسامته المشجعة طويلاً وهو يستمع إلى ما يعزفه .. والتوت شفتاه تعبيراً عن سخطه وقرفه .. ولا يدرى ما حدث فقد توقف ابنه عن العزف على البيانو فجأة .. وقاوم الأب قرفه وافتعل ابتسامة ، وقال له وهو يصفق له كأنه يريد أن يحتفظ بفرحة التجاوب بينه وبين ابنه حتى على ما يقرفه :
ـ استمر يا علاء .. لم أكن أدرى انك أصبح عازفاً ..
وقال علاء فى صوته المهذب :
ـ كفى يا بابا .. أرجو أن تسمح لى بالدخول إلى غرفتى لأذاكر دروسى ..

وسكت الأب وهو يتابع بعينه ابنه مبتعداً عنه .. لعله اكتشف أن أباه قرفان منه ، ولا يتحمل الاستماع إلى مثل هذه الموسيقى ..

وأصبح علاء فى السادسة عشرة من عمره وهو لا يزال فى الفصل الأول من المدرسة الثانوية .. وقد رسب فى هذا الفصل عامان ، وأقبل على امتحان

لا أحد منا يستطيع أن ينسى ذكرى المرحوم اللواء شكرى عبد الله ..

لقد تعارفنا فى أيام زمان .. فى الثلاثينات .. أيام الانجليز والملك فاروق .. وجمعتنا المدرسة الثانوية .. ورغم اننا لم نكن شلة إلا ان كلا منا كان دائما مع الآخر كلما جدت أحداث .. وكل منا يعرف ويتتبع أخبار الآخر بعد أن انتهينا من الدراسة الثانوية وعاش كل منا طريقه ..

وكان الخبر الذى فوجىء به الجميع إلى حد أن وقعنا كلنا فى ذهول هو ان شكرى عبد الله التحق بمدرسة البوليس قبل أن تحمل اسم كلية الشرطة .. أى أنه انضم إلى البوليس وسيكون أحد رجاله رغم أنه طول حياته معنا فى الثانوية كان معروفا انه الد اعداء البوليس واشدنا اندفاعاً فى تحدى ومقاومة البوليس فى كل مناسبة تقوم فيها المعارك بين البوليس والطلبة .. وحتى بلا مناسبة وبلا معارك كان شكرى عبد الله متفرغا لمحاربة رجال البوليس .. يكفى أنهم من رجال البوليس ..

□

ومن هم رجال البوليس .. !!

انهم فى نظره ، كرجال عصابة من عصابات فتوة من الفتوات الذين كانوا يحكمون أحياء القاهرة أيام زمان .. انهم رجال الحاكم .. والحاكم أيامها كان الانجليز أو الملك حتى لو كان البوليس يتبع وزارة الداخلية .. فالوزير يلبى مطالب الانجليز أو الملك ويصدر أمره إلى رجال البوليس .. لذلك كان يعتبر العداء للبوليس كقضية وطنية .. أى انك تعادى البوليس لأنك تعادى الانجليز وتعادى الملك ..

وأيامها كان قيام الطلبة بالمظاهرات السياسية أساساً من أسس البرنامج المدرسى .. كانت المدرسة تقوم بالمظاهرات كواجب مفروض عليها تستكمل بها صفتها كمدرسة .. وكان الطالب يشترك فى المظاهرات حتى يستكمل صفته كطالب .. وإن لم يشترك فيها فهو ليس طالبا من طلبة المدرسة ويتهم بالجبن والميوعة والخوف من الحكومة حتى لو كانت طبيعته لاتتجاوب مع المظاهرات .. كنا كلنا نشترك فى المظاهرات حتى دون أن يفهم بعضنا أسباب هذه المظاهرات وأهدافها .. يكفى أننا نعيش قضية وطنية .. ولم يكن زميلنا شكرى عبد الله يعتبر زعيما من زعماء المدرسة ويتولى قيادة المظاهرات .. ولكننا كنا دائما نلتف حوله نستمد اندفاعنا من حماسه العنيف ومن الخطط التى يضعها تلقائيا لمواجهة البوليس أو الهرب منه .. وكان أحيانا يعتبر نفسه المسئول عن المظاهرة فعلا ، ويقف ليشرح لنا خطته دون أن يعرضها فى صيغة أوامر يفرضها علينا بل أحيانا يشرح خطته وهو يضحك كأنه يروى نكته .. أو يلعب لعبة مع البوليس .. كان يقف بيننا وهو يقول أن على بعضنا أن يدخل من هذه الحارة ويبدأ فى قذف البوليس بالطوب والحجارة وسيتجه اليه البوليس فورا ويطارده بالعصى .. وفى نفس اللحظة يكون البعض الآخر منا قد تجمع فى هذه الحارة الأخرى ويجرى وراء البوليس ويبدأ فى الضرب

بالطوب والحجارة .. وبذلك نكون قد حاصرنا البوليس من ناحيتين .. من الأمام والخلف .. ونعدمه العافية ..

وكانت كل تخطيطات شكرى عبد الله تنتهى كالعادة بهزيمتنا أمام البوليس والقبض على من تصل يد البوليس اليه .. وإن كانت هذه الخطط تحقق أحيانا مدة أطول فى المعركة ..

إلى أن خرجت المدرسة ذات يوم فى مظاهرة كنا نهتف فيها « يسقط هور ابن الثور » .. وربما كان كل الطلبة المتظاهرين لايعرفون من هو « هور » الذين ينادون بسقوطه ولماذا هو ابن الثور .. فقد كانت نصوص الهتاف تصل الينا عن طريق الجامعة أو عن طريق الأحزاب السياسية ونرددها على أنها طبق اليوم من أطباق المطالب الوطنية .. إلى أن بدأنا نعرف أن « هور » هو الوزير الانجليزى الذى صرح فى لندن بأن بريطانيا لاتنوى أن تهتم بأى حل للقضية المصرية .. ولم نحاول أن نقدر جدوى الهتاف فى شوارع القاهرة بسقوط وزير انجليزى فى لندن ، وانطلقنا بكل حماسنا نهتف « يسقط هور ابن الثور » ونحن نؤمن فعلا بأننا نستطيع اسقاط هذا الوزير الانجليزى .. إلى أن فوجئنا بالبوليس يواجهنا ويحاصرنا تحت قيادة رجال البوليس الانجليز .. لقد كان الكونستبل الانجليزى هو دائما الذى يقود البوليس فى مواجهة المظاهرات الوطنية .. وهمس شكرى عبد الله لزميله الذى يعلن الهتافات بأن يهتف « يحيا الثبات على المبدأ » ، كأنه يدعو الطلبة إلى مواجهة البوليس وعدم محاولة الهروب من أمامه .. ولكن كل الطلبة بدأوا الهرب والاختفاء من أمام البوليس إلى أن وجد الطالب شكرى عبد الله نفسه واقفا وحده أمام البوليس كله وقرر أن يهرب هو الآخر .. ولكنه ما كاد يدخل من باب أحد البيوت ليختبىء فيه حتى وجد نفسه بين يدى كونستبل انجليزى لحق به يحمل فى احدى يديه كرباجا وفى اليد الأخرى مسدسا .. وكانت كرابيج الانجليز مصنوعة من ذيول البقر وتمزق كل ما تهبط عليه من لحوم البشر .. وانهال

الكونستبل بذيل البقر على شكرى عبد الله حتى مزق وجهه ، وشكرى يهرب من الكرباج دون أن يحاول الهرب من الرجل الانجليزى خوفا من أن يلاحقه باطلاق المسدس عليه .. إلى أن اكتفى الانجليزى من ضرب شكرى ليبحث عن طالب مصرى آخر يضربه .. فنادى عسكرى بوليس كان يجرى وراء الطلبة وقال له بلغة عربية مفككة يأمره بأن يقف مع هذا الطالب ويستمر فى ضربه إلى أن يعود إليه ..

ولم يكن العسكرى المصرى يحمل كرباج ذيل البقرة بل كان يحمل عصا عادية كما لم يكن فى يده مسدس وشكرى يفكر من خلال الدماء التى تنزف على وجهه أن يهرب من هذا العسكرى حتى لو اضطر أن يصارعه ولكن العسكرى لم يضربه إلا ضربة واحدة ثم تتبع بعينيه العسكرى الانجليزى حتى ابتعد عنه .. وقال لشكرى صائحاً به :

- قم واهرب .. أهرب منى ..

وقام شكرى يجرى هاربا دون أن يحاول رجل البوليس اللحاق به ..

واستمر شكرى يجرى حتى بعد أن ابتعد كثيرا عن الموقع الذى ضرب فيه .. ولكنه لايزال يجرى .. إنه يجرى وعقله ليس معه .. لايفكر فى شىء ولايحس بالخوف من أن يلاحقه أحد سواء الكونستبل الانجليزى أم العسكرى المصرى ودون أن يحس بمن ينادونه من المشفقين عليه .. انه فقط يجرى .. إلى أن وصل البيت وكأنه أفاق على صراخ أمه واخته وهما يريان وجهه غارقا فى الدم .. لقد كان كرباج ذيل البقرة عنيفا والكونستبل الانجليزى ينهال به عليه .. حتى أنه مزق جلد وجهه وترك فيه شقا مرسوما على خده بقى على وجهه طول عمره وكان يتباهى به ويسميه وساما بريطانيا منحه له الاحتلال البريطانى ..

ومنذ هذا اليوم بدأت أراء شكرى عبد الله تتجه اتجاها جديدا أن رجال البوليس المصريين مظلومون وهم لايريدون الاعتداء على الطلبة المصريين بهذا العنف ولكنهم مضطرون إلى سماع أوامر الانجليز .. ان الكونستبل الانجليزى هو الذى يأمر العسكرى المصرى .. وهذا الانجليزى يتلقى الأوامر من الحكمدار الانجليزى .. والحكمدار يتلقى أوامره من الجهاز الاستعمارى البريطانى حتى لو صدرت هذه الأوامر عن طريق رئيس الوزراء المصرى .. وكان الحكمدار أيامها اسمه « رسل باشا » وكان اسمه يوازى اسم ملك مصر .. على الأقل ملك الشارع المصرى .. لاشك أن كل من عاش معنا من أبناء جيلنا القديم يعرف اسم « رسل باشا » .. لقد كان ألمع أسماء الدولة مع اسم الملك ورئيس الوزراء ..

وقد تطور شكرى عبد الله تطورا غريبا .. لقد أصبح صامتا نادرا ما يتكلم .. كان دائما يبدو كأنه سرحان وراء البحث عن حل لمشكلة عنيفة .. وكان فى المرات النادرة التى يتحدث فيها عن القضية كان يقول دائما .. لا أمل .. يجب أن يخرج الانجليز أولا .. حتى انه لم يعد يخطط ويدبر للمظاهرات انما يسير فيها كمجرد استكمال للمظهر دون أن يهتف أو يضرب ويختفى عند أول مناسبة هرب .. لم يعد يؤمن بأن المظاهرات يمكن أن تؤدى إلى أى شىء .. واصبحنا نقول عنه أن العلقة الانجليزى بذيل البقرة سيطرت عليه وأسرته بالخوف .. ولكن الواقع وهو ما اكتشفناه بعد سنوات طويلة أنه كان يقوم بعمليات خطيرة يحتفظ بها كلها كعمليات سرية .. فهو لايستطيع أن ينسى أبدا العلقة التى صبها عليه الكونستبل الانجليزى .. وقرر أن ينتقم منه .. ولكنه لايعرف شكله ولا اسمه ولاشىء عنه . لقد كان يخفى عينيه وهو يضربه حتى لايعميه ذيل البقرة فلم ير شكل الكونستبل الذى يعتدى عليه لذلك قرر بدلا من أن ينتقم منه ويرد عليه اعتداءه أن ينتقم ويرد على كل الانجليز وأى انجليزى ويقوم بعمليات سرية فى الخفاء حتى لايقبضون عليه بسرعة .. وحتى يحتفظ بسريته أبعد هذه العمليات عن مجتمع الطلبة واعتمد فيها على

أهالى بلدته .. وهو من أهالى البدرشين ومن عائلة كبيرة هناك لها مكانة ممتازة ونفوذ كبير لدى الجهات الرسمية بل ولدى الانجليز .. فكان من وقت لآخر يجمع عددا من شبان بلده وينزل بهم إلى القاهرة وهم فى ملابس بلدية ويستطيعون أن يتقربوا لأى رجل انجليزى يقابلونه فى الطريق سواء كان يرتدى ملابس عسكرية أو مدنية أو حتى من السواح ولايهمهم أن يعرفوا وظيفته أو مكانته .. ولكنهم يتمايلون على أى واحد يقابلونه حتى يكسبوا صداقته ويثيروا أحلامه فى أن يقضوا معه ليلة رائعة .. ثم يصحبونه فى شوارع محمد على أو شارع فؤاد أو يدخلون به أى فندق حتى يملأوا بطنه بالخمر ثم يختفون به فى أى مكان يختارونه ويقضون عليه .. يقتلونه .. انتقاما للاعتداء على شكرى عبد الله ..

وقد تكررت هذه الحوادث وعرفت وبدأت الحكومة بكل أجهزتها تبحث عن مرتكبيها .. وقبضوا على الكثيرين ونفذوا فيهم حكم الإعدام فعلا أو ألقوهم فى السجون ولكنهم لم يقبضوا على شكرى عبد الله ولا على أحد من شبان البدرشين .. إن شكرى عبد الله أصبح معروفا فى مظهره بهدوئه وعدم اشتراكه فى السياسة ولو باسم الوطنية .. ونحن لم نعرف عن هذه العمليات السرية التى كان يقوم بها فى هذه الفترة إلا بعد ان انتهت القضية ولم يعد شكرى يمكن أن يصيبه أى اتهام ..

وكانت المفاجأة الكبرى لنا كلنا اننا عرفنا بالتحاقه بمدرسة البوليس بعد أن تخرج فى المدرسة الثانوية ونال شهادة البكالوريا .. الشهادة التى أصبحت تسمى فيما بعد التوجيهيه ثم الثانوية العامة ..

ولم تكن مدرسة البوليس تغرى أى طالب بالالتحاق بها .. ومعروف عنها أنها لاتجذب أى طالب من عائلة محترمة أو عائلة تسعى إلى العلم وإن كان قد ظهر فيها شخصيات قوية محترمة تخرجوا وأصبحوا قادة البوليس

المصرى كالمرحوم الضابط الكبير اللواء سليم زكى .. كان المعروف عن مدرسة البوليس أنها تفتح أبوابها للطلبة الجهلة الأغبياء الراسبين ولذلك كانت مفاجأة كبيرة لنا كلنا أن يلتحق بها شكرى عبد الله .. فهو من عائلة محترمة .. قريبة من أصحاب النفوذ .. وهو دائما متفوق فى دراسته وترتيبه بين الطلبة من الأوائل .. فلماذا اختار أن ينضم إلى مدرسة البوليس .. ان بعض الناس يعتبرونها كمكتب خدم يقدم كل أنواع الخدم للرؤساء الانجليز والمصريين .. وهو ليس مضطرا لأن يكون خادما بل أن تاريخ حياته يؤكد أنه يتمتع بشخصية السيد .. ولم يكن شكرى يفسر اختياره لمدرسة البوليس ولايدافع عن نفسه ولكنى سمعته مرة يقول فى صوت خفيض هادىء .. إنى سأعلم البوليس المصرى كيف يتحرر من الضباط والكونستبلات والرؤساء الانجليز .. يجب أن يكون رجال البوليس ضد الانجليز لا فى خدمة الانجليز ..

اذن .. كان هذا هو هدف شكرى عبد الله .. تحرير البوليس المصرى من سيطرة الانجليز .. بأن يكون ضابطا فى البوليس يستطيع أن يصدر أوامره ..

ولكن تاريخ مصر كله قد تغير .. كل شىء تغير بعد أن تخرج شكرى فى مدرسة البوليس .. لقد عقدت معاهدة ٣٦ بين مصر وانجلترا ولم يعد للقوات البريطانية حق الوجود فى مصر إلا فى حدود منطقة القنال .. وقد احتقر شكرى هذه المعاهدة فهى تعترف بالاحتلال الانجليزى وإن كانت قد أبعدته إلى خارج القاهرة .. احتقرها رغم أن حزب الوفد وهو حزب الأغلبية كان يسميها معاهدة الشرف والاستقلال وان كان هو نفسه قد بدأ يحس بأنه أصبح أكثر احتراما كضابط بوليس .. وقد أصبحت مدرسة البوليس كلية جامعية كما أصبح أبناء الأغنياء والمحترمين يسعون للالتحاق بها ..

وكان شكرى عبد الله منذ أن أصبح ضابط بوليس يستغل نفوذ عائلته فى اختيار المراكز التى يعين فيها وكان دائما يختار المراكز القائمة فى الأحياء

التى تجمع أكبر عدد من المدارس حتى يشرف بنفسه على مراقبة الطلبة ، وقد وضع أسلوبا جديدا كان مقصورا عليه وحده واعتبره باقى ضباط البوليس لعب عيال .. فقد كان يبدأ مواجهة أى مظاهرة للطلبة بأن يتقدم من أفراد القيادة الطلابية ، ويقول لهم .. أن البوليس لايمكن أن يبدأ بالاعتداء عليك .. فان ابداءكم الرأى فى مظاهرة هو حق لكم .. ولكن البوليس مضطر للدفاع عن نفسه .. أى إذا هاجمتم أو بدأتم فى القذف بالطوب أضطر رجال البوليس أن يشهروا عصيهم ويهجموا عليكم حتى تنفضوا أو حتى يقبض على البعض منكم .. ولذلك فمن حقكم أن تسيروا فى المظاهرة .. وان تهتفوا بما ترون الهتاف به ولكن لاتشغلوا الهتاف بأسماء شخصية حتى لايعتبر ذلك اعتداء شخصيا على أحد .. الاستقلال التام أو الموت الزؤام .. إلى آخر هذه الهتافات العامة .. كما لا تبدأو بتحطيم أى شىء من أملاك الدولة كفوانيس النور أو أى شىء آخر . انها أشياء ليست ملكا للانجليز إن مصر دفعت ثمنها فهى من أملاك مصر .. وسأسير أنا ورجال البوليس نحميكم من أى تدخل غريب عنكم حتى تصل المظاهرة إلى آخر الحى واتركك للضابط المسئول عن الحى الآخر ..

وكثيرا ما استجاب الطلبة لمطالب الضابط شكرى وساروا فى مظاهرات سلمية لايعتدى فيها الطلبة على البوليس ولا البوليس على الطلبة .. وكان رؤساء شكرى يوجهون له اللوم لأنه سمح للمظاهرة بأن تكمل طريقها فى سلام ولكن شكرى لم يكن يهتم ولايحترم روساءه .. إلى أن بدأت تصفية البوليس الانجليزى بعد معاهدة ٣٦ .. أصبحوا يعملون داخل المكاتب وليس لهم حق الظهور فى شوارع القاهرة .. وقد اعتقد شكرى عبد الله أنه لم يعد هناك أسباب تدفع الطلبة إلى المظاهرات بعد معاهدة الشرف والاستقلال .. ولكن المظاهرات بدأت تكثر وتشتد ..

وبدأ يتجه اتجاها جديدا فى اكتشاف دوافع المظاهرات .. ان المظاهرات

ليست مجرد مظهر العداء بين المصريين والانجليز . . انها معركة بين كل الأحزاب السياسية .. الانجليز حزب .. والملك حزب .. والوفديون حزب .. والحزب الوطنى .. والحزب الدستورى .. والحزب السعدى .. و .. و .. عشرات الأحزاب بينها أحزاب لا تعلن عن نفسها وتعمل من تحت الأقدام .. وكل هذه الأحزاب تعتمد على فرض نفسها وآرائها بالمظاهرات حتى تصل إلى الحكم .. بل أن الحزب الحاكم يقوم بمظاهرات عنيفة ضد الأحزاب المعارضة .. أى أنه ليس هناك أهداف وطنية وراء هذه المظاهرات كلها أهداف حزبية .. وكل حزب له تنظيمات وخبراء لتجنيد الطلبة والشبان للقيام بالمظاهرات ضد الحزب الحاكم أو الحزب المعارض .. ولها تنظيمات خاصة لتحديد ما تحطمه من أملاك الدولة خلال المظاهرة ..

وظل ضابط البوليس شكرى عبد الله يتبع نفس الأسلوب فى مواجهة المظاهرات .. يتقدم إلى قادة المظاهرة ويقنعهم بالسلام دون محاولة الاعتداء على البوليس حتى لايضطر البوليس إلى ضربهم والهجوم عليهم دفاعا عن النفس .. وغالبا ما كان ينجح هذا الأسلوب وتتم المظاهرة دون معركة بين الشعب والبوليس . . وكثيرا ما يفشل هذا الأسلوب وتنتهى المظاهرة الى معركة عنيفة يضيع فيها من رجال البوليس بقدر ما يضيع من أفراد المتظاهرين ، وغالبا ما يتم القبض عقب المظاهرة على عشرات من أفراد الأحزاب التى تولت القيادة ..

وقد اشتهر اسم شكرى عبد الله كضابط بوليس مصرى عاقل وشريف ولايحمل عداء دائما لكل المتظاهرين إلى أن قامت يوما مظاهرة صغيرة أى قليلة العدد .. وتقدم شكرى على رأس قواته وبدأ يناقش قادة هذه المظاهرة فى القيود التى يجب أن يتعهدوا بالتقيد بها .. لا اعتداءات .. ولا هتافات ضد أشخاص .. ولاتعدى على أموال الدولة .. و .. و .. وبينما هو واقف بينهم كانوا ملتفين حوله بحيث يتركون مساحة مفتوحة بينه وبين الشارع ..

وفجأة .. اخترقت طوبة كبيرة هذه المساحة المفتوحة وأصابت شكرى عبد الله إصابة كبيرة فى جبينه وأخذت تنزف الدم ..

ولم ينتظر أو يتردد شكرى عبد الله لحظة واحدة وسحب قواته من ورائه وأصدر أوامره وانهال ضربا بالعصى والكرابيج على الملتفين حوله وعلى كل المشتركين فى المظاهرة .. وكان عنيفا هو نفسه فى الضرب وأفراد البوليس كأنهم ينافسونه فى الوصول إلى ضرب أعنف ..

وانتهت المظاهرة باصابة أغلبية الذين ساهموا فيها بضربات شقت رءوسهم وأجسادهم أو بالقبض عليهم وفرار الباقين .. وانتهت ، وشكرى عبد الله يحمل ورما ينزف دما على جبينه من أثر الطوبة التى ضرب بها .. وأصبح يقول أنه يحمل وسامين .. وساما انجليزيا على خده .. ووساما مصريا على جبينه .. ومن يومها اتخذ قرارا نهائيا بألا يسمح بظهور أى مظاهرة فى الحى الذى يشرف عليه .. إلا إذا كانت مظاهرة وطنية جماعية تضم كل اتجاهات الشعب ، وتطالب بمطلب واحد كخروج الانجليز من مصر كلها عقب معاهدة ٣٦ .. واستمر على ايمانه بأن الانجليز لايعتدون على المصريين حتى خلال المظاهرات ولكن المصريين هم الذين يعتدون بعضهم على بعض .. وان الأحزاب السياسية هى التى تدبر المظاهرات لتحقيق أهداف خاصة بكل حزب تتخفى فى هتافات ضد الانجليز .. وهو لن يسمح للأحزاب بأن تخل بالأمن حتى ولو كان حزب الحكومة .

وفعلا .. استطاع شكرى عبد الله .. وهو فى رتبة يوزباشى بوليس .. أن يقضى على كل المظاهرات فى أى حى يتولى أمره .. واشتهر اسمه ولكنه أصبح مشتهرا كعدو للطلبة وللطائفة التى تحترف المظاهرات كما كان اسم رسل باشا الحكمدار الانجليزى مشتهراً ..

وكان أى حزب يصل إلى الحكم يعترف لشكرى بفضله وعبقريته فى حفظ

الأمن السياسى .. وهو نفسه لم يكن ينتمى إلى أى حزب .. صحيح أن أفراد عائلته فى البدرشين موزعون بين كل الأحزاب إلا انه هو شخصيا لاينتمى إلى أى حزب .. ورغم ذلك فقد بدأت الأحزاب كلها تضيق به .. ان المظاهرات تعتبر أداة سياسية أساسية لايستطيع أن يستغنى عنها حتى الحزب الحاكم .. أى حتى بعد أن يصل الحزب إلى الحكم حتى يتمكن من الرد على باقى الأحزاب ..

وأصبح هناك شبه اجماع بين كل قيادات الأحزاب على التخلص من شكرى عبد الله .. وقد بدأ الحزب الحاكم بأن أصدر وزير الداخلية قرارا بترقية البكباشى شكر ى عبد الله إلى رتبة أميرالاى بصفة استثنائية على أن يتولى منصبا هاما داخل الوزارة .. ولكن شكرى رفض أن يترك الشارع ويعين داخل الوزارة واضطر الوزير إلى ترقيته دون أن يقدم على نقله إلى داخل الوزارة .. انه ليس بسيطا إلى حد اللعب به .. ووراءه عائلة وشخصيات لها قوة ..

ولم يمض عام حتى تغيرت الوزارة .. وجاءت وزارة الوفد .. وكان حزب الوفد لايكاد يجلس على كرسى الوزارة حتى يعلن أنه القوة الوحيدة فى مصر بل وفى العالم كله .. وكان هو الآخر مقتنع بضرورة التخلص من شكرى عبد الله الذى أصبح اميرالاى بوليس .. ولم يهمه ما يحيط به من أى قوى سياسية .. ولكنه أصدر قرارا استثنائيا آخر بترقية الأميرالاى شكرى إلى لواء .. مع احالته إلى الاستيداع ..

غريبة .. لقد استسلم شكرى عبد الله للأمر فى هدوء .. ولم يبذل أى مجهود ولاسلط أى أحد من كبار رجال عائلته ليبقى فى منصبه ربما كان قد فرح بأن يحمل لقب لواء وهو لايزال فى الأربعين .. أو ربما كان قد يئس من الاعتماد على الوسائل الحكومية فى حفظ الأمن .. ولكن .. هل عاش فعلا

حياة الاستيداع .. الله أعلم .. ان ما عرف عنه انه تفرغ لزراعة حقول من أشجار الموز فى البدرشين .. ولكن قيل أيضا انه كون جيشا سريا من أهل بلده يقاوم به أى محاولة لأى حزب من الأحزاب السياسية أو أى شخصية من الشخصيات السياسية تحاول أن تنظم مظاهرة سياسية ضد الحكومة ، أو ضد أى من كان ما دامت ليست مظاهرة وطنية تجمع كل الأحزاب وكل الشخصيات فى هدف وطنى وليس مجرد اسقاط الحكومة .. بل حدث أن كانت تقع بعض حوادث الاغتيال عقب أى مظاهرة فيتهم بها شكرى عبد الله .. ولكنه كان دائما اتهاما من بعيد ولم توجه إليه أى تهمة ..

يبدو عليه أنه تفرغ لزراعة وبيع الموز .. ولكنه كان فى كل يوم خميس يدعو فريقا من أصدقائه القدامى إلى الغداء فى أرضه فى البدرشين .. وقد دعيت أنا إلى الغداء معه ثلاث أو أربع مرات .. وكنت بمجرد أن أجلس معه أحس أنه لم يتغير فيه شيء .. انه لايزال ضابط البوليس الذى يثير الرهبة والاحترام فيمن حوله.. بل أنه لايزال الطالب معى فى المدرسة الثانوية الذى لايكف عن التخطيط للأعمال الوطنية .. وان كانت التخطيطات التى يقدمها الآن لا تصل إلى حد أن يتعهد بالقيام بتنفيذها أو المساهمة فيها .

وهو كما كان دائما ساخطا .. لايوافق على شيء .. ولايتعلق بأمل .. وهو لايزال يؤمن بأن الطريق الوحيد هو الحرص على الأمن واحترام القانون .. على أساس عدم القيام بالمظاهرات السياسية إلا إذا كانت مظاهرة وطنية جماعية .. وفى آخر يوم رأيته فيه أيام زمان قال لنا ساخرا .. انهم سيقومون بمظاهرة يوم السبت .. هذا أبعد من أحلامهم .. لن يتحرك طالب ولا عامل ولا شحات فى هذه المظاهرة ..

كان يتكلم كأنه لايزال المسئول فى البوليس .. لا مظاهرات .. وفعلا لم تحدث أى مظاهرة يوم السبت .. واستنتجنا أنا ومن يعرف شكرى عبد الله

انه هو .. الجيش السرى الذى أقامه. هو الذى استطاع أن يحقق فشل هذه المظاهرة قبل أن تبدأ ..

وقد توفى اللواء شكرى عبد الله قبل أن يصل إلى الخمسين من عمره .. توفى وفاة طبيعية بحكم القدر وان كانت قد انتشرت الاشاعات حول موته على أنه اغتيل أو مات مسموما ..

وانى أحمد الله انه مات قبل ثورة ٢٣ يوليو .. فلا أحد يستطيع أن يقدر ماذا كان يمكن أن يحدث له وينتهى اليه لو كان على قيد الحياة مع ثورة ٢٣ يوليو .. فهو لم يكن يستسلم لأى مظاهرة .. وثورة ٢٣ يوليو لم تكن سوى مظاهرة ..

مجرد مظاهرة مسلحة ..

دقيقة بعد دقيقة..

ان حياته كلها مجموعة من الدقائق .. لا من الأيام ولا من الساعات .. بل
بلغ من حرصه على السيطرة على حياته وتنظيمها أن جعل منها مجموعة من
لدقائق .. وقد وضع حياته كلها بين عقارب الساعة .. وقد عاشها كلها وهو
يحمل على معصمه ساعة زمنية حتى منذ أن كان صبيا .. وكل ما يتحرك
في حياته مرتبط بتحرك عقارب هذه الساعة ..

وهو لايدرى هل ورث هذه الدقة فى تحديد دقائق حياته عن أبيه أو عن
جده ولكنه وجد نفسه هكذا دون تعمد .. وحتى دون محاولة الاقتناع بأن هذا
هو التنظيم الأمثل للحياة .. لقد وجد نفسه هكذا .. وكان وهو صبى يستيقظ
من نومه فى الساعة السادسة صباحا .. وأول ما يفتح عليه عينيه هى الساعة
التى يحتفظ بها بجانبه فاذا كانت تشير إلى السادسة بالضبط قفز من
فراشه ..وإذا كانت لم تصل إلى السادسة عاد وأغمض عينيه .. حتى ولو لم
يكن فى حاجة إلى النوم .. وإذا كانت بالصدفة النادرة قد جاوزت السادسة
بدقائق فإنه يجد نفسه مضطرا إلى اختصار عدد من الدقائق التى يستغرقها
فى إعداد نفسه بدخول الحمام وتناول الافطار حتى يعوض الدقائق التى
فاتته .. ثم يخرج من البيت فى الساعة السابعة والربع ليصل إلى المدرسة
فى الثامنة إلا الربع تماما .. ويقضى يومه فى المدرسة حتى الساعة الثالثة

ويعود إلى البيت فى الثالثة والنصف .. وينتهى من تناول غدائه فى الرابعة .. ثم يخصص دقائق محددة للراحة ويعطى نفسه حق اللعب فى البيت أو خارج البيت .. وحده أو مع أولاد الجيران .. حتى الساعة السادسة بالضبط فيتفرغ لمذاكرة دروسه حتى الساعة التاسعة .. وفى التاسعة والربع تماماً يجلس على مائدة العشاء وينتهى منه فى التاسعة والنصف ثم يعتبر نفسه ملكا لفراشه سواء نام أو لم ينم إلى أن يصل إلى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى ..

وقد انتقل بهذا التنظيم لدقائق يومه إلى أيام أن أصبح طالبا فى المدرسة الثانوية .. ثم طالبا فى الجامعة .. ثم بعد أن أصبح موظفا كأستاذ جامعى .. وقد وصل إلى هذا المركز لأنه كان دائما متوقعا النجاح فى كل ما يدرسه .. وطبعا كان يعدل ويغير من تخصيص دقائق عمره وفقا لما يتحمله من المسئوليات ..

وليس معنى ذلك أن الأستاذ ابراهيم رجب كان انسانا جافا متزمتا يحرم نفسه من متع الحياة تمسكا بمبادىء الفضيلة العليا .. أبدا .. ولكنه كان يضع متع الحياة داخل التنظيم الكامل لدقائق يومه .. وقد مرت عليه فترة وهو فى شبابه انجذب فيها إلى لعب كرة القدم .. وكان يلعبها فعلا فى المدرسة أو بين أصدقاء الحى .. ولكنه كان لايلعبها إلا فى فترة يحددها ويخصص لها مجموعة من دقائق يومه ولا يمكن لأى اغراء أن يحرضه إلى أى فريق لأنها كلها فرق لايمكن للتنظيم الذى يضعه لدقائق عمره .. لايمكن أن يفرض على فرقة أن لا تلعب إلا يوم الجمعة .. ومن الساعة كذا إلى الساعة كذا ..

وهو فى الوقت نفسه شخصية تجتذب الأصدقاء .. فهو متحدث مسل وصاحب آراء جديدة ومثيرة دائما .. وصاحب مواقف رجولية باهرة تدعو إلى احترامه .. ثم أنه لا يرفض سهرات اللهو والانطلاق الشبابى .. ولكنه كان يفرض عليهم التنظيم الذى وضعه لكل دقيقة من دقائق عمره .. فهو

لايجتمع بهم إلا فى سهرة مساء الخميس .. والسهرة تبدأ دائما فى الساعة الثامنة ولا تتجاوز الساعة الثانية عشرة .. ولم يحاول أحد منهم أن يخرجه على هذا التنظيم .. فاذا أقام أحدهم حفلا ساهرا فى غير مساء الخميس لايحاول دعوة ابراهيم اليها .. ومهما راق الحفل وكملت متعته لايحاول أحد أن يبقى ابراهيم بينهم بعد الساعة الثانية عشرة .. فهو من نفسه يقوم وينصرف دون أن يمسك أحد به .. فكلهم يعلمون أن هذه هى طبيعته .. وليس لأحد منهم القدرة على المساس بطبيعته ..

وكان من المعتاد أن تقدم فى سهرات الخميس كووس الخمر .. وأحيانا تقدم أيضا أنفاس الحشيش .. ولم يكن ابراهيم يعترض أو يسخط أو يتأفف أو يطلق نصيحة .. كان يترك كل صديق حرا فى تناول ما يشاء من كؤوس وشد ما يشتهى من أنفاس .. وهو نفسه كان يضع أمامه كأسا يلتقط منها رشفة أو رشفتين دون أن يحتاج إلى كأس أخرى .. وقد تنتهى السهرة دون أن يفرغ كأسه فى جوفه .. كما كان أحيانا يشد نفسا من الحشيش دون أن يشد نفسا آخرا .. دون أن يبدو عليه الرفض ودون أن تبدو عليه مظاهر الاختلاف عن أصدقائه .. وكل ما هناك أنه بعقليته التنظيمية قدر تأثير الكأس وانفاس الحشيش على قوة التنظيم الذى وضعه لدقائق أيامه واقتنع بأنهما يؤثران على راحته فى تحقيق ما وضعه من تخطيط لدقائق اليوم التالى .. وقد تعود أفراد شلة الأصدقاء أن يشتركوا جميعا فى تزويد سهرة الخميس باحتياجاتهم .. فكان أحدهم يدخل وهو يحمل زجاجة ويسكى .. وفى جيب الآخر فص حشيش .. وقد يدخل أحدهم وهو يحمل لفافة تجمع كمية من الكباب والكفته .. أو حلة واسعة تفيض بالكشرى .. ولكن ابراهيم كان منذ البداية قد أعلن اختصاصه بتزويد السهرة بأنواع الفاكهة .. قد يحمل لهم بطيخه أو قطعا من الجاتوه أو « تورته » كبيرة سخية تكفى لمتعة الجميع بتذوقها .. وهو لم يكن يتعمد أن يبتعد عن شراء المحرمات ولكنه فقط يقدر أنه يثق فى قدرته على اختيار الفاكهة والحلوى وشرائها أكثر من قدرته على شراء الخمر والحشيش ..

وحدث فى حياته ما هو أكثر من ذلك .. ففى إحدى سهرات الأصدقاء التقى بالراقصة زوزو .. وقد وجد نفسه منجذبا إلى هذه الراقصة .. ولكنه لم يبدأ أى محاولة معها فانها لاتدخل فى أى تنظيم يستغرق دقائق من أيامه .. ولكن زوزو نفسها كانت قد انجذبت اليه أكثر .. واستطاعت أن تشده إلى تحديد موعد للقائها فى بيتها .. ولكن كيف يجد فى دقائق أيامه ما يتسع للقائها .. واعتمد على قدرته على تخطيط دقائق أيامه وقرر أن يلتقى بها فى الساعة السابعة من مساء الخميس ويبقى معها حتى الساعة التاسعة ، ثم يعود إلى سهرة الأصدقاء .. بل أنه يستطيع أن يصحبها معه اليهم فقد سبق أن شاركتهم فى سهرات الخميس .. وأصبحت دقائق عمره تتسع للقاء زوزو كل يوم خميس فى الساعة السابعة مساء .. ولكنه أحس بحاجته إلى دقائق أكثر يقضيها مع زوزو .. فعدل من التخطيط وأصبح يلتقى بها أيضا كل مساء ليوم الاثنين .. من الساعة السابعة إلى الساعة الحادية عشرة . ثم اقدم على تعديل أكبر فأصبح يدعو شلة الأصدقاء إلى قضاء سهرة مساء الخميس فى بيت زوزو .. حتى يظل متمتعا بصحبتها .. ولكنه ظل حتى والسهرة فى بيت زوزو ينصرف فى الساعة الثانية عشرة تماما حتى لو ترك زوزو وحدها بين أصدقائه .. انه تنظيم لم يستطع أو لم يفكر فى الخروج عنه من هذه الناحية ..

ولم تستمر دقائق عمره تتسع لزوزو سوى عام وبضعة شهور ثم بدأ يحس انه قد أصبحت له مطالب أوسع تحتاج إلى هذه الدقائق .. وخصوصا وأنه كان قد تخرج وعين معيدا فى الجامعة .. وهى نفسها كانت قد بدأت تحس بالملل من هذا الروتين الذى يفرضه عليها ابراهيم .. وتضيق أن تحسب علاقتها به بالدقائق .. انها يائسة من أن تنتظر أى مفاجأة أو تتعلق بأى أمل .. ثم أن حبها لابراهيم وتعلقها بمتعتها به يكاد يجمد حياتها دون أن تحقق شيئا يتطلع اليه شبابها .. وفى هدوء ورقة اتفقا على أن ينفرد كل منهما بدقائق عمره .. ولم يعد بينهما لقاء محدد بمواعيد ودقائق .. وإن كان كل منهما يتصل بالآخر فى

فترات متباعدة كأنه لايهون عليه أن ينساه .. وان كانت هذه الفترات قد انتهت أيضا واستسلما للذكريات كلما ضعف النسيان ..

إلى أن قرر الأستاذ ابراهيم رجب أن يقيم بناء جديدا فى حياته ..

قرر أن يتزوج

ولم يتخذ هذا القرار كمجرد مظهر يستكمل به حياته .. ولكنه اتخذه بعد قياس دقيق لكل احتياجاته .. وبعد أن وضع مشروعا تخطيطيا كاملا لكل دقيقة من عمره بعد أن يتزوج .. وقد اتبع التقاليد المعروفة فى البحث عن زوجة عن طريق أفراد العائلة والأصدقاء .. ولكنه كان يقضى أياما طويلة فى جمع وقياس المعلومات .. وكان يؤمن بتأثير النظرة الأولى التى تجمعه بمن يراها من المعروضات عليه .. إلى أن قرر أن يتزوج سميحة .. لقد أحس بالدقيقة الأولى التى جمعتهما فى أول لقاء كأنها يمكن أن تمتد إلى دقائق العمر كله ..

ومنذ اليوم الأول لزواجه وهو يفرض على زوجته وعلى البيت كله النظام الدقيق الذى يطبق على كل دقيقة من يومه .. فهو يستيقظ ويترك الفراش فى الساعة السادسة تماما .. ثم يدخل الحمام ويخرج ليتولى بنفسه ارتداء ثيابه دون أى معاونة من الزوجة .. ثم يتناول طعام الافطار فى السابعة تماما ويخرج من البيت فى السابعة والنصف .. حتى الكلمات التى يتبادلها مع زوجته خلال هذه الفترة لا تخرج عن اطار محدد لها .. وتشمل الاتفاق على متطلبات اليوم وتنتهى بقبلة سريعة على الخد .. ثم يعود إلى البيت فى الساعة الثانية تماما ويتناول طعام الغداء فى الساعة الثانية والنصف .. وهو يتناول الغداء قبل أن يبدل ثيابه ويرتدى ثياب البيت .. ثم فى الساعة الثالثة إلا الربع يدخل غرفة النوم ويبدل ثيابه ويرقد على فراشه لمدة ساعة ليقرأ الصحيفة اليومية أو يغفو نائما .. وفى الساعة الخامسة تماما يكون جالسا إلى مكتبه يراجع ويعد أعماله .. و .. و .. حتى العلاقة الخاصة التى تجمعه بزوجته منظمة تنظيما

دقيقا فهما يرقدان على الفراش فى الساعة التاسعة والنصف بعد مشاهدة نشرة الأخبار على شاشة التليفزيون فهو لايشاهد أكثر إلا فى مساء يوم الخميس .. وعلى الفراش يستعرض مع زوجته كل مطالب واحداث اليوم .. ثم يتبادلان قبلة سريعة على الخد ويدير كل منهما ظهره للآخر .. ماعدا ليالى يومى الأثنين والخميس .. فهى مخصصة للقاء كامل بين جسديهما .. يعد كل منهما نفسه له كأنه يعد نفسه للمتعة الكبرى .. وهما فعلا يحسان بمتعة كبرى لم تخفت ولم تضعف على مر الأيام ..

وكانت الأيام تفرض عليهما أوضاعا جديدة تضطره أن يدخل تعديلات على برنامج تنظيم كل دقيقة من يومه .. ولكنه كان دائما منظما .. فبعد أن انجب أولاده .. أصبح يخصص دقائق فى كل صباح من الساعة السابعة حتى السابعة والنصف للاهتمام بهم وتحمل مسئوليتهم .. ثم يخصص دقائق أخرى من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة والنصف يراجع معهم دروسهم ويستمع إلى حاجتهم .. وخارج هذه الدقائق فلا يمكن أن يغتصب منه أولاده أى دقيقة .. وهم أنفسهم تعودوا على هذا التنظيم وشبوا مستسلمين له .. وأحيانا كانت تصادف العائلة أحداثا طارئة وبسرعة يستطيع ابراهيم رب العائلة أن يواجه هذا الحدث ثم يعود إلى نفس التنظيم الذى وضعه لكل دقيقة من أيامه ..

المهم أن زوجته سميحة كانت مستسلمة استسلاما كاملا لهذا التنظيم الذى يضعه زوجها لكل دقيقة فى عمريهما .. بل كانت تؤمن أن زوجها هو أفضل وأقدر الرجال على ضمان سلامة وهناء العمر باصراره على جمع كل دقيقة من اليوم فى جدول واحد روتينى مستمر دون أن تشعر مع أى دقيقة بالملل أو الزهق .. والواقع ان ابراهيم منذ تزوج وهو يربط كل دقيقة من عمره بزوجته سميحة .. لم يعد فى حياته دقيقة واحدة لايحسب حسابها حتى وهو فى عمله بعيدا عن البيت وهو مطمئن إلى أن نتيجة عمله تجمع بينه وبين زوجته ثم أن نتيجة عملها وهى بعيدة عنه تجمع بينها وبينه .. وقد أقلع عن

التنظيم الذى كان يضعه لأيامه قبل الزواج .. لم يعد يسهر كل مساء خميس مع شلة الأصدقاء .. بل أنه أصبح لايرتبط بصديق إلا إذا كان متزوجا مثله . حتى تجمعه به دنيا واحدة ووضع واحد .. وكان يقبل دعوات هؤلاء الأصدقاء بصحبة زوجته .. ويدعوهم إلى سهرة من سهرات الخميس كل شهر أو كل شهرين .. وهم كلهم أزواج وزوجات .. ويشترط تآلف الأزواج ببعضهم وتآلف الزوجات .. فاذا لم تتآلف زوجته مع زوجة صديق أخرجه من حياته مهما كان تآلفه معه هو شخصيا .. إن التنظيم يجب أن يكون جامعا كاملا حتى يطمئن اليه ويهنأ به ..

وأصبح المجتمع كله يشهد بسعادة واستقرار عائلة الأستاذ ابراهيم رجب .. وان كان البعض يتهمها ببرودة الروتين ويشبهها كأنها مصلحة من المصالح الحكومية الباردة التى تفتقد روح الانطلاق فى مواجهة مجالات الحياة ..

وقد كبر الأستاذ ابراهيم رجب وتعدى الستين من عمره وأحيل إلى المعاش وان كان لا يزال يلقى الدروس فى الجامعة كأستاذ زائر ويتحمل المسئولية كمستشار لبعض الشركات .. وقد أضطر أن يدخل بعض التعديلات على تنظيم دقائق أيامه .. ولكنها كانت تعديلات طفيفة لم تغير كثيرا من روتين حياة زوجته سميحة رغم أنها أصغر سنا منه ولم تصل إلى سن المعاش بعد ..

وقد وجد نفسه يتجه إلى احتياج جديد فى مطالب حياته لم يكن يخطر على باله .. وهو الاتجاه إلى مزاولة رياضة السير على قدميه كل صباح . . وأحس كأنه اكتشف سرا من أسرار الحياة .. اكتشف أنه قضى معظم عمره حتى اليوم وهو جالس على مقعد .. ولايتحرك الا بالانتقال من مقعد إلى مقعد .. والحياة لايمكن أن تستكمل حيويتها وقدرتها على الاستمرار وهى ملقاة على مقعد .. يجب أن نمد كل عضلة وكل خلية ، من خلايا الجسم بالحركة التى تنفث فيها الحياة .. بل أن الحالة النفسية التى يستكمل بها الانسان مواجهة أيام الحياة

تقوى بتزويد الجسم بالحركة الرياضية .. والحركة الرياضية تؤهل الانسان جسديا كما تؤهله نفسيا ..

وقد بدأ بأن خصص دقائق من الصباح للسير على قدميه خارج البيت .. من الساعة السادسة والنصف إلى الساعة السابعة .. يسير فى الشوارع إلى أن يخرج إلى منطقة المزارع القريبة ثم يعود ليطبق باقى روتين دقائق اليوم .. وقد بدأ يحس فعلا بمزيد من الحيوية تسرى فى كل كيانه .. ورفع مدة الرياضة إلى ساعة كاملة .. ثم مع الأيام رفعها إلى ساعة ونصف .. ثم إلى ساعتين كاملتين .. ثم يعود وهو يحس بنشوة كأنه استعاد كل شبابه ..

وكان يتعمد الحرص على تزويد نفسه بكل ما يوفر له النتيجة المثلى لهذه الرياضة .. ويوالى الاطلاع على كل ما يسجله الخبراء الرياضيون .. وكان قد بدأ يتعمد أن يخطو وأعصاب ساقيه كلها مشدودة معتقدا أن هذه هى الوسيلة الرياضية المثلى .. ولكنه اكتشف بعد ما راجعه من دراسات أن الرياضة المثلى تقوم على أن تنقل خطواتك وساقيك وهى فى حالة طبيعية .. أى لاتحاول شدها ولا تحاول ارخاءها .. حتى تنعكس على باقى أعصاب وخلايا الجسد انعكاسا طبيعيا .. كما أنه اكتشف أن العنصر الأساسى فى رياضة السير على القدمين هو ألا تشغل نفسك أو تفكر فى أى موضوع آخر وأنت توالى خطواتك .. بل تسير وكل ما فى عقلك منحصر فى ملاحقة خطواتك .. حتى لو وجدت نفسك تتسلى بتعدادها خطوة بعد خطوة .. مائة خطوة .. ألف خطوة .. مليون خطوة .. كما أنه أكتشف أن الرياضة المثلى تفرض عليه الا يلتفت حوله وهو ينقل خطواته .. لا يتوقف أبدا مهما أغرته المعروضات أو الأحداث التى يمر بها .. حتى أنه لايرى شيئا من معروضات الحوانيت التى يمر بها .. بل وقع فى طريقه مرة حادث سيارة شنيع مثير فلم يتوقف ليرى ما حدث .. انما استمر فى خطواته كأنه لم يحدث أمامه شىء .. وكثيرا ما

كان يصادف فى طريقه صديقاً من الاصدقاء فيتجاهل رؤياه او يكتفى بهز رأسه محييا دون أن تتوقف له خطوة ..

وهو دائما يزاول رياضته اليومية وحيدا .. حتى لايشغله أحد عن التفرغ لها ويحاول أن يبتعد بكيانه عن الاحساس بها .. وقد كانت سهير هانم جارة عزيزة تفيض عليه دائما بالاهتمام به حتى كان أحيانا وهو فى هذا العمر يحس بأنه يقاوم هذا الاهتمام حتى لا يستغله .. انها أرملة جميلة مثيرة منطلقة بحياة تنبض كل دقائقها بالحيوية .. كأن كل دقيقة دعوة مغرية .. ولعلها عرفت ان ابراهيم يبدأ فى الساعة السادسة والنصف من كل صباح مزاولة رياضة السير على قدميه .. وقد فوجىء بها ذات صباح وهى تنتظره على الباب وتقول له انها قررت هى الأخرى أن تبدأ فى رياضة السير على قدميها وستسير بصحبته .. ورضخ بسرعة .. إنها متعة رائعة أن يتحرك بصحبة سهير هانم .. ولكن سهير لاتكف عن الكلام .. ولا يهمها أن يتكلم هو الآخر أو لا يتكلم .. انها تتكلم كأن الرياضة التى تمارسها هى رياضة لتقوية وانعاش لسانها وحده .. وقد بدأ يحس أنه لايستطيع أن يعيش الدقائق التى يخطو خلالها بقدميه .. يحس أنه لايخرج من رياضته اليومية بشىء .. والتفت اليها بسرعة قائلا :

آسف .. سأكمل المشوار وحدى ..

وسبقها فى خطواته ليتم البرنامج اليومى الرياضى .. ولم تحاول سهير مرة ثانية أن تصحبه فى مشوار الصباح ..

وزوجته سميحة .. لقد بدأت منذ شهور تعانى متاعب صحية ولم يستطع الأطباء أن يصلوا إلى مراكز الضعف فيها ويعالجوها .. إلى أن قررت هى نفسها أن تصاحب زوجها فى رياضة كل صباح .. ومن يدرى .. ربما تشفى ..

وقد قبل أن تصحبه وهو يحس أنه يقوم بواجب ثقيل تفرضه عليه مسئوليته عنها .. ولكن سميحة لاتقدر ولاتحترم رياضة السير على الأقدام .. انها تتوقف أمام معروضات الحوانيت التى تمر بها .. وتتوقف كلما التقت بصديقة أو بجار من الجيران وتدخل معه فى نقاش طويل .. ولم يعد يحتمل .. وأطل فى ساعته .. لقد مضت نصف ساعة وهو لم يخرج بعد إلى المناطق الخلوية .. والتفت اليها وقال فى رقة كأنه يعتذر لها بأن من الأفضل أن تزاول رياضة السير على قدميها بصحبة ابنها عادل .. ثم عاد بها إلى البيت وأضطر أن يعدل فى تنظيم دقائق يومه بأن يعود وحده ليمشى مشوار كل صباح ..

ومرت سنوات وبرنامجه اليومى ينقله من دقيقة إلى دقيقة دون أن يتغير منه شىء .. إلى أن كان يوما ..

واستيقظ الأستاذ ابراهيم رجب فى الساعة السادسة تماما كما يفرض برنامج دقائق يومه .. ودخل الحمام ثم بدأ يعد نفسه لمشوار كل صباح .. ولكن زوجته سميحة لم تستيقظ .. ان التنظيم اليومى يفرض عليها أن تستيقظ هى الأخرى فى هذه الساعة .. واقترب منها كأنه يهم بلومها .. ويهزها فلا تستيقظ .. ويتحسسها وكل شىء فيها صامت جامد ..

لقد ماتت ..

ووجد نفسه ينهار ويحتضنها كأنه يحتضن نفسه .. لقد عاش بها أكثر مما عاش بلاها .. انه يحس كأن الموت فى داخله .. ولكنه فجأة وجد نفسه يقفز بعيدا عنها وينظر فى ساعته .. انها السادسة والنصف تماما .. وصاح ينادى ابنه عادل .. وقال له :

- كن مع أمك .. وأبلغ الأهل وابدأ فى اتخاذ الاجراءات .. إلى أن أعود إليك ..

وخرج من البيت ليسير ساعتين على قدميه .. كما تفرض دقائق يومه ..

ووجد نفسه عاجزا عن تركيز كل فكره فى تعداد خطواته .. وأحس بدموع تسقط من عينيه وتنساب على خديه .. ومسح الدموع فى عنف ، إن الدموع تفسد قدرة خلايا وعضلات الجسد عن استجماع حيويتها برياضة السير .. وحاول فى إصرار أن يعيش كل هذه الدقائق فى ممارسة الرياضة كما تعود ..

وعاد إلى البيت وهو يعلم أنه مضطر إلى أن يغير من تنظيم دقائق يومه .. فهو على الأقل سينشغل باعداد جنازة زوجته وترحيلها إلى مثواها الأخير ..

إن كل دقائق ما بقى من عمره أصبحت جديدة عليه بعد أن تركته زوجته وحده ..

تاريخ حياة أحد اللصوص..

الدنيا كلها تشيد وتقدر وتحترم شخصية رجل الأعمال الكبير السيد مدبولى عويس .. وتعتبره أحد دعامات الاقتصاد المصرى .. وأحد زعماء بناء مستقبل مصر .. ويكفى أن يوضع اسمه على مشروع جديد من المشروعات الضخمة حتى يطمئن كل الناس إلى أنه مشروع كتب له أن يتحقق وأن ينجح مادامت تتولاه أصابع السيد مدبولى عويس ..

ولا تتردد بين الناس كلهم أى كلمة تمس احترام السيد مدبولى .. بل أنه بلغ من حرصه على ألا يسير بأعماله إلا فى طريق نظيف .. ولايعتمد ولا يطالب إلا بالحق .. إلى حد أنه لم يعد له أعداء يمكن أن يعرضوه لأى اتهام أو يشوهوا مكانته الرائعة .. كأنه نبى من الأنبياء خصة الله بمسئولية الهداية الاقتصادية لمصر ولايجرؤ أحد على مساسه ولو بكلمة تجرح نبوته ..

حتى أولاده .. انهم لايرون فى أبيهم إلا هذه الصورة الرائعة لنبى يخدم مصر .. ويتباهون ويتفاخرون به وهم مقيدون باحترام كبير له إلى حد خشيته من أن يغضب يوما على واحد منهم .. بل انه مرت الحياة بينهم وكل منهم يحاول أن يقلد والده حتى مع الفارق الكبير بينهم وبينه .. كل منهم يحاول منذ صغره أن يتكلم بنفس اللهجة التى يتكلم بها أبوه .. وكل منهم يدعى إلمامه بالمواضيع والبحوث والاجراءات التى تخصص فيها أبوه .. وكل منهم يسعى

لأن يرتدى نفس الزى الذى يرتديه والده دون أن ينجرفوا إلى الأزياء الجديدة ويرتدون البلوجينز أو القمصان الأسبور .. بل يصر كل منهم على اختيار نفس الطعام الذى يفضله أبوه .. فكلهم يأكلون القلقاس لأن أباهم يفضل القلقاس .. وكلهم لا يأكلون أى صنف من أصناف المكرونة لأن أباهم لا يأكل إلا الأرز ..

ولم يحاول أحد من الناس ولا من الأولاد أن يعرف كيف بدأ السيد مدبولى عويس حياته حتى وصل إلى هذه القمة وإلى كل هذا النجاح .. إن حاضره بلغ من القوة فى فرض نفسه إلى حد أن أغنى الناس عن البحث عن ماضيه .. وحتى ما ينشر أحيانا عن هذا الماضى لم يتجاوز أبدا رواية تاريخ جهاد طويل شريف نظيف ..

إن تاريخ السيد مدبولى أصبح سرا يحتفظ به هو وحده ..

وهو وحده الذى يعرف أنه بدأ حياته واستمر بها طويلا كلص .. حرامى .. وبلغ من انطلاق مواهبه فى اللصوصية أنه لم يكتشف أبدا كلص .. بل يخيل اليه أنه كان يسرق لبن أمه وهى ترضعه .. فقد كانت أمه تعمل مرضعة لابن أحد الأغنياء ، وكان يحس بطبيعته كأنه يسرق لبن ابن هذا الغنى حتى لو كان يدفع ثمنه لأمه .. وكان عندما تراوده هذه الصورة يضحك من نفسه ساخرا .. لماذا يتهم نفسه حتى بسرقة لبن أمه من ثديها .. من أدراه .. إنه مجرد خيال يدفعه إليه غروره واعتزازه بأنه كان لصا لم يضبط أبدا فى أى حادث سرقة .. ولكنه يذكر أنه منذ شب وتفتح وعيه أنه أقام كل حياته على السرقة .. كان يسرق وهو صغير كل ما يمكن أن ترفعه يده إلى فمه ليأكله فى أى بيت أو مكان يوجد فيه .. ثم أصبح يسرق كل ماتمتد له يداه حتى ولو لم يكن فى حاجة اليه .. كان يحس منذ البداية انه أحق من أى إنسان فى أى شىء .. فلماذا يكون لابن أحد الجيران لعبة ولاتكون له .. بل أنه كان يسرق حتى أباه .. لماذا يتباهى أبوه بساعة يملكها رغم أنها ساعة قديمة وهو لايتباهى

بمثلها .. وتطور منذ دخل المدرسة الأولية فاعتمد على سرقة الكتب والكراريس والأقلام .. انه من عائلة فقيرة لاتستطيع أن توفر له كل ما يحتاجه ليثبت شخصيته كتلميذ فى مدرسة .. وهو لم يتم دراسته الابتدائية .. لم تعد عائلته قادرة على الانفاق عليه وألقت به بين عمال أحد مقاولى البناء .. وقد عرف بتفانيه فيما يعهد إليه من عمل .. ولكنه كان أيضا يسرق كل ما يمكن أن تصل اليه يداه .. ثم أصبح رئيسا للعمال فأصبح يسرق العمال أنفسهم .. ورغم ذلك ارتقى إلى أن أصبح مقاول أنفار .. وأصبحت السرقة أسهل .. يكفى أن تتفق مع مقاول البناء على خمسين قرشا لأجر العامل ولا تعطى العامل إلا أربعين قرشا .. وقد مكنته هذه السرقات من ادخار رأسمال صغير استطاع به أن يكون مقاولا لعمليات بناء كاملة ومشروعات ضخمة تقوم على حساب الدولة .. وهو يسرق .. ولم يحدث أبدا أن تعرض لأى حساب على ما يسرقه ..

وهو منذ البداية كان قد توصل إلى وضع القاعدة التى يقوم عليها أى تخطيط للسرقة .. وهو تخطيط يقوم على مبدأ ألا تبدأ بسرقة الشىء بل يجب أن تبدأ بسرقة مالك هذا الشىء أو المسيطر عليه أو حارسه .. بمعنى أن تكسب هذا الحارس إلى جانبك .. وتربطه بنفسك إلى حد أن تضعه فى جيبك .. وبعد هذا يسهل عليك سرقة أى شىء .. وهو يذكر عندما كان فى طفولته أن كان يمر بالحاره عم مرسى وهو يجر عربة كبيرة تحمل عشرات من أنواع الحلوى التى يبيعها لأطفال الحى .. وقد تعمد كلما ظهر عم مرسى أن يقبل على عربته ويبدأ فى تنظيفها بقطعة قماش مبلولة كان قد سرقها من دكان عم شحاته البقال .. ويصل من حرصه على تنظيف العربة أن ينام تحتها وينظف باطنها .. ثم كان يضع نفسه فى خدمة عم مرسى ويلبى كل أوامره .. وقد أحبه عم مرسى ، وأصبح يعتمد عليه حتى أنه يسأل عنه إذا دخل الحارة دون أن يراه .. وكان أحيانا يعطيه فصا واحدا من الحلوى هدية له .. ولكن مدبولى

لم يكن يكتفى بهذه الهدية .. كان يريد دائما أن يأخذ من عربة عم مرسى أضعاف مايأخذه أى طفل من أطفال الحى خصوصا الذين يستطيعون دفع الثمن الأكبر .. لذلك كان يسرق .. وسرقات كثيرة لم يكتشفها عم مرسى ، ولكنه كان عندما يكتشف أى سرقة يتهم كل أولاد الحى ويجرى وراء كل واحد منهم .. ماعدا مدبولى ، ومدبولى مطمئن فهو قبل أن يسرق الحلوى سرق عم مرسى نفسه واكتسب ثقته .. كأنه وضعه فى جيبه ..

كما أنه منذ البداية عرف أنه لايكفى الاعتماد على المسئول الكبير سواء كان وزيرا أو رئيس الدولة نفسه فى الوصول إلى مكاسب أو سرقة .. فان المسئول الكبير محاصر دائما بكثير من العيون المدققة التى تسعى إلى فضحه والتخلص منه .. والاعتماد عليه وحده مستحيل فقد يخاف أو يتردد أو يدعى النزاهة والترفع فى حماية مصالح الدولة .. لذلك يجب أن يكون اعتمادك الأساسى على مجموعة الموظفين التى تمر عليهم أوراق المشروع حتى أصغر موظف .. وهو يعلم أن شركات كبيرة محترمة منزهة حاولت أن تعتمد على مسئولين كبار فى الوصول إلى أن تقع عليها مناقصة مشروع من المشروعات الضخمة فلم تقع عليها المناقصة .. وضاع منها المشروع فى حين أنه وقع فى براثن شركة أخرى سيئة السمعة لمجرد أن هذه الشركة لم تكتف بالاعتماد على كبار المسئولين بل كانت تعتمد أكثر على كل الموظفين الذين تمر أمامهم الأوراق حتى أصغر موظف .. لذلك كان مدبولى حريصا قبل أن يقدم على تحمل مسئولية أى مشروع أن يطمئن على علاقته بصغار الموظفين وتوطيد هذه العلاقة مهما كلفته ميزانية هذا التوطيد .. إن الموظف لايمكن أن يسمع الكلام ويتحرك لتحقيق مشروع يستفيد منه شخص آخر إلا بعد أن يقبض الثمن .. إن الموظف يعلم أن هذا المشروع سيحقق لهذا الشخص الآخر مكسبا يصل إلى الملايين .. فكيف يخرج منه هو بلا مليم واحد .. ولكن مدبولى كان أنصح من أن يدفع الرشاوى مباشرة .. واتبع فى سبيل ذلك كثير من التحايلات وخصوصا بعد أن اتسعت أعماله وفاض به الثراء .. فافتتح عدة دكاكين تبيع

الأقمشة والثياب والأثاث والأطعمة دون أن تحمل اسمه ، أو حتى يعرف أنه المسيطر عليها .. وكان كل موظف يساهم فى وصول أى مشروع إلى دنيا مدبولى يتمتع مباشرة بتخفيضات فى كل ما يشتريه من هذه الدكاكين كأنه يأخذ منها مجانا لوجه الله .. ومن يأخذ كمن يعطى يحتفظ بسر الآخر احتفاظا بسره .. وكان مدبولى أحيانا يدفع الرشوة عن طريق آخر ، وهو أن يعين أبناء هؤلاء الموظفين فى مكاتبه أو يعهد اليهم بمسئوليات فى مشروعاته .. يدفع مرتبات ثابتة لهم وهو واثق أن مرتب أى ابن يصل إلى أبيه الذى سبق وساهم فى تمرير أوراق مشروع من مشروعاته .. وأحيانا كان يلجأ إلى طريق آخر من طرق الرشوة ، وهو أن يعين الموظف نفسه مستشارا له أو لأحد مكاتبه على ألآ يستقيل من عمله إنما فقط يعتبر مستشارا فى أوقات فراغه .. لأن حاجة مدبولى اليه وهو فى وظيفته تستمر أكبر من حاجته إليه كمستشار .. بل أن مدبولى يعلم أن أعماله فى غنى عن كل هذه التعيينات سواء تعيين الأبناء أو الآباء .. ولكنه يدفعها كرشاوى .. وقد كانت رشاوى واسعة شملت مئات من الموظفين بل وعشرات من الصحفيين .. لأن الصحافة لها أيضا دور كبير فى تمرير الأوراق والتأثير فى المزايدات والوصول إلى تحقيق المشروعات .. وكل هذا أحاط مدبولى عويس بتعلق وحب مجموعة كبيرة حتى أصبح كأنه أحد زعماء الشعب .. والمسئولون الكبار كرؤساء الدولة المتعاقبين أو الوزراء يحتفظون له بهذه الزعامة ويؤيدونها لأنهم هم أيضا مرتشون .. ولكن رشوة المسئول الكبير تختلف عن رشوة المسئول الصغير .. فالمسئول الكبير يصر أن يكون نصيبه من النقد الأجنبى ويتسلمه فى أحد البنوك الخارجية .. حتى لايعرض نفسه لاكتشاف الرشوة واثارة الفضيحة ..واستطاع مدبولى أن يوزع مثل هذه الرشاوى ببساطة .. لقد كان يتفق مع الشركة الخارجية التى يستورد منها مطالب المشروع على أن ترفع قيمة المبالغ المتفق عليها لتغطية قيمة الرشوة التى يدفعها للمسئول الكبير .. على أن توضع هذه الزيادة باسم المسئول فى أحد البنوك الأجنبية وبرقم

سرى .. والشركات الأجنبية تتطوع لأداء المهمة فى بساطة ما دامت تضمن تحقيق أرباحها .. ومدبولى نفسه لا يحس بأنه يدفع شيئا من جيبه مادامت كل هذه الرشاوى تسجل فى الميزانية الرسمية التى يقدمها للحكومة وتقبلها وتقوم بتغطية قيمتها . . إن حكومة مصر تسرق نفسها . .

ومدبولى مستمر فى اكتساب أى مشروع يطمع فيه .. وتحقيق مكاسب ضخمة .. حتى أصبح بين يديه ملايين الملايين .. وهو يسرق ومواهبه كسارق تعطيه القدرة على حماية نفسه من أى سارق .. لن يستطع أى واحد تعامل مع مدبولى أن يسرق قرشا واحدا من ميزانية أى مشروع .. وإن كان هو نفسه يترك بعض الرشاوى تبدو لو اكتشفت كأنها سرقات حتى يحمى نفسه من تهمة توزيع الرشاوى ..

إلى أن بدأت تمر بمدبولى مرحلة يحس فيها كأنه أصبح فى حالة شبع .. حالة انتفاخ وتضخم بما جمعه من ثروات .. واشتدت به هذه الحالة إلى أن أصبح لايحاول أن يستولى على أى مشروع يعرض عليه من المشروعات التى تعود الاستيلاء والسيطرة عليها .. ويترك هذه المشروعات لغيره من رجال الأعمال وهو يحس كأنه يجود عليهم بها لأنه أقوى منهم ، وكان يستطيع أن يخص بها نفسه .. انه كريم .. شفوق .. رؤوف .. وقد بدأ يحس بمتعة احساسه بالكرم والشفقة والرأفة .. متعة احساس القوى بأنه يرحم الضعفاء من فرض قوته عليهم .. ثم بدأ يتطور إلى أكثر من ذلك فلم يعد يتعمد السرقة والتلاعب بالميزانيات الخاصة بالمشروعات التى يتحمل مسئولياتها .. انه يدقق فى تفاصيل إقامة أى بناء بحيث لاينقصه كيلو واحد من الأسمنت أو طوبة واحدة من الزلط أو مسمار واحد فى أى ماكينة .. وقد كلفه ذلك متاعب أكثر فى الاشراف على أعماله .. ولكنه بدأ يحس بالزهو كقائد مصرى تغلبه وطنيته على كل مطمع شخصى .. أنه زعيم شريف .. وفى الوقت نفسه بدأ يضغط يديه فى توزيع الرشاوى .. حتى انه أغلق الدكاكين التى أقامها لرشوة

الموظفين أو جعلها تبيع بنفس الثمن لكل الناس .. سواء من كان منهم قد ساهم فى تمرير أوراق مشروعاته أو من كان بعيدا عن هذه المشروعات .. بل أنه بدأ يدقق فى تعيين أى انسان فى احدى شركاته كرشوة له أو لأبيه .. أصبح يشترط أن تكون أعمال الشركة فى حاجة إلى هذا الانسان .. وأن يكون هذا الانسان يحمل شهادات تثبت قدرته على أداء العمل .. انه زعيم نظيف لايدين إلا بمبادىء الحق .. ولكن .. لأنه يعيش واقع رجال الأعمال فقد كان حتى بعد أن تطور إلى هذه الحالة يؤمن بمبدأ العمولة .. أى دفع أتعاب لكل من يساهم بأى مجهود فى أى عمل .. حتى لو قام بهذا المجهود سرا وبأسلوب غير مباشر .. أى بمجرد الواسطة ، ولكننا فى مصر لانعترف بعمل الوسيط الذى يقوم بالواسطة .. ولا بعمل السمسار فى مجال المشروعات الرسمية .. وهذا خطأ عالمى تفرضه ادعاءات بعض النظم الاشتراكية .. ومدبولى لايحاول استغلال هذا الخطأ وظل مقتنعا كرجل أعمال بدفع « العمولة » لمن يخدم مشروعاته حتى لو اعتبرت هذه « العمولة » رسميا كأنها رشوة ..

ولاشك أن هذه المرحلة بدأت تؤثر فى شعبية مدبولى عويس .. وبدأ بعض من فقدوا كرمه فى توزيع الرشاوى يتهمونه بأنه فقد سيطرته على الحكومات .. أو يتهمونه بضياع مشروعاته .. أو يتهمونه بأنه قد ركبته نوبه من البخل أو الجشع فى الاحتفاظ لنفسه بكل أرباحه .. ولم يهتم مدبولى نفسه بكل ما يقال أو بابتعاد بعض من كان له فضل عليهم وانضمامه إلى من يعتبرون منافسين له منافسة تصل إلى حد اعلان العداء .. لم يهتم مدبولى لأنه هو نفسه يعلم مدى احتفاظه بكل قوته وبمدى ضخامة ما يحتفظ به من ثروات .. ولكنه بدأ يفكر ويخطط لمشروع جديد كان قد تجاهله طوال عمره .. وهو مشروع يفرض عليه أن يتزوج .. إنه إلى الآن لم يتزوج رغم انه وصل إلى الخامسة والأربعين من عمره .. لم يكن يخطر على باله أبدا أن يتزوج .. بل إنه لم يكن فى حياته أى امرأة .. ولا حتى امرأة عابرة مما تعود الرجال أن يلصقوا فى داخلهن ما يثير فيهم طبيعتهم كذكور من التفريج

عن بصقاتهم فى وعاء نسوى .. لقد كانت كل عناصر البشرية متجمعة داخل زوايا عقله الذى يعد به بناء مستقبله كرجل أعمال .. لذلك لم يشعر أبدا بحاجته إلى امرأة ، ولا حتى ثارت فى جسده أى رغبة فى التفريج عن ذكورته .. وهو الآن يريد امرأة لا ليفرج بها عن نقص بدأ يحس به فى امتاع رجولته .. ولكنه يريدها زوجه لتلد له أولادا يحملون اسمه .. لمن تذهب كل الملايين من الأموال ان لم يكن له أولاد يرثونها عنه .. واين يذهب اسمه وتستمر مشروعاته وهى تحمل هذا الاسم إن لم يكن له أولاد يستمرون باسمه بعده ..

وبذكائه الذى حقق له النجاح فى كل خطواته نجح ايضا فى اختيار الزوجة التى تشاركه هى هذا النجاح وكل هذا الثراء .. وإن كان منذ اليوم الأول لم يعتبر إنها تشاركه فى أى شىء .. إنها مجرد مشروع جديد لانجاب أولاد يحملون اسمه ، ويستمرون بالحياة لمجده من بعده ..

وقد أحس عندما كان أول ما انجبته زوجته بنتا وليس ولدا كأن المشروع بدأ باقامة الأعمدة الجانبية قبل أن يبدأ باقامة الأعمدة الرئيسية .. كأن المالك بدأ باقامة ، الجاراج ، الذى يضع فيه سيارته قبل أن يبدأ باقامة دور السكن التى يعيش فيها .. والبنات ، جاراجات ، يملكها الأب ولكنه لايقيم فيها ولاتحمل اسمه إلى الأبد فمصيرهن حمل أسماء أزواجهن والانتساب إلى هؤلاء الغرباء .. ورغم ذلك فهو يحمد الله وبدأت تنتابه نوبة التوسل اليه بالتمادى فى أداء الصلاة كأنه يرسل اليه مقدما ، العمولة ، على استجابته له وتحقيق مشروع انجاب أبناء من الأولاد .. وكأن الله يستجيب لدعواته فعلا رغم كل ماضيه الملوث بالسرقات ، فقد أنجبت له زوجته بعد البنت ولدا فرح به فرحة كبيرة .. كأنه كسب مناقصة فى مشروع كبير عاش يتمناه ويسعى اليه .. وأسماه محمدا .. على اسم النبى صلى الله عليه وسلم .. أقام فى الدنيا مشروع انجاب محمد مدبولى عويس ليستمر من بعده فى أداء رسالة خدمة عباد الله بتوفير ما تطلبه الحياة من مشروعات .. ثم أنجبت له زوجته ابنا آخر .. عبد الله مدبولى عويس .. وأسماه عبد الله لأنه أصبح مؤمنا بأنه هو

نفسه عبداً لله .. فالله هو الذى أعطاه كل هذا النجاح والثراء الذى حققه .. لم يعد مغرورا إلى حد أن ينسب كل هذا النجاح والثراء إلى ذكائه وشطارته .. ولكنه ينسبه إلى فضل الله عليه .. حتى ذكاؤه وشطارته لم يكونا إلا من فضل الله ..

وبدأ يعيش كل أيام عمره وهو يخطط لمستقبل ولديه محمد وعبد الله .. ويحاول أن يكتشف مدى ذكاء كل منهما وطبيعة شخصيته حتى يقسم بينهما مسئولية حمل وتحقيق استمرار نجاح ما سيتركه لهما .. وكان خلال استعراض ما يملكه يرى صورا للسرقات التى كان يرتكبها .. والاختلاسات .. والرشاوى .. والتزييفات .. وينقبض صدره كأنه يخشى على ولديه من أن يصيبهما رزاز من هذه الآثام .. وقد يضطر أحدهما إلى أن يرتكب مثل هذه الجرائم حتى يحقق نجاحه .. ولكن لا .. مستحيل .. فهو كان يضطر إلى السرقة لأنه بدأ فقيرا .. كان فقره يدفعه إلى التحايل فى خداع المتعاملين معه حتى يغتنى .. ولكن ولديه محمدا وعبد الله ولدا أغنياء .. وليسا فى حاجة إلى الخداع أو السرقة حتى يأخذا .. فهما يملكان ما يكفى ثمنا لأخذ أى شىء .. أنهما سيكونان صورة مشرفة لطهارة أبناء مصر .. صورة تؤكد أن القوة يمكن أن تكون قوة نظيفة .. وأن المجد يمكن أن يكون مجدا طاهرا ..

وبدأ فى مراقبة ولديه فصدمه .. انهما دائما فى عراك مستمر كل منهما يحاول أن يأخذ من الآخر .. حتى قيل إليه أن الأخ الأكبر يحاول سرقة نصيب أخيه الأصغر وهو يرضع من لبن أمه .. كما كان هو يتعمد سرقة لبن أمه عندما تأخذه معها لارضاع ابن الرجل الغنى .. وكان يصرخ ويبكى ويقيم ضجيجا مقلقا كلما استحال عليه الوصول إلى ثدى أمه .. هكذا كانت تقول له أمه بعد أن شب فى عمره .. إن كلا من ولديه مثله لايطيق أى منهما أن يأخذ أحد شيئا أكثر منه ..

ثم بدأت تصدمه حوادث غريبة بعد أن شب الولدان وأصبحا فى سن الصبا .. من بينها أنه كان يحتفظ بساعة مذهبة أنيقة ثمينة يعلقها فى جيب

سترته عندما يخرج ويضعها على مكتبه قبل أن ينام .. وفجأة اختفت هذه الساعة .. وأجرى تحقيقا مع كل العاملين فى البيت ، ولكنه لم يستطع أن يصل إلى شىء .. بل أنه شك فى أمانة أحدهم وأكتفى بأن طرده من العمل دون أن يبلغ البوليس ، فقد كان يرى أن ليس من الاحترام أن يعرض سمعة بيته إلى مثل هذه الأحداث وإلى حد تدخل البوليس .. إلى أن دخل يوما إلى غرفة ولديه فوجد الأبن الأكبر محمد جالسا وبين يديه الساعة الأنيقة الثمينة .. وصرخ بأعلى صوته :

أنت الذى سرقت الساعة ..

ولم يهتز ابنه محمد وقال وهو يفتعل ابتسامة الابن المدلل :

إنى لم أسرقها .. إنها ساعة أبى .. وقد كانت هذه الساعة فى البيت ولاتزال فى البيت ..

وأعجب مدبولى باجابة ابنه محمد التى يصد بها اتهامه .. انه مثله يمتاز بعبقرية النائى بنفسه عن أى اتهام .. ورغم النقاش الحاد الذى استمر بينه وبين أبيه الا انه لم يفرض عليه أى عقاب وانما اكتفى بأن صب عليه مجموعة من النصائح ثم أخذ الساعة الثمينة منه .. وبعد أيام ناداه وأعادها إليه قائلا وهو يضمه اليه بابتسامته :

خذها مادمت تريدها .. وكما قلت .. انها فى البيت ..

ورفض الأبن أن يأخذ الساعة كأنه لايحس بقيمتها إلا إذا سرقها ..

وحادث آخر .. فقد كان مدبولى يحتفظ بعدد من الجنيهات قد تصل إلى الألف فى درج مكتبه كمصروف عاجل قد يحتاج اليه .. وفى يوم اكتشف اختفاء ثلثمائة جنيه من المبلغ الذى يحتفظ به .. ولم يستمر شكه فى العاملين بالبيت طويلا واتجه إلى غرفة ولديه ، وأخذ يفتش فى الأدراج وفى جيوب

البدل المعلقة إلى أن وجد المبلغ كاملا فى جيب من جيوب بنطلون ابنه عبد الله .. وصرخ فيه :

لقد عودتك أنت وأخاك أن ألبى لكما كل ما تطلبانه .. وقد كنت تستطيع أن تطلب فأعطيك .. وقال عبد الله فى تمايل الأبن المدلل :

- لم أكن أريد أن أزعجك بأن أطلب ..

وصرخ الأب :

- فأزعجتنى بالسرقة ..

وقال عبد الله كأنه يلوم أباه :

- أنا لم أسرق .. لقد أخذت حقا عودتنى على أخذه ..

وأعجب مدبولى بدفاع ابنه عن نفسه .. إنه هو الآخر ورث عنه عبقرية النائى بنفسه عن أى اتهام .. ولكنه لايريد الاعتراف بهذا الاعجاب فرفع الجنيهات فى يده وقذف بها فى وجه ابنه عبد الله وهو يصيح :

- إن الحق يجب أن يعترف به أولا من يعطيه ..

وكما فعل أخوه جمع عبد الله الجنيهات وأعادها إلى أبيه .. لقد فقدت هذه الجنيهات طعم السرقة وهو لايريدها إلا مسروقة ..

وكان مدبولى قد قرر بينه وبين نفسه ألا يشترى سيارة لكل من ولديه إلا بعد أن يدخل كل منهما للدراسة فى الجامعة .. أما وهما لايزالان فى المدارس الثانوية فيكفيهما الاعتماد على سيارات العائلة .. ولكنه فوجىء بابنه محمد وقد أمتلك سيارة لم يشتريها له وهو لايزال طالبا فى المدرسة الثانوية .. وان كانت سيارة قديمة ليست من قيمة ابن مدبولى عويس .. وسأل ابنه :

- من أين حصلت على هذه السيارة ..

وقال الأبن فى منتهى السعادة كأنه يتباهى بنفسه :

- اشتريتها من زميل لى فى المدرسة اسمه شريف .. وقد كان فى حالة صعبة لأنه كان يلعب القمار وخرج مدينا بمائة جنيه .. ولم يكن يملك شيئا ، وخاف من أن يضرب علقة من الذين كسبوه .. فأعطيته المائة جنيه على أن أشترى منه سيارته نظير خمسمائة جنيه أدفعها له بالتقسيط ..

وقال الأب فى حسرة :

- لقد استغللت ضعفه .. وكان يجب أن تعطيه المائة جنية باسم الصداقة إلى أن يردها لك ..

- وقال الابن مزهوا :

- لقد سبقت غيرى فى استغلاله .. وماهى الحياة .. إنها استغلال كل قادر لكل ضعيف من غير القادرين .. إنها كمباريات كرة القدم .. القادر يحصل على الجول من غير القادر .. وقد كسبت الجول بهذه السيارة ..

- وقال الأب فى حسرة على ابنه :

- ومن أين حصلت على المائة جنيه ؟

وقال الأبن فى بساطة :

- منك .. لقد أعطيتنى مائة جنيه لأشترى كتب المدرسة .. فاشتريت بها السيارة وأريد الآن مائة أخرى للكتب ..

وفى استسلام أعطاه مايريد ..

ولم يكن الولدان من هواة الدراسة .. لم يقتنعا أبدا بأنهما يدرسان شيئا هما

فى حاجة اليه .. ورغم ذلك حصلا على الشهادة الثانوية بمشقة وبعد سنوات طويلة تكرر فيها رسوبهما فى الامتحانات .. وكانت كل أمنية أبيهما أن يلتحقا بكلية الهندسة حتى يتزودا بالعلم الذى يعينهما على إدارة شركاته .. وقد أضطر إلى السعى لدى المسئولين حتى يعفوهما من شرط مجموع الدرجات .. فكلاهما لم يصل إلى توفير المجموع الذى يؤهلهما للالتحاق بكلية الهندسة .. ولم يكن مدبولى يحس بأنه يرتكب اثما بالسعى لولديه .. ولا أنه يستغل نفوذه فى الاعتداء على الحق .. ولكنه غير مؤمن بهذا الشرط الذى تفرضه الحكومات للالتحاق بالكليات الجامعية .. إن الطالب قد لايحصل على المجموع المطلوب ، ولكنه يعتبر عبقريا فى المادة التى تتخصص كل كلية فى دراستها .. وهو نفسه لم يلتحق بكلية الهندسة ولا حتى بدأ الدراسة الثانوية ولكن لاشك أن عبقريته قد أثبتت أنه أقدر وأوسع علما فى إدارة وتحقيق كل هذه المشروعات .. وقد استطاع فعلا الحاق ولديه بكلية الهندسة ولكنهما لم يبديا تعلقا بالدراسة فى هذه الكلية .. إنهما يريدان أن يضعهما أبوهما ليمارسا العمل معه .. كأنهما يريدان أن ينطلق العلم من قدرتهما على استنباط فن الحياة نفسها .. إن الخلفاء الراشدين لم يدخلا مدارس إنما استطاعوا استيعاب العلم من ممارسة الحياة .. وقد بدأ أبوهما « مدبولى » فى تشغيلهما فعلا داخل شركاته .. وبدأ يقتنع بأنهما مثله يصلان إلى عبقرية العلم عن طريق الممارسة لا عن طريق الدراسة وخصوصا الدراسات السطحية التى تعم كليات الجامعة الحكومية .. وبعد فترة اكتشف أنهما أخذا مشروعا لحسابهما خارج الشركة .. وإن كان مشروعا لايتجاوز مد طريق قصير لايتجاوز طوله وعرضه عدة أمتار .. وسألهما عن قيمة ما حققاه من أرباح فى هذا المشروع فقال عبد الله أنهما خرجا بربح صاف قيمته ثلثمائة جنيه .. فقال ساخرا :

- لو كان المشروع قد تم عن طريق الشركة لوصلت أرباحه إلى ثلاثة آلاف ..

وقال ابنه محمد فى ثقة تنبض بنكاته :

- إننا فى البداية وأردنا أن نطمئن الزبون حتى نكتسب مزيدا من الزبائن ..

وفهم مدبولى انهما تعمدا ألاّ يسرقا أو يتلاعبا فى المشروع .. إنه هو نفسه لم يحاول أن يسرق عندما كان فى البداية .. بل كان يتعمد الحد من مطامعه فى تحقيق أرباح خاصة حتى يتمكن من جذب الزبائن من رجال الأعمال الذين سبقوه .. وتمنى لولديه أن يظلا محتفظين بالمبادىء الشريفة التى تفرضها البداية حتى يصلا إلى نهاية القمة ..

وقد استطاع ولداه محمد وعبد الله أن يكتسبا فعلا ثقة وتهافت المسئولين عن تحقيق المشروعات .. خصوصا المشروعات الحكومية .. ولكنهما عدلا عن أن يستقلا بنفسيهما .. أصبحت أعمالهما قائمة على اسم شركات أبيهما .. إنه اسم لايزال قويا .. اسم مدبولى عويس .. وقد ترك لهما كل حرية التصرف فى إدارة الشركات ، ولكنه كان يراجع أحيانا أرقام الميزانية التى يضعونها لكل مشروع .. وقد يذهب بنفسه الى موضع العمل ليتأكد بنفسه من استكمال كل المتطلبات .. واكتشف أن ولديه أصبحا من كبار اللصوص .. كل الأرقام وكل المواد مغشوشة وكلها تفتح مجالات الغش الذى يحقق السرقات .. وقد حاول أن يدخل مع ولديه فى مناقشات ليهديهما إلى الأمانة فى القيام بالعمل .. إن أموال الحكومة التى يسرقانها هى أموال الشعب .. إنهما يسرقان دافعى الضرائب التى تجمعها الحكومة .. يسرقان الفقراء .. ولكن هذه المناقشات لم تكن تنتهى إلى شىء .. كانا يتقبلانها كأنها تخريف رجل عجوز فقد القدرة على مواجهة واقع تحقيق المشروعات الحكومية ..

واستسلم مدبولى إلى الاعتراف بأنه أنجب لصين رغم أنه أحاطهما بثراء يغنيهما عن السرقة .. إن اللص لايسرق دائما بدافع الحاجة إلى السرقة .. اللصوصية ليست مقصورة على سرقة الجائع لرغيف العيش .. ولكنه قد

يسرق لأن من طبيعته السرقة حتى لو لم يكن فى حاجة إلى ما يسرقه .. ربما ورث ولداه هذه الطبيعة عنه .. فهو قد كان أيضا لصا .. ولكن لا .. إن طبيعة السرقة لا تتكون بالارث ولكن تنطلق من طبيعة المجتمع نفسه .. هناك مجتمعات تقوم على التعامل بالسرقة بين أفرادها .. كل من أفراد هذا المجتمع لص .. مع الفارق الطبقى بين اللصوص .. هناك من يتعود على سرقة القروش ، وهناك من لايسرق إلا الجنيهات .. والمجتمع المصرى هو واحد من هذه المجتمعات .. مجتمع يقوم تكوينه وتفكيره على الاعتراف بالسرقة .. وكثير من قادة هذا المجتمع بدأوا كلصوص ، ولايزالون لصوصا رغم أن ما سبق أن سرقوه كان يكفى لإعلان توبتهم ..

وترك مدبولى حرية السرقة لولديه .. كما بدأها هو فى شبابه ووصل بها إلى قمة الثراء .. وبدأت تخطر على باله تخطيطات جديدة يمكن أن يصل بها إلى رضاء الله ويستغفره بها عما ارتكبه من آثام .. وولداه ليس فى حاجة إلى رؤوس الأموال الضخمة التى جمعها وتركها تحت إدارتهما .. إنهما يستطيعان تعويض أى مبلغ يضيع منهما .. ولذلك قرر تخصيص مبلغ كبير من رأسمال شركاته لإقامة جامع .. واعترض ولداه بحدة ، ولكنه صمم فهو لايزال صاحب الحق فى التصرف برأس المال .. واشترى قطعة أرض غالية جدا .. وبدأ يقيم بها جامعا رائعا جدا وضخما جدا ، وألحق به مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وأضاف إليه صيدلية تبيع الأدوية للأهالى بسعر مخفض أقل من التكاليف .. وكان هو بنفسه الذى تولى تحقيق هذا المشروع .. وكان يتحمل على نفسه ويمد سلطاته إلى كل التفاصيل .. أنه لايريد أن يترك قرشا واحدا يصرف فى الحرام .. ولايريد ذرة واحدة مغشوشة .. إنه مشروع يحاول أن يصل به إلى الله .. والله لايقبل منه الحرام ..

وأكتمل بناء الجامع الرائع .. ومدبولى يكاد يقضى فى جنباته طوال يومه يصلى مستغفرا ربه .. ورغم أن المشروع عرف واشتهر وترددت كلمات

الإشادة بفضل مدبولى عويس .. إلا أن المصلين لم يصلوا إلى حد الزحام الذى تشهده مجموعة البوتيكات ومجمعات البقالة التى أفتتحها ولداه برأس مال الشركة .. إن الناس تمر على الجامع كأنه شاهد على العز والثراء الذى يملكه مدبولى .. وينبهرون بروعته ، ولكنهم فى الوقت نفسه يطقون بالغيظ والحقد على مدبولى الذى يملك كل هذا الثراء .. ولكنهم يمرون بالبوتيكات والمجمعات ، فيدخلون ويشترون حتى يتباهوا بأنهم يستطيعون الشراء مهما ارتفع الثمن ..

وضياع وحيرة مدبولى فى محاولات التقرب إلى الله دفعته إلى أداء فريضة الحج .. إنه يحاول أن يدفع كل ما نص عليه الله من ثمن حتى يرحمه ويعفيه من الإلقاء به فى نار جهنم الآخرة .. وكان يفيض بتبرعاته وهو يؤدى الفريضة .. ثم عاد الحاج مدبولى إلى مصر وفى رأسه مشروع جديد يتقرب به أكثر إلى الله .. مشروع إقامة مستشفى ضخم فى القاهرة يستقبل المرضى مجانا .. ويزوده بأرقى وأحدث المعدات .. ويعالج فيه المرضى مجانا إلى أن يتم لهم الشفاء .. إنه مشروع يتطلب الملايين من الجنيهات .. وربما استنزف كل مافى شركات الحاج مدبولى من عملات أجنبية .. ولكن ماذا يهم .. من الأجدى عليه أن يترك هذه الملايين فى خدمة الله .. وولداه قادران على جمع ما يطمعان فيه ..

وكان الحاج مدبولى قد قرر أن يتولى إقامة مشروع المستشفى بنفسه .. كما سبق أن أقام المسجد .. ولكن محمد وعبد الله تظاهرا بفرحتهما واقتناعهما بهذا المشروع وطلبا من أبيهما أن يعتمد عليهما ويتركهما مسئولين عن التنفيذ .. وأن الشركة هى التى تتولى التنفيذ وهما الآن اللذان يتوليان إدارة الشركة .. ومن حقهما إدارة حتى المشروعات الخيرية .. ووافق الحاج مدبولى حبا فى ولديه ، وكأنه يحاول تأكيد الثقة بهما .. ولكنه اشترط أن يراجع أوراق المشروع وقوائم الميزانيات .. وعندما بدأ يراجع ابتسم بينه

وبين نفسه فى حسرة .. إنهما يسرقان .. وهما يسرقان حتى نفسيهما .. فلم يقدرا أن رأس مال المشروع هو رأس مال الشركة التى يرثانها عنه .. فيسرقان منه أيضا ..

ومات الحاج مدبولى قبل أن يتم إقامة مشروع المستشفى الشعبى الخيرى ..

وبسرعة أنقلب ما كان قد تم بناؤه للمستشفى إلى عمارة سكنية هائلة رائعة .. والعمارات لايمكن أن تقام كمشروعات خيرية ..

وعندما سئل محمد مدبولى عويس عن سبب عدوله عن اتمام مشروع المستشفى الذى كان أبوه ينوى إقامته ..

أجاب فى لهجة ساخرة :

- إن الناس فى حاجة إلى عمارات سكنية أكثر من حاجتهم إلى مستشفى .. ولكن أبى كان قد أصبح عجوزا وكل فكره محصور فى أوهام لا علاقة لها بالواقع الذى يعيشه الناس ..

إبنتي لا زوجتي..

لقد بدأ ممدوح رجب وهو لا يستجيب إلا لما يمليه عليه عقله .. وعقله محصور فى بناء شخصيته وتحقيق المستقبل الذى يحلم به .. وهو رجل يعتبر وسيما جذابا لأى امرأة .. ويختص بقدرة هائلة على اختيار الموضوع الذى يتكلم فيه بحيث يقنع كل من يستمع اليه .. ربما كان يستطيع أن يقنع أى امرأة بأى شيء يريده منها .. ولكنه لم يكن يعيش وسامته أو يحس بها ويحاول أن يستغلها .. ولم يحاول أن يبذل مجهودا ليقنع أى امرأة بأى شيء .. لم يكن من طبيعته أن يسعى الى امرأة .. كان عقله يرسم له ويحدد مسعاه إلى شيء واحد وهو بناء الشخصية التى يريدها .. وهو يريد شخصية ناجحة قوية ثرية لها قيمة ولها نفوذ فى أى مجال تعيش فيه ..

وكان قد أقام أسس هذه الشخصية عندما بدأ يفكر فى الزواج .. وهو يتزوج لأنه أحس بحاجته إلى الزواج ليستكمل بناء هذه الشخصية .. وقد بدأ البحث عن زوجة بالوسيلة العادية التى تحكم العقل وحده .. لم تكن له قصة حب تدفعه إلى الزواج .. ولم تبهره امرأة إلى حد أن يتمنى زواجها .. إنما بدأ يختبر من يرشحها له الأقارب والأصدقاء . . . وهو لا يريدها من عائلة أكبر ولا أقوى من عائلته ولا يريدها أن يحيط بها ثراء يفوق ثراءه .. إنه يريدها فى نفس مستواه .. حتى يسهل التفاهم بينه وبينها فى الاستمرار بالحياة .. هكذا يقنعه عقله .. وقد أقتنع أخيرا بالزواج من [illegible]

وقد عاش حياة زوجية وكل ما فيها سليم .. وليس فيها ما يمكن أن يغتصب منه أيامه .. أو يأخذ فكره بعيدا عن استكمال بناء شخصيته .. وقد أصبحت شخصية فى منتهى القوة ومنتهى الثراء .. شخصية الرئيس والمتحكم فى أى مسئولية يتولاها .. وأيامه مع زوجته كلها أيام هادئة تكاد تكون صامتة .. كل يوم له برنامج لا يتغير .. يجلس معها على مائدة الافطار فى الساعة السابعة صباحا .. وعلى الغداء فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. وعلى العشاء فى الساعة العاشرة .. وحتى الفراش أصبح يجمعهما فى روتين منظم .. كل مساء يوم الاثنين والخميس يحتضنها ويقضيا ساعة وكل منهما يشبع متعته مع الآخر .. يشبعها فى احترام لنفسه .. شبع مهذب ..

وقد أنجب بنتين .. سلوى ونيفين .. وكان عقله قد أوصاه بألا ينجب أكثر من اثنين .. ولكنه بعد خمس سنوات لم يستطع أن يقاوم أمله فى أن ينجب ولدا .. ولم يحاول اقناع زوجته أمينة فهى مقتنعة منذ البداية وكانت تريد أن تستمر فى الانجاب حتى يرزقها الله بولد .. وحملت .. ولكنها أنجبت بنتا ثالثة .. كريمة .. وقد استقبلها فى مرارة خيبة الأمل .. إنه ليس فى حاجة إلى بنت ثالثة .. وقد تعود ألا يعيش إلا ما يختاره وما هو فى حاجة إليه .. ولكن لم تمر شهور إلا ووجد نفسه متعلقا بكريمة ربما أكثر من تعلقه بسلوى ونيفين .. إنها الأقرب شبها إليه .. عيناها عيناه .. وشفتاها شفتاه .. وأنفها أنفه .. وربما بدأ ذكاؤها يبرق وهى لا تزال ترضع .. فقد أخذت عنه أيضا ذكاءه .. وقد أخذ تعلقه بابنته الصغرى يطغى على كل حياته العائلية حتى أصبحت أختاها تغاران من تعلقه بها . .

وكانت قد مرت خمسة عشر عاما على زواجه عندما بدأ يحس بالزهق من كل ما فى هذه الحياة التى رسم وفرض كل ساعة فيها .. إن حياته تسير كدقات الساعة .. إنها ساعة مضبوطة بدقة ، ودقاتها أصبحت تتوالى فى روتين ممل .. حتى تعلقه بابنته الصغرى كريمة أصبح كدقات الساعة المضبوطة .

تدق بقبلاتها فى ساعة معينة . . وتدق بمحاورتها وملاعبتها فى ساعة معينة .. وحتى نجاحه فى عمله .. أصبح واقعا مستمرا على أسلوب محدد كدقات الساعة .. من يستطيع أن يعيش عمره كله كدقات الساعة .. ووجد نفسه يحاول أن يدخل فى حياته لحظات يستريح خلالها من دقات الساعة ..

وبدأ يحاول أن يعود نفسه على الجلوس فى المقاهى والنوادى .. إنه طوال عمره لم يكن يحاول أن يقضى ولو دقيقة فى مقهى أو فى ناد لمجرد قضاء الوقت بين مجموعة من الناس يعزفون الأحاديث المتبادلة كموسيقى تافهة تشغل خواطرهم .. بل إنه كان يحتقر كل النوادى ويحتقر المترددين عليها .. إنهم كلهم مخلوقات فارغة .. ولكنه قاوم نفسه وبدأ يتردد على مقاهى نادى السيارات .. ونادى محمد على .. ثم انتقل إلى نادى الجزيرة .. ولكنه لم يستطع أن يستمر .. إن جلسته فارغة تثير فيه الإحساس أكثر بالفراغ وبالزهق .. بل إنه لم يجد بين زبائن هذه المقاهى والنوادى إلا عواجيز احيلوا ، أو أحالوا أنفسهم على المعاش .. أو أبناء ورثوا آباءهم وأصبحوا يعيشون على الإرث دون أن يعملوا لأى بناء جديد .. ان كل هذه المقاهى والنوادى هى بؤر الفراغ .. وهو لا يستطيع أن يعيش ولو دقائق فى فراغ ..

وحاول أن يجرب أن يشغل نفسه بإحدى الألعاب الرياضية .. إنه لم يحاول أبدا أن يلعب أى لعبة .. إنه لا يمكن أن يضيع دقيقة من عمره فى اللعب .. وحتى الألعاب السهلة كالسير على القدمين ربما كان لا يحتاج اليها إلا العواجيز وهو ليس عجوزا .. إنه لا يزال فى زهوة رجولته وقوته ..

وحاول أن يشغل نفسه بهواية لعب الطاولة .. أو الكوتشينة .. إن كثيرا ممن يعرفهم يلعبون مثل هذه الألعاب .. ومن السهل عليه أن يكشف أسرار كل لعبة .. بل ويصل إلى أن يجيد اللعب فيها .. ولكنه لم يحتمل ضجيج الطاولة .. ولم يحتمل الصبر الطويل الذى يفرضه الشطرنج .. وقد احتمل

الكوتشينة أياما ووصل إلى حد أن بدأ يجازف بلعب القمار .. ولكن الكوتشينة مهما تطلبت من ذكاء فهى تعتمد أساسا على الحظ .. وهو قد عاش مؤمنا بذكائه ولا يفكر فى الحظ .. لذلك لم يحتمل أيضا لعب الكوتشينة . .

وكان وهو يحاول التخلص من زهقه حريصا كل الحرص على ألا يمس أى دقيقة من الدقائق التى تشمل النظام الروتينى الذى وضعه لحياته فى عمله وحياته العائلية .. إنه كالعادة يتناول إفطاره مع زوجته وبناته فى السابعة صباحا .. ويخرج إلى مكتبه ليتفرغ إلى عمله ، ويعود إلى تناول الغداء فى الساعة الثالثة .. وكان يعود إلى مكتبه فى الخامسة مساء ليعود إلى زوجته فى التاسعة ، إما لتناول العشاء معها فى العاشرة أو ليصحبها إلى دعوة أو إلى قضاء سهرة فى الخارج .. كل ما حدث له من تغيير هو أنه أصبح بعد أن يكون فى مكتبه سواء فى الصباح أو المساء ألا يبقى فيه طويلا ويخرج منه ساعات محاولا استعمال إحدى تجاربه فى التغلب على الزهق .. ويتوقف عن المحاولة فى نفس الساعة التى يحددها النظام للعودة إلى البيت .. وقد فشلت كل محاولات التخفيف من زهقه وبدأ يعود نفسه على الاستسلام لهذا الزهق . .

إلى أن كان مدعوا ذات مساء هو وزوجته لتناول العشاء عند عبدالرحمن مرزوق .. وهو رجل أعمال ناجح ، ولا يزال فى نضرة رجولته .. وزوجته سميرة شابة لم تكن فى منتهى الجمال ، ولكنها استطاعت أن تجذب المجتمع كله بنشاطها وذكائها وخفتها فى اجتذاب كل من يهمها اجتذابه .. ولم يكن عبدالرحمن مرزوق صديقا حميما له .. انهما لم يتعارفا إلا فى مجال العمل .. وهذه هى أول مرة يدعوه فيها إلى إحدى السهرات التى يقيمها فى بيته .. ومن عادة ممدوح كلما كان مدعوا ان يفترض مسبقا من سيكون مدعوا معه .. ويختار مقدما من يهتم بقضاء السهرة معه .. بل ويعد الموضوعات التى سيثيرها ويتكلم فيها خلال الدعوة . . وقد وصل إلى الدعوة وهو يكاد يعرف

مقدماً تفاصيل الساعات التى سيقضيها فيها .. وقد استقبله عبدالرحمن مرزوق بترحاب .. ولكن زوجته سميرة استقبلته بترحاب أكبر .. كأنها تطير فرحا به .. ولعل الترحاب الذى استقبلته به أسخى وأكثر انطلاقا من الترحاب الذى استقبلت به زوجته أمينة .. وقد وجدها بعد دخوله جالسة بجانبه بينما جلست زوجته فى ناحية أخرى بين بعض المدعوين كما تقضى التقاليد الاجتماعية .. وفى لحظة وجد نفسه فى حديث طويل معها .. حديث لا ينتهى .. ونسى ما كان قد أعده لاختيار من يتحدث اليه .. وتفرغ كله لها .. إن حديثهما يطوف فى كل المجالات كأنهما يرسمان به قطعا من السحاب تطوف بالسماء.. ولم يكن فيه أى كلمة فى مجال العمل .. إنه حديث يجمع اثنين كأنهما وحدهما فى الدنيا كلها .. وتمر بهما ضحكات .. وتمر بهما لحظات جادة .. ويمر بهما الأمل .. ويمر بهما اليأس .. وكانت تتنبه فترة إلى مسئولياتها كصاحبة الحفل فتقوم من جانبه كأنها تنتشل نفسها من براثنه وتطوف بين بقية المدعوين ولكنها لا تلبث أن تعود اليه وتلقى نفسها بجانبه .. ويعود الحديث المنطلق .. ولم يتوقف بينهما الكلام حتى عندما اجتمعا حول المائدة لتناول طعام العشاء .. إنها كانت أيضا تجلس بجانبه وكأن لا شىء يمكن أن يشبعهما إلا ما يزود به كل منهما الآخر من كلام .. وعندما بدأت نهاية السهرة قال لها :

ـ لا أريد أن ينتهى حديثنا ..

قالت فى بساطة :

ـ سأحادثك فى التليفون لعلنا نجد له نهاية ..

وبسرعة نطق برقم تليفونه الخاص .. وهو الرقم الذى لم يكن يجود به إلا وهو فى قمة صفقة من صفقاته . . وكرر ذكر الرقم حتى تأكد من أنها حفظته .. وربما كانت قد سجلته فى ذاكرتها منذ نطق به .. وزاد بأن أوصاها أن تحادثه فى الساعة الحادية عشرة .. كأنه يعد لعملية كبيرة كل حركة فيها لها موعد ..

وعاد إلى بيته وابتسامته لا تفارق شفتيه .. انه يبتسم لسميرة .. حتى وهو راقد بجانب زوجته على الفراش ، لم تفارق الابتسامة شفتيه ..

وحادثته فى التليفون .. ثم أصبح فى انتظار رنين التليفون كل صباح وكل مساء .. ووصلا إلى أن التليفون لم يعد يكفى واتفقا على لقاء .. أين يلتقى بها .. وفكر طويلا وتردد كثيرا إلى أن انتهى بأن استأجر شقة مفروشة فى حى مزدحم لا يشغل اهتمام الناس بمن يدخل ومن يخرج منها .. وتعدد لقاؤهما فى الشقة .. وكان دائما لقاء فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، أو فى السادسة مساء ، فلا يتسبب فى أى خلل بالنظام الذى وضعه لأيامه مع عائلته ..

والمهم أنه تغلب على الزهق الذى كان يحس به .. الزهق من كل حياته حتى لو كانت حياة ناجحة .. وقد اكتشف السر الذى مكنه من التخلص من هذا الزهق .. وهو سر لم يكن يحسب حسابه أبدا من قبل .. إن السر هو أنه رجل وسيم ومحدث لبق يستطيع أن يشد بحديثه كل من يريد أن يستولى عليه .. ثم أنه رجل ناجح نجاحا مغريا لأن يستسلم له كل انسان .. أى كل امرأة .. ولكن .. مع الأيام .. لم تعد سميرة قادرة على أن تحرره من كل زهقه .. إنها لا تلقاه فى الشقة المفروشة إلا كل أسبوعين مرة ، وأحيانا يمضى شهر دون أن تلقاه معتذرة بواجباتها الزوجية .. وهو لا يجد فيها ما يشبع زهقه إلا هذا اللقاء .. بل لا يربطه بها إلا لقاء الشقة المفروشة .. ولكن .. إنه يحبها .. وابتسم ساخرا .. إنه حب يعيش لحظات لا يستمر أكثر منها ولا يجدده إلا إذا عاد يعيش هذه اللحظات .. ووجد نفسه يبحث عن نساء أخريات يملأن له الفراغ الذى تتركه فيه سميرة .. وهو قد انطلقت فيه موهبة جديدة لم يكن هو يحس بها أو يحتاج اليها .. موهبة اجتذاب من يريد إلى الشقة المفروشة .. اجتذاب كل أنواع النساء .. المتزوجات والمطلقات والعذارى .. وان كان يطمئن أكثر إلى تبادل اللحظات مع المتزوجات .. إنهن لا يشغلنه بحديث المستقبل الذى ينتهى بالزواج .. فلا يضطر الى الكذب عليهن أو

التخلص منهن .. فهو مع كل هذا لا يخطر على باله أبدا أن يتزوج من أى امرأة أخرى غير التى تزوجها . .

وكان دائما حريصا على ألا يمس النظام الذى وضعه لحياته العائلية وعلاقته بزوجته .. إنه يأخذ من الساعات المخصصة لعمله .وجوده فى المكتب .. ولا يأخذ شيئا من الساعات المخصصة لعائلته وزوجته .. ولعل هناك تقاليد عائلية قد تغيرت .. فلم يعد مثلا يأخذ زوجته بين ذراعيه كل يوم اثنين وكل يوم خميس .. أصبح لا يأخذها إلا كل يوم خميس .. ثم بدأ بلا تعمد لا يأخذها إلا كل شهر مرة أو ربما أكثر دون أن يحس بأنه أهمل شيئا .. إنه تطور بحكم العادة نتيجة مرور العمر .. إن التطور خصوصا فى العلاقات الجنسية يضعف الشهوة .. إنه لم يعد يحس بجسد زوجته كأنه جسد غريب عنه يثير شهوته .. إنه يحس به كأنه تكملة لجسده هو .. كأنهما قد أصبحا جسدا واحدا .. وقد أصبح يبذل جهدا متعمدا يضغط به على أعصابه حتى تتفتح أحاسيسه الجنسية ويقبل على مضاجعتها . .

وقد بدأ المجتمع يتحدث عن مغامراته النسائية .. ويروى عنه قصصا قد تكون مبالغا فيها .. بل ربما عرف البعض عنوان الشقة المفروشة التى تشهد مغامراته .. ولكنه لم يكن يسمع شيئا مما أصبح يقال عنه .. كأنه يعيش بشخصيتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى .. شخصية رجل الأعمال الجاد .. وشخصية رجل المغامرات النسائية .. وهو لا يقدم للمجتمع إلا الشخصية الأولى ، ولا يحس اجتماعيا بشخصيته الثانية .. بل انه كان يرفض مسايرة أى صديق يمكن أن يتجرأ ويفاتحه الحديث عن دنيا المغامرات النسائية حتى ولو ضاحكا .. وكان يرفض بعنف محتفظا بشخصية رجل الأعمال الجاد ، ولا يقبل حتى مجرد التضاحك عن هذه الدنيا الأخرى .. ولم يراوده أبدا أى تساؤل عما إذا كانت زوجته أمينة قد بلغها شىء مما يقال عنه .. بل لم يخطر على باله أبدا أن يتساءل عن احتمال أن تنطلق زوجته ، كما انطلق وتعيش هى الأخرى مثل المغامرات التى أصبح يعيشها .. ربما أعطت نفسها لرجل آخر ، كما أعطى نفسه لنساء أخريات .. ربما كانت هى الأخرى تعانى

الزهق ، كما كان يعانى ودفعه إلى مغامراته النسائية ولكن هذا التساؤل لم يخطر على باله أبدا .. إن زوجته لم يتغير فيها أى شىء ولا حتى فى رنة كلامها معه .. وإن كان لم يتنبه إلى أنه بعد أن بدأ يعيش مغامراته النسائية أصبح يحاسب زوجته أكثر .. ويدقق فى مراجعة تحركاتها خارج البيت أكثر .. كأنه اكتشف الدنيا الأخرى التى لم يكن يعرفها ويخاف أن تقع فيها زوجته كما وقع هو فيها ..

إلى أن واجه المفاجأة ..

كان جالسا فى البيت وبجانبه زوجته ومن حولهما بناتهما الثلاث كعادته صباح كل يوم جمعة .. وانطلقت ابنته الكبرى سلوى قائلة :

ـ بابا .. إن ماما تتعذب وأنت الذى تعذبها .. فهى تعرف وكلنا يعرف أنك أصبحت على علاقات مع كثير من النساء .. ونحن نعانى من أننا أصبحنا نسمع الكثير الذى يمس تباهينا بأبينا المحترم .. ولكن ماما تتعذب أكثر .. وحرام عليك يا بابا .. أنت مسئول عنها كما أنك مسئول عنا ..

وبوغت ممدوح بهذا الكلام .. إن ابنته تتهمه اتهاما صريحا وتجلس أمامه محتفظة بكل قوتها كأنها وكيل نيابة يقدمه للمحاكمة .. ونظر إلى زوجته شذرا كأنه يتهمها بأنها هى التى سلطت عليه بناته لتقديمه إلى هذه المحاكمة .. بماذا يرد على ابنته دفاعا عن نفسه .. هل يكذبها ويثور عليها ويطردها من الجلوس معه .. ولكن لا .. إن بناته قد كبرن وأصبحن مكتملات العقل .. وقد تزوجت سلوى ونيفين .. زواج محترم كان له الفضل فى تحقيقه وهو الذى اختار لكل منهما زوجها .. وهما الاثنتان لن يكلفا نفسيهما احتمال كذبه إذا أنكر ما يتهمانه به .. لقد ينطلقان فى مجادلته الى حد يفقده احترامه .. ومن الأفضل أن يكون على بعض الصدق والصراحة فى الرد على اتهامهما له .. اما ابنته الصغرى .. كريمة فهى الآن فى الخامسة عشرة من عمرها .. ولم تتزوج بعد .. وقد ورثت عنه كل ذكائه .. وستكتشف فورا كذبه اذا أنكر الاتهام ..

وستكون أول من يقتنع بكل ما يقوله ما دام صادقا .. بل إنه واثق أنها ستعذره .. إن كريمة أقرب بناته وأحبهن اليه ..

وقال بعد أن سكت لحظة يعد فيها كل كلمة يقولها :

ـ انى لا أسمح لأى واحدة منكن بأن تحاسبنى على حياتى خارج البيت .. ولكن كل واحدة منكن من حقها أن تطالبنى بما ينقصها .. فهل ينقصكن شىء .. ماذا ينقص أمكنّ أو أى واحدة منكنّ .. إنى منذ بدأت فى إقامة هذه العائلة وهذا البيت ، وأنا حريص على ألا ينقصكنّ شىء .. بل ولا تنقصكنّ حتى دقيقة واحدة من عمرى ..

وقالت ابنته الصغرى كريمة فورا :

ـ فعلا يا بابا .. لا ينقصنا شىء .. أبقاك الله لنا ..

ونظر إليها فى حب كأنه يقبلها بعينيه ..

وقالت الابنة الوسطى نيفين وهى تتكلم كأنها لم تتعود الجرأة عليه :

ـ ينقصنا أن نعيش دون أن تنطلق حول أبينا حكايات تجرحنا ..

وقال فى حدة :

ـ إن الناس كلهم تعرف أن أباكنّ رجل ناجح .. وليس هناك من يستمر نجاحه دون أن تنطلق من حوله إشاعات .. أو حكايات وقد يرونه يصافح امرأة بمجرد دافع اجتماعى فيطلقون إشاعة أن بينه وبين هذه المرأة علاقة .. ولن يسكت عنه الناس إلا إذا فقد نجاحه وأفلس وأصبح فاشلا .. هل تفضلن أن أكون فاشلا عن أن تسمعن عنى حكايات ..

وصاحت الصغرى :

ـ لا يا بابا .. نريدك ناجحا مهما سمعنا عنك من حكايات ..

وعاد ينظر اليها كأنه يقبلها بعينيه . .

وعادت ابنته الكبرى سلوى أكثرهن جرأة عليه تقول :

ـ قد لا يكون هناك ما ينقصنا حتى من حبك لنا .. ولكن ماما قد تكون قد أصبح ينقصها الكثير ..

وصاح الأب ممدوح :

ـ لا يمكن ألا ينقصكن شيء ، وأمكن ينقصها شيء .. إن احساسى بكن ومسئوليتى عنكن بل وحبى لكنّ .. كل هذا نابع من إحساسى بماما ومسئوليتى عنها وحبى لها .. إنها لم تفقد دقيقة واحدة من عمرى خصصتها لها منذ أن أصبحت زوجتى .. حتى جلستنا هذه .. جلسة صباح الجمعة .. لم تنقطع أبدا .. وماذا تساوى جلستى معكن إن لم تكن ماما بجانبى .. إنها هى الأصل .. هى العائلة .. هى البيت .. ولو كان ينقصها شيء لصارحتنى به .. فهى متأكدة من قوة حرصى على اسعادها .. وهى لم تصارحنى بأى شيء كر سعادتها بى ..

وسكتت ابنته سلوى وهى تنظر إلى أمها كأنها تستغيث بها ، وتسألها عن المزيد الذى يمكن أن تقوله لأبيها ..

وكانت زوجته أمينة لا تشارك فى هذه المناقشة .. جالسة فى صمت ورأسها مدلى على صدرها كأنها فى انتظار ما يمكن أن تنتهى إليه هذه المناقشات .. وقد رفعت رأسها وقالت فى صوت ضعيف كأنها تأكدت أن المناقشات لن تنتهى إلى شيء .. وقالت :

ـ خلاص يا بنات .. ما هذا الكلام الذى أسمعه منكن .. إن أباكن هو زينة الرجال وخير الآباء .. وحياتنا كلها لا ينقصها شيء .. بفضله ..

وقال ممدوح وهو يبتسم ابتسامة مفتعلة :

ـ بفضلك أنت يا أمينة ..

وسكتت البنات وقفزت ابنته الصغرى كريمة وألقت نفسها بين ذراعيه تقبله وتدلله كأنها تمسح عنه ما أثار أعصابه من كلام أختيها .. إلى أن التقت العائلة حول المائدة لتناول طعام الغداء كالعادة كل يوم جمعة ..

وأعصاب الأب ممدوح تهرى وتتلوى فى داخله .. إنه متأكد من أن زوجته أمينة هى التى سلطت ابنتيها الكبرى والوسطى لإثارة مناقشته .. انهما أقرب إليها من ابنته الصغرى التى تعتبر أقرب إليه من قربها لأمها .. وهويعلم أن عقلية زوجته تدفعها كثيرا إلى التخطيط دون أن تتحمل مسئولية ما تخطط له .. وكأنها أرادت أن تلومه عن طريق بناتها دون أن تتحمل مسئولية لومه ..

وقد وجد أن يدخل بعض التعديلات فى حياته الخاصة ..فاختصر من مجموعة النساء اللاتى يفرجن عن زهقه ، وأصبح يتعمد أن يتصل بزوجته بالتليفون وهو فى عمله حتى يطمئنها إلى أنه فى مكتبه ولم يذهب إلى ما يمكن أن يثير شكوكها .. أى لم يذهب إلى الشقة المفروشة .. ولم يكن يحس أنه يحاول بذلك أن يطمئنها هى .. أى زوجته .. بل كان يحس بأنه يطمئن بناته ويخفف عنهن ما يسمعنه عنه ..

وكان يعود إلى بيته وأقوى ما يتجه إليه من متعة هو لقاؤه بابنته كريمة .. ويحتضنها ويقبلها ويداعبها كأنها لا تزال طفلة صغيرة دون أن يحس بها وقد كبرت وأصبحت شابة .. وقد عاد إلى البيت فى الساعة التاسعة مساء ، وفوجيء بأن ابنته كريمة ليست فيه ، وصرخ مذعورا فى وجه زوجته أمينة :

ـ أين كريمة ؟

وقالت زوجته وهى تدارى وجهها عنه :

ـ لم تعد بعد ..

وصاح :

ـ أين هى ؟

وتنهدت أمينة كأنها تلتقط أنفاسها قبل أن تطير منها :

ـ لا أدرى .. إنها لم تتعود أن تصارحنى بخطواتها خارج البيت .. ولا أعرف عنها إلا ما أسمعه منها صدفة ..

وسقط على مقعد منهارا .. أين يمكن أن تكون ابنته حتى الساعة التاسعة مساء .. وجحظت عيناه كأنهما تكادان تسقطان من مقلتيهما .. ربما كانت فى شقة مفروشة كالشقة التى خصصها لنفسه ولمغامراته .. لقد مر به فى شقته فتيات عذارى ، وربما أصبحت ابنته العذراء تتردد على شقة مفروشة أخرى .. إنها صورة طبق الأصل منه حتى فى حياتها الخاصة .. ولكن لا يمكن أن يقبل أن تصل إلى هذا الحد فى أن تعيش كل حياته ..

وظل جالسا ودماؤه تغلى فى عروقه .. وزوجته جالسة أمامه فى صمت ورأسها منكس على صدرها كأنها تهم بالبكاء .. وكانت الساعة قد وصلت إلى التاسعة والنصف عندما دخلت عليهما ابنته كريمة .. وقفز منطورا من جلسته وصرخ فى وجهها :

ـ أين كنت ؟

ولم تهتز كريمة لصرخته واقتربت منه تهم أن تقبله كما هى عادتها وقالت ضاحكة :

ـ لا تنس أنك قلت لنا أن ليس من حق أحد أن يحاسبك ، ولكن من حقنا أن نطالبك بما نريد .. وأنا مثلك .. لا تحاسبنى ولكن قل لى ما تريد ..

وارتعشت عيناه ورفع يده وصفعها صفعة قوية على خدها وهو يقول :

ـ إنى قلت هذا وأنا مسئول عن نفسى ، أما أنت فلست مسئولة عن نفسك .. أنا المسئول عنك .. ومن حقى أن أحاسبك على كل دقيقة وكل خطوة من عمرك ..

وتحسست الصفعة بكفها دون أن تبكى ، وقالت وهى تحاول أن تحتفظ بهدوئها :

ـ لك حق .. ومسئوليتك عنى كانت تفرض علىّ أن أعود إلى البيت قبل الساعة التاسعة .. أى قبل أن تكتشف أنى لم أعد بعد .. وحتى اطمئنك أكثر على مسئوليتك سأقول لك أين كنت .. لقد كنت فى حفل أقامته صديقتى درية وتأخرت نصف ساعة عن موعد عودتى ..

وصاح وهو يطوى يده حتى لا يصفعها مرة ثانية :

ـ ليس من حقك أن تذهبى إلى أى حفل بلا استئذان ..

وقالت ساخرة :

ـ ما الفرق بين أن استأذن مادمت أستطيع أن أكذب ..

وأحس كأنها تتكلم بلسانه الذى يعبر عن عقليته هو .. إنه هو الآخر لا يستأذن زوجته ولا العائلة عندما يذهب إلى الشقة المفروشة .. لأنه إذا استأذن فسيضطر إلى أن يكذب . .

وظل مبحلقا فيها وهى تجرى من أمامه وتدخل غرفتها وتغلق الباب وراءها .. كأنها تختفى لتبكى وحدها من أثر الصفعة التى لا تزال على خدها ..

ومن ساعتها وهو يعانى الشك من تصرفات ابنته .. وصورتها لا تبتعد عن خياله طوال اليوم .. أين ذهبت ؟.. وماذا فعلت ؟.. ومن تعرف ؟.. وما علاقتها بمن تعرفهم من الشبان ؟.. وقد أخذ يطيل فى محاسبتها كلما جلس

إليها .. ويحاول أن يضع محاسبته فى قالب تساؤلات عادية بريئة .. بدأ يثير الحديث عنها كلما جلس مع من يعرفونها من أقارب وأصدقاء العائلة كأنه يريد أن يكتشف ما لا يعرفه .. وقد كان من أثر اهتمامه بها أن فكر فى التخفيف من زهقه بلقاء النساء فى الشقة المفروشة .. وحدث أن كان على موعد فى الشقة مع فتاة شابة فى عمر ابنته .. وهى فتاة لعوب تفضل اللعب مع الرجال الكبار فى مثل سنه .. وبوغت وهو يحتضنها ويلصق جسدها بجسده أنه يرى فيها صورة ابنته كريمة .. كأنها هى كريمة .. وأبعدها عن ذراعيه بسرعة .. انه لا يستطيع أن يلعب هذه اللعبة مع ابنته ..

وفى يوم فاجأه صديقه مصطفى محرز بأن قال له :

- ان ابنى رؤوف معجب بابنتك كريمة إعجابا صارخا .. إنه طالب معها فى الجامعة ، ولا يكف عن الحديث عنها مع أمه ولا معى ..

وقال الأب ممدوح فى عصبية كأنه يهم أن يدخل فى خناقة بسبب ابنته :

- أى نوع من الإعجاب ..

وقال صديقه مصطفى ضاحكا :

- هل الإعجاب أنواع .. إنه اعجاب فتى بفتاة .. ولست من العلماء حتى أفسر لك هذا الإعجاب .. يكفى أنه اعجاب .. وابنى لا يزال فى السن الذى يكفيه مجرد الإعجاب ..

وضغط ممدوح على أعصابه وافتعل ابتسامة باهتة ولم يستمر فى الحديث .. ولكنه عندما عاد إلى البيت جلس مع ابنته كريمة وقال :

- إنهم يتحدثون عنك كثيرا فى الجامعة ..

وقالت كريمة فى بساطة :

- طبعا .. فإنى فتاة ناجحة فى الجامعة .. واعتبر من أجمل وأشيك وأشطر

بنات الجامعة .. ونجاحى يفرض عليهم أن يتحدثوا عنى كثيرا .. هل كنت تفضل أن تكون ابنتك فتاة قبيحة غبية فاشلة لا يهتم أحد بالكلام عنها .. إنى سعيدة لأن كل من فى الجامعة يتحدث عنى .. وسعيدة حتى بالإشاعات الكاذبة التى تثار حولى ولا أهتم بها ..

وتاهت عينا ممدوح فى الدهشة .. إن ابنته تقول نفس الكلام الذى سبق أن قاله لها ولأختيها .. لقد سبق أن قال لهن أنه تكثر حوله الإشاعات لأنه ناجح .. ولن تسكت عنه الإشاعات إلا إذا فقد نجاحه وأصبح فاشلا .. ولكنه كان يقول لهن هذا الكلام وهو يعلم أن كثيرا مما يقال عنه لا يعتبر مجرد إشاعات .. إنه فعلا كلام صادق يكشف واقعه .. فهل تقول ابنته هذا الكلام وهى أيضا تعيش واقعا وليس مجرد اشاعات ..

ووجد نفسه يحس بإحساس جديد نحو ابنته ، وتردد لحظة ثم قال لها فى صوت هادىء من خلال ابتسامة حب :

إنك صورة طبق الأصل من أبيك .. وأنت تقولين الآن نفس الكلام الذى سبق أن قلته أنا لك دفاعا عن نفسى ضد الإشاعات .. وحاولى الآن أن تفهمى ما سأقوله لك .. لأننا نحن الاثنين نكاد نجمع بين شخصية واحدة وعقلية واحدة فتعالى نتصارح بكل ما فى حياة كل منا .. لا أسرار أخفيها عنك ، ولا أسرار تخفيها عنى .. حتى يستطيع كل منا أن يحمى الآخر من الوقوع فى أى خطأ .. سأصارحك الآن بأنى كنت ألعب بمعرفة بعض البنات والنساء وقضاء أوقات من اللعبة المعروفة معهن .. ولكن منذ مدة وجدت أن كل لعبة تترك فى داخلى مرارة تقرفنى من نفسى .. وإحساس بأنى رجل ضعيف خسيس يضحى باحترامه لنفسه واعتزازه بشخصيته .. أحس كأنى رجل جائع لا تشبعه أى لقمة حتى تفتت أمعاؤه .. لذلك بدأت أحرم على نفسى اللعب .. ربما مازلت ألعب .. ولكنى ألعب قليلا وفى فترات متباعدة .. ولكن حتى هذا القليل سأحرمه على نفسى .. وطبعا كنت ألعب دون أن أمسّ عائلتى بأى مساس ..

وقالت كريمة وهى تنظر إلى أبيها فى اشفاق :

ـ لقد كنت أعرف ، ولكنى لم أفقد ثقتى فيك أبدا كأب مثالى ..

وقال فورا :

ـ إذن صارحينى أنت أيضا بما فى حياتك ولا أعرفه ..

وقالت كريمة فى بساطة :

ـ إنى أصارحك دائما دون أن يبدو على مصارحتك .. صدقنى ليس فى حياتى أسرار .. وربما كان فيها سر لم يكتمل بعد حتى أصارحك به ..

وتركته وهو ضائع فى حيرته ..

وقرر أن يقطع فعلا كل علاقاته الخاصة بأى امرأة حتى علاقته بسميرة التى كانت أول امرأة دخلت حياته وهو متزوج .. لقد كانت علاقته بها قد بردت من تلقاء نفسها ، ولكنها كانت لا تزال تفد على الشقة المفروشة كل شهرين أو ثلاثة مرة .. لقد حرم على نفسه هذه المرة أيضا .. بل وصل إلى ترك إيجار الشقة المفروشة كلها .. إنه يحاول أن يقيم من نفسه مثلا أعلى لابنته كريمة التى ورثت عنه كل عقليته ..

وبعد أيام طويلة جلست إليه كريمة ، وقالت وقد أرخت عيناها عنه فى حياء :

ـ لقد اكتمل السر الذى يجب أن أصارحك به .. إنى فى حالة حب .. حب عنيف .. وقضيت مدة طويلة وأنا أختبره حتى تأكدت منه واستسلمت له .. استسلمت للحب لا لمن أحبه ..

وقال الأب فى جزع :

ـ من هو ؟

وقالت فى صوت متنهد كأنها تحادث نفسها :

ـ انه رؤوف ابن صديقك مصطفى بيه محرز .. انه زميلى وهو لا يزال فى السنة النهائية ، ولكنى واثقة أنه سينجح .. وقد اتفقنا على أن نعلن خطوبتنا إلى أن نتزوج بعد ظهور النتيجة حتى تكون لنا الحرية بأن نعرف بعضنا أكثر ..

وقال ساهما :

ـ وماذا تريدين منى ؟

وقالت فى بساطة :

ـ لا شىء .. انتظر حتى يفاتحك والده فى موضوع الخطوبة ..

وقال وهو ينظر إليها فى كمد :

ـ قد لا أوافق ..

وقالت فى ثقة :

ـ إنى واثقة أنك ستوافق ..

وتنهد وهو ينظر إليها فى دهشة .. كيف تكون واثقة من موافقته .. أو ربما كانت ستتزوج هذا الشاب حتى ولو لم يوافق .. وقال فى حدة كأنه يصدر أمرا يفرضه عليها :

ـ قبل أن يفاتحنى والده .. أريد أن أعرف شخصية هذا الشاب .. وأريد منك ان تدعيه إلى البيت دون أن يفاتحنى فى شىء .. إنما يزورنا كصديق لك .. مجرد زميل .. يذاكر معك أو يودك ..

وقالت دون أن تفاجأ :

- هذا ما فكرت فيه ..

وقد أصبح رؤوف يزور البيت .. حتى أصبحت الزيارة كل يوم .. وقد اقتنع وأعجب به الأب .. إن ابنته صورة منه حتى فى اختيار الناس وتحديد علاقاتها بهم ..

وبعد فترة تقدم إليه صديقه مصطفى محرز يطالبه باعلان خطوبة ابنته لابنه ..

إلى أن تم الزواج ..

وأحس الأب ممدوح رجب بأنه انتهى من تحقيق مسئوليته عن ابنته كريمة كما سبق وحقق مسئوليته عن أختيها سلوى ونيفين ..

والغريب أنه عاد إلى استئجار الشقة المفروشة ..

الحياة قراطيس ..

إنها منذ وقعت عيناها عليه وهى تحس أنه لا يمكن أن يكون مجرد رجل عادى .. إن مجرد تحركاته بما فيها تحركات عينيه تجعل كل من يقف أمامه ينجذب إليه وهو فاغرا فاه فى دهشة .. ولكنها دهشة تنطلق معها ابتسامة كأنه يهبها لك ..

وقد كان لقاؤهما ضمن مجموعة كبيرة من الكومبارس السينمائيين مجتمعين فى صالة الاستديو فى انتظار أن يظهر المخرج ليختار من بينهم من يظهر فى مشاهد الفيلم .. وكان رأفت يطوف عليهم يحيى ويضحك وكأنه يعرفهم كلهم وهم يعرفونه .. وعندما وصل اليها وقف ينظر اليها مبتسما فى دهشة كأنه فوجىء باختراع جديد .. لقد كانت أول مرة يراها فى مثل هذا الجمع .. وكانت أول مرة بالنسبة لها تعرض نفسها فى سوق الكومبارس .. وقال رأفت وهو يشد على يدها مرحبا:

ـ أهلا .. شرفت ..

ووجدت ابتسامتها تتسع بشفتيها حتى آخرها وهو يصافحها .. أحست باطمئنان كامل إليه كأنها تعرفه طول حياتها .. وظلت عيناها متعلقتين به بعد أن ابتعد عنها .. بل إنها وجدت نفسها تخطو وراءه كأنها أصبحت معه .. دون أن يتبادلا أى كلمة أخرى .. كأنهما ليسا فى حاجة إلى كلام .. إلى أن ظهر

بينهما مساعد المخرج واصطفوا بسرعة أمامه .. وكان أول من نادى عليه هو رأفت .. وطلب منه أن يدخل غرفة تغيير الملابس .. وقال رأفت فى هدوء :

ـ ما هو المشهد الذى سأظهر فيه ..

ونظر اليه مساعد المخرج وهو يزفر أنفاسه فى زهق ، ثم أخذ يقلب فى الأوراق التى بين يديه وقال فى صوت عنيف كأنه قائد يصدر أوامره فى معركة :

ـ ستقف بين بقية موظفى الشركة .. ويمر عليكم الباشا .. يصفع كل موظف بالقلم .. وعندما يصل إليك ويصفعك ترفع يدك كأنك تهم بأن ترد صفعته .. ولكنه يلاحقك بلكمة قوية تسقط معها على الأرض .. هذا هو كل المشهد المطلوب منك ..

وقال رأفت بسرعة :

ـ آسف .. لا أقبل الظهور فى هذا المشهد ..

وتعقد وجه مساعد المخرج ، ثم كأنه استطاع أن يقاوم ثورته واقترب من رأفت قائلا كأنه يرجوه :

ـ إنه مشهد مليء بالحركة .. ويمكن به إبراز مواهبك ..

وقال رأفت فى هدوء :

ـ إنه مشهد يتعارض مع شخصية صاحب الشركة كما يقدمها السيناريو .. ولن يقنع جمهور المتفرجين ..

وانسحب رأفت من بين صفوف الكومبارس رغم استمرار مساعد المخرج فى محاولة اقناعه ..

وساعتها عرفت أن رأفت يعتبر من أبطال الكومبارس .. إن الكومبارس

أيضا يضم أبطالا .. إذا لم يكن لهم اسم بين الجمهور ، فلهم اسم بين محترفى العمل السينمائى .. كما لهم تأثير معترف به على الجمهور حتى لو كان تأثيرا عابرا بين مشاهد الفيلم .. وقد بلغ من اعتداد رأفت ببطولته أنه كان يجد من حقه مراجعة سيناريو أى فيلم يظهر فيه رغم أنه لا يظهر إلا فى مشاهد الكومبارس ..

ومضت دقائق خرجت بعدها من الاستديو كأنها تجرى بحثا عن رأفت ..

ووجدته واقفا فى الفناء الخارجى يناقش بعض الأصدقاء .. وتقدمت إليه كأنه صديقها القديم وقالت فى بساطة :

ـ لم أختبر لأى مشهد أظهر فيه ..

وقال مبتسما ابتسامة تقطر بالسخرية كأنه يروى نكتة :

ـ هل تعرفين المخرج ؟

وقالت فى دهشة :

ـ لا ..

وعاد صوته ينبض بالسخرية :

ـ وهل تعرفين المنتج ..

وقالت بدهشتها ..

ـ لا ..

وقال وهو ينظر اليها باشفاق :

ـ من تعرفين من العاملين فى الفيلم ..

وقالت :

- لا أحد .. لقد تقدمت عن طريق مكتب التشغيل ..

وقال ضاحكا :

- إن مكتب التشغيل لا يقدم زبائنه للشغل ، ولكنه يقدمهم لأصحاب الشغل .. لابد أنك لجأت إلى مكتب ساذج برىء .. أو مكتب لا يطمع فى أن يربح من وراءك شيئا .. ولكن اصبرى .. فالطريق ليس سهلا ..

وأمسك بذراعها وشدها بعيدا عن أصدقائه قائلا :

- إنى جوعان .. تعالى .. قد تشبعيننى وقد أشبعك ..

وقالت وهى مستسلمة له دون مقاومة :

- إلى أين ..

وقال فى بساطة :

- إلى أمى .. فقد وعدتنى بأن تعد لى طبخة بامية .. وبطنى تتغنى بالبامية وتضعف أمامها كما تتغنى عيناى بالورد وتضعف له ..

واستسلمت .. إنها تعيش وحيدة ، وربما كانت وحيدة منذ ولدت .. وشردتها الوحدة لتجد نفسها فى القاهرة تتنقل بين الإقامة مع صديقات لا تجمعهن الصداقة بل تجمعهن معركة عنيفة فى البحث عن وسائل الحياة ..

وقالت وهى تسير بجانبه كأنها تذكرت فجأة أنه لم يعرفها ولم تعرفه بعد :

- إن اسمى عليّة .. وعندما بدأت أحاول أن أعمل فى السينما نصحونى بأن أسمى نفسى علياء .. قالوا لى أنه اسم أشد اجتذابا للجمهور ..

وقال كأنه يقاوم كارثة :

- لن أعترف لك باسم إلا اسم علية .. انه اسم ينطلق من أصالة كل

مجتمعنا .. اسم يحس به كل مصرى بأنه اسم يمكن أن يكون فى بيته .. حتى جمهور السينما والمسرح والتليفزيون .. ينجذب أكثر إلى الأسماء الأصيلة .. وقد كان الفن قديما لا يجمع إلا هذه الأسماء الشعبية الأصيلة خصوصا بين الفنانات .. دولت أبيض .. أمينة رزق .. فاطمة رشدى .. زينب صدقى .. روحية خالد .. و .. و .. ولم تكن إحداهن تحاول أن تدعى لنفسها اسما من الأسماء « المودرن » إلا بعد أن تشوه المجتمع المصرى وأصبح يعيش على المظهر الكاذب .. وأصبح من حق الفتاة أن تستبدل اسمها .. برنة أخرى .. كما تستبدل ثوبها بطراز آخر .. كفروا بالأصالة وتعلقوا بالمظهر .. رغم أن الأصالة لها رنة أجمل من رنة الادعاء .. كما أن الموسيقى الأصيلة لا تزال رنتها أجمل من رنة الموسيقى الدخيلة المستحدثة .. لذلك لن أترنم إلا باسم عليّة . كلما ترنمت بك ..

وقالت ضاحكة كأنها تخفف عنه :

- ربما لو لم أكن قد صارحتك بأن اسمى هو عليّة .. لرضيت باسم علياء ..

وقال وهو لا يزال مصرا :

- كنت سأعيش معك وأنا أحس احساسا غامضا بأنك تكذبين علىّ كذبة لا أستطيع اكتشافها والعثور عليها .. كأن الشك يساورنى بأنك لست مخلصة لى .. وأنا دائما أسمى نجلاء فتحى باسمها الأصيل .. زهرة .. حتى استكمل اعجابى بفنها دون أى مؤثرات دخيلة ..

وقالت وهى تنظر اليه كأنها مبهورة بأنه ليس كبقية الناس :

- اطمئن .. ان اسمى هو عليّة .. ولن يكون لى أبدا اسم آخر ..

□ □

واستقبلتها أمه فى بساطة وهى تنظر اليه نظرات مرتاحة كأنها تعرفها منذ

زمان طويل .. وقال رأفت يقدمها اليها فى كلمة واحدة .. عليّة ..وقالت لها الأم فورا :

ـ تعالى معى وساعدينى فى المطبخ .. فإن رأفت لا يطيق الانتظار ..

وشدتها وراءها إلى المطبخ .. وعليّة تنظر حولها فى أنحاء البيت .. إنه بيت متواضع ولكن لا ينقصه شىء .. انه يحيط رأفت بأكثر مما يستطيعه مجرد كومبارس من العاملين فى السينما .. ربما كانت له أعمال أخرى تدر عليه دخلا أكبر .. وأخذت تشارك أمه فى طهو ما تعده من طعام ، وبسرعة زال احساسها بالغربة وأصبحت تتحرك فى تلقائية كأنها ليست غريبة عن هذا المطبخ .. وكأنها فى بيتها ومع أمها .. رغم أنها لم يكن لها أبدا بيت ولم تعاشر أما ..

وحملت هى وأمه أطباق البامية والأرز والسلاطة .. ورأفت جالس على رأس المائدة صامت سرحان كأنه لا ينتظر شيئا .. وما كاد الطعام يوضع أمامه حتى بدأ يأكل وهو لا يزال سرحانا دون أن ينطق بكلمة .. ولم يأكل كثيرا .. لقمات قليلة يمضغها فى بطء .. ثم قام من على مقعد المائدة ، وألقى بنفسه على الأريكة التى تتصدر الغرفة.. وقد عرفت عنه فيما بعد أن هذه هى عادته .. لا يفرط فى الأكل .. وربما كان هذا هو سر احتفاظه بهذا القوام الرشيق .. وقد قامت هى وأمه تجمعان الأطباق وتعيدان المائدة إلى حالتها .. ثم تركت أمه فى المطبخ وتسللت إليه كأنها تريد أن تكتشف أسرار يومه .. وفوجئت به جالسا وبين أحضانه آلة العود يعزف عليها موسيقى متقطعة كأنه يجرب لحنا جديدا .. وما كانت تقترب منه حتى قال دون أن يرفع رأسه اليها وكأنه لم ير منها سوى قدميها :

ـ القهوة ..

وقالت وابتسامتها تملأ شفتيها :

ـ حاضر ..

وقامت تجرى إلى المطبخ وعندما عادت إليه تحمل فنجان القهوة وجدته لا يزال يضرب على أوتار العود ويتوقف فى فترات ليكتب على الورق حروفا موسيقية .. لعله يلحن ..

ومد يده يشفط من فنجان القهوة وكأنه لا يحس بوجودها .. وجلست بجانبه صامتة .. واستمر ينقر على أوتار العود دون أن يحس بها بجانبه .. استمر مدة طويلة .. ساعتان وربما أكثر .. وهى لا تمل الصمت .. وعيناها مركزتان على أصابعه وهى تنقر على أوتار العود .. وأذناها متمركزتان على التقاط الأنغام .. إلى أن رفع رأسه وأزاح العود من بين ذراعيه وهو يشهق كأنه يزفر تعبه .. والتفت إليها مبتسما قائلا :

ـ أهلا ..

وقالت فى حماس وكأنها التقت به بعد غيبة طويلة :

ـ انه لحن رائع .. لم أعرف عنك ولم يخطر على بالى أنك ملحن ..

وقال مبتسما فى هدوء :

ـ إنى لا اعتبر نفسى ملحنا .. ولا ممثلا .. ولا اذاعيا .. ولا كاتبا .. ولا رساما .. رغم انى ألحن وأمثل وأذيع وأكتب وأرسم .. إنى لا أطيق أن أحمل مسئولية تقديم أى فن لأى جمهور .. ولكنى أعيش الفن لأمتع به ذاتى .. إن الفن ينطلق من داخلى كأنفاسى التى تشعرنى بالحياة .. وأنا لست فى حاجة إلى أكثر من الحياة .. ولم تفرض على الحياة أن تحتاج ذاتى إلى جمهور ..

وقالت فى دهشة :

ـ ولكنك تظلم ذاتك وتظلم الجمهور بحرمانه من فن ذاتك ..

وقال فى هدوء :

- إن ذاتى ليست فى حاجة إلى الجمهور .. بل أنى أحمى نفسى من الجمهور .. فالفنان الذى يخضع ذاته للجمهور إنما يبيع نفسه ولا يعود فنه منطلقا من داخله بل يصبح فنا مفروضا عليه من الجمهور .. يقدم له ما يشتريه ليقبض الثمن .. وما يعانيه الفن هذه الأيام هو الفارق بين قيمة الروعة الفنية وقيمة الشهرة الشعبية .. فأغلب أهل الفن أصبحوا يسعون إلى الشهرة الشعبية ويهملون فى تقدير الروعة الفنية .. وقد وهبنى الله القدرة على عدم السعى إلى الشهرة والاكتفاء بمحاولة البحث عن الروعة ..

وقالت وهى حائرة كأنها لا تستطيع أن تفهم ما يقول :

- ولكنك تظلم نفسك . . كيف تستطيع أن تعلن هذه الروعة إن لم تصل بها إلى الجمهور . .

وقال وهو ينظر اليها كأنه يشفق عليها :

- ما دمت قد وصلت إلى مستوى الروعة فإنها تصل تلقائيا إلى الجمهور .. عشرات من الفنانين ظلوا مجهولين حتى ماتوا ومضى على موتهم عشرات السنين إلى أن اكتشف الجمهور ما خلفوه من روعات فرفعهم إلى قمم الفن ..

وقالت وهى لا تزال حائرة :

- سأقول لك أول تساؤل خطر على بالى ساعة أن رأيتك فى استديو السينما .. فقد كان كل من حولى يهمسون بأنك ممثل رائع .. ثم سمعتك تجادل مساعد المخرج كأنك فعلا ممثل كبير له حق فرض آرائه ولست مجرد كومبارس .. فلماذا تقدم نفسك إلى الفن السينمائى ككومبارس ولا تحاول أن تفرض نفسك كبطل من أبطال الشاشة ..

ومد يده وأمسك بيدها يضغط عليها كأنه يريد أن تصل أعصاب أصابعها إلى تنشيط أعصاب عقلها حتى تفهم :

- لأنى صادق مع نفسى .. فإنى أحس أحيانا بنزعة فنية قوية تدفعنى إلى التمثيل أمام الكاميرا .. ولكن هذه النزعة لا تتجاوز دفعى إلى الوقوف أمام

الكاميرا لبضع دقائق .. دقيقةأو اثنتين أو ثلاثا .. ولا تتجاوز إلى دفعى إلى تمثيل مشاهد تستمر الفيلم كله .. أى المشاهد التى يقوم بها بطل الفيلم .. لذلك ولأنى صادق مع ذاتى فكلما طرأت على هذه النزعة بحثت عن الوقوف أمام الكاميرا ككومبارس .. ودور الكومبارس يحتاج إلى فن كامل رغم أنه مجرد مشهد عابر .. وقد تتطور نزعتى إلى أن أقدم على تمثيل بطولة أحد الأفلام .. ولكنها لم تتطور حتى الآن ..

وقالت كأنها تلومه :

- إن التطور يفرضه الفنان على نفسه وعلى الجمهور وعلى كل ما أمامه .. وأنا تقدمت إلى دور كومبارس وأنا أخطط للتطور حتى أصل إلى الظهور كبطلة ..

وقال ساخرا :

- وقد رفضت حتى من بين مجموعة الكومبارس ..

وقالت فى حسرة :

- لا أدرى لماذا رفضت .. رغم انى كنت أجمل كثيرا ممن تقدمن ..

وقال مشفقا :

- رفضت لأنك أقدمت دون أن تكونى فنانة سينمائية .. إن الفن لا يهم مجرد القدرة على الأداء بل يهم أيضا طريقة الوصول إلى فرصة الأداء .. وقد فشلت فى اكتشاف طريقة الوصول لأنك لست فنانة سينمائية .. إنما لجأت إلى الفن السينمائى لأنك تريدين الشهرة وتريدين الثراء بالكسب الوفير .. ولأنك تعتبرين نفسك أجمل من ميرفت أمين أو شريهان أو ليلى علوى ..

وقالت وكأنها تهم بالبكاء :

ـ وكيف أصل ؟

وقال فى هدوء :

ـ حاولى أن تكتشفى نفسك قبل أن تحددى ماذا تريدين .. وقد لا تكونى فنانة سينمائية ، ولكن قد يكون فى داخل ذاتك فن آخر .. إنى التقط من كلماتك وأنت تتحدثين رنة موسيقية حلوة .. هل جربت الغناء ..

وقالت ضاحكة :

ـ لعلى أغنى منذ ولدت .. إنى لا أكف عن الغناء عندما أكون وحدى هادئة البال ..

وقال :

ـ ماذا تغنين ؟

وقالت فى انطلاق :

ـ كل ما أسمعه من أغان أغنيه .. حتى الأغانى الأجنبية .. ماذا تريد أن تسمع .. هل تحب أن تسمع أم كلثوم ؟

وقبل أن يتكلم انطلقت فورا تغنى .. اعطنى حريتى أطلق يدى ..

وعلت وجهه ملامح جادة والتقط العود من جانبه وبدأ يعزف لها لحن أغنية أم كلثوم .. وعندما رأته يمسك بالعود انتقلت فورا إلى أغنية .. كلمونى تانى عنك .. فكرونى .. صحوا نار الشوق فى قلبى .. ولكنه صاح قبل أن تتم مقطع الأغنية ..

ـ لا .. لا .. إن صوتك لا يمكن أن يصل إلى المقام الموسيقى لصوت أم كلثوم .. حاولى ترديد أغنية لمطربة أخرى ..

ولم تبد عليها خيبة الأمل وصاحت كأنها فرحة :

ـ نجاة ..

ثم بدأت تغنى .. حبك انت شكل تانى .. ولكنه عاد وصاح :

ـ ولا نجاة .. إن فى صوتك رنة كأنها رنة زحام الشوارع وليس معبرا عن ضعف وهدوء صوت نجاة .. إن صوتك فى حاجة إلى ألحان خاصة به .. وسألحن لك أغنية .. اسمعينى أولا كل درجات صوتك .. قولى .. آه ..

وانطلق صوتها .. آه .. ولكنها توقفت وهى تنظر إلى الساعة المعلقة إلى الجدار .. وقالت :

ـ لقد وصلنا إلى الليل دون أن ندرى ..

وقال فى بساطة :

هل يجب أن تعودى إلى بيتك ..

وسكتت مترددة كأنها لا تريد أن تعود .. ليس لها بيت تعود إليه . وإن كان لها سرير تنام عليه .. ولكنها قبل أن ترد عليه كان قد أزاح العود من بين يديه وقام واقفا وهو يقول مبتسما :

ـ أين البيت ؟

وقالت وهى تجد نفسها تقوم لتنصرف كأنها مضطرة :

ـ فى شبرا .. إنى أقيم مع صديقتى شكرية ..

وتوقف مترددا كأنه يهم أن يعرض عليها أن تبقى معه ما دامت لا تقيم مع أهل إنما تقيم مع صديقة .. إنه يستطيع أن يطمئنها بأنها ستقيم مع أمه .. ولكن كأنه عدل عن رأيه فخطى خارجا من البيت وكأنه يشدها وراءه ..

وفى الطريق حدثته عن حالها فى كلمات سريعة دون أن تواجهه بعينيها كأنها تحادث نفسها .. إنها لم تر أبوها فقد مات قبل أن تعيه بعينيها .. وأمها تزوجت واضطرت ان تهرب من هذا الزوج بعد أن عانته طول طفولتها ، وشبت إلى أن استطاعت أن تهرب إلى القاهرة وتعيش وهى تحفر الأرض بحثا عن الرزق .. وأهلها فى القرية لم يبحثوا عنها حتى أمها كأنها حمدت الله على ضياعها .. وهى تعانى فى بناء أيامها .. ولا تعرف كيف تبنيها ، ولكنها تحاول كل ما يضمن لها استمرار الحياة .. ورغم ذلك فهى قادرة على الاحتمال .. انها تعتبر نفسها شاطرة .. وايمانها بشطارتها هو الذى يدفعها إلى كل هذه المحاولات ..

وقال دون أن يرثى لها كأنه لم يفاجأ :

ـ وما هى الحياة .. انها استمرار فى محاولات .. والسعادة ليست فيما تصلين اليه بل فى قدرتك على الاستمرار فى المحاولة .. وقد يوجد رجل وصل إلى القمة، ولكنه لم يعد سعيدا لأنه فقد القدرة على محاولة الوصول إلى قمة أخرى .. وتقوده تعاسته إلى الهبوط إلى منتهى القاع ..

ثم قال وهو يتركها تدخل إلى حيث تقيم :

ـ غدا .. صباحا .. سأوصى أمى بأن تعد لنا طبقا من البيض والفول ..

وتركها .. وابتعد فى خطوات مطمئنة .. كأنه تعود العمر كله أن يلقاها ويفترق عنها لتعود اليه كل صباح .

□ □

وأصبحت كل أيامها معه .. والبيت كأنه بيتها .. وأمه كأنها أمها أو حماتها .. وتمر ساعات طويلة وكأنه بعيد .. يعيش فى دنيا أنغام يبحث عنها فوق أوتار العود .. أو يعيش مع القلم والورق يكتب صفحات .. ولا يدرى

ماذا يكتب .. ولكن عيناها تتعلق بأصابعه وهى ملتفة حول القلم وتحس كأنها تقرأ كل ما يدور فى خياله .. وتفاجأ به يوما وقد نصب أمامه لوحة .. وجمع حوله ألوانا .. وأمسك بريشة وبدأ يرسم .. لا يهمها ماذا يرسم ولكنها دائما مبهورة بكل ما يضعه من خطوط وألوان .. وأيام أخرى يضعها كأنه يفردها أمامه ويبدأ فى بث اللحن وكلمات الأغنية التى أعدها لها .

ومهما د عنها فى دنياه فهى دائما دنيا تجعلها بقربه .. حتى عندما يترك البيت يصـ معه .. كأنها زهرة يعلقها على صدره ولم يعد يستطيع أن يستغنى عنها .. وهى معه عندما يتردد على استديوهات السينما .. أو على مكاتب بعض الصحف .. أو على جلسات بعض الأصدقاء .. وعندما يذهب مع أمه إلى قريتها فى طريق القناطر الخيرية تكون معهما .. وقد عرفت أن أمه تملك هناك عشرة أفدنة مزروعة بأشجار المانجو والبرتقال .. ربما كانت هذه الأفدنة العشرة هى كل ما تمده من دخل مالى مستقر .. بل أنه كان يصحبها عندما يذهب ليقضى ساعات فى مقهى مدبولى عند أول مدخل العباسية .. وتجد نفسها المرأة الوحيدة بين الجالسين .. ولكنه لا يحس بأنه فرضها على زبائن المقهى .. إنه يحس أنه وحده وعليّة قطعة منه .. ولا يمكن أن يكون فى أى مكان إلا وعليّة بجانبه كأنها تبرز من داخله . .

وكانت تعيش سعيدة .. أول سعادة تلتقى بها فى حياتها .. ولم يخطر على بالها أن تسأل نفسها هل تحبه وإلى أى حد تحبه .. يكفيها أنها سعيدة .. وقد زاد من سعادتها أنها اقتنعت بأنها مطربة رائعة .. وكان فى بعض جلسات الأصدقاء يمسك بالعود ويدفعها إلى الغناء .. وتغنى .. ولا يهمها أن تكتشف مدى اعجاب من يسمعونها .. وهو لم يحاول أن يستغل مواهبها بأن يدفعها إلى احتراف الغناء .. وهى نفسها لم تحاول أن تسعى إلى الاحتراف .. انها تقضى اليوم كله وهى تغنى لنفسها .. أو تغنى له .. حتى عندما تغنى بين الأصدقاء لا تحس إلا بأنها تغنى لنفسها له ..

ومضت شهور .. وكانت عندما بدأت حياتها معه قد انتقلت لتقيم فى بيته .. وكانت تقنع نفسها بأنها انتقلت لتقيم مع أمه بعد أن كانت تقيم مع صديقتها .. رغم ان الفراش يجمعها به لا بأمه .. ولكنها مع مرور الشهور بدأ يخطر على بالها تساؤل .. ما صفتها فى هذا البيت .. هل هى خادمة له ولأمه .. مجرد خادمة .. ولكنها لم تكن تريد أن تكون خادمة .. وهذه السعادة التى تغمرها لا يمكن أن تكون سعادة خادمة .. وهو نفسه لا يعاملها كخادمة .. إنه يعاملها كأنها دنيا تنبض بالروائع .. ولكنه أيضا لا يحدد لها أى صفة فى هذه الدنيا .. إنه عندما يقدمها للناس وهى معه يكتفى بأن يردد اسمها .. عليّة .. ولكن ما صفة عليّة هذه بالنسبة له .. إن الناس أنفسهم لا يسألونه ولا يحاولون اكتشاف أى صفة لها .. لعلهم يكتفون بأنهامخلوق فى صحبة رأفت ..

وأخذ هذا التساؤل يلح عليها .. وبدأ ينبض بنوع من الخوف على أن تضيع كل هذه السعادة فجأة وتجد نفسها حائرة وتائهة كما كانت ..

وكانت فى أحضانه وهو لم يغمض عينيه بعد لينام عندما قالت هامسة .. وإن كانت همسة ثقيلة تحشرج صوتها :

- رأفت .. إننا لم نتزوج بعد ..

وقال وابتسامة مرحة ترقص على شفتيه :

- قطعا تزوجنا ..

وقالت فى دهشة وهى تعتدل جالسة من رقدتها :

- متى وكيف تم هذا الزواج ..

وقال من خلال ابتسامته الراقصة :

- ما هو الزواج .. إنه اعلان واشهار أن هذه المرأة أصبحت لهذا الرجل ،

وهذا الرجل أصبح لهذه المرأة .. ونحن أعلنا وأشهرنا منذ البداية أنك لى وأنى لك .. كل الناس الذين من حولنا أصبحوا يعرفون أن عليّة لرأفت .. ورأفت لعلية .. أى أننا قد تزوجنا ..

وقالت وهى تحاول أن تبتسم فلا تستطيع :

- إن الناس لا تعترف بالزواج إلا إذا سجله المأذون على ورقة رسمية ..

وقال ضاحكا :

- إن الله عندما خلق سيدنا آدم لم يخلق معه مأذون ويضع بين يديه أوراقا شرعية ليزوجه من حواء .. انما خلقهما وهما متفقان على الزواج وأنجبا هابيل وقابيل .. وهكذا عاش خلق الله فى منتهى السعادة والأمان .. الرجل للمرأة والمرأة للرجل بالإشهار والإعلان وموافقة كل منهما على أن يكون للآخر مع موافقة المسئولين عنهما ..

وقالت وهى تتنهد حسرة :

- ومن هم المسئولون عنا الذين أقروا أننا تزوجنا .. لم يكن لى أبدا مسئول عنى .. حتى أنت .. فمسئوليتك عنى ليست مفروضة عليك .. ولكنك تتبرع بها ..

وقال فى اصرار ، وقد بدأت ابتسامته تختفى :

- لقد افترضت أن كل الناس مسئولين عنا لهذا أشهرت بينهم أنك لى وأنى لك .. فلم يعترض أحد ويعلن عدم موافقته ..

وقالت كأنها تئن :

- لعلهم يحتقروننا حتى يضنون علينا بالموافقة أو الاعتراض .. ويكتفون بالفرجة علينا .. كأننا عورة مكشوفة تشدهم إلى فرجة مسلية يتندرون بها ..

لماذا لا نرتفع إلى دنياهم ونعيش مستواهم نستدعى المأذون ليعقد قراننا ..

وقال فى حدة وقد اختفت ابتسامته عن شفتيه :

ـ تقصدين أن ننخفض إلى مستواهم .. هل تعرفين لماذا لجأ الناس إلى وضع قوانين واجراءات تجمع بين الرجل والمرأة .. وخصصوا لهم موظفا مسئولا له سلطات الحاكم بأمر الله .. وهو المأذون .. ذلك لأنهم فقدوا ثقتهم بعضهم ببعض .. وأصبحت الحياة تقوم على افتراض الجريمة والخداع والغش .. فحاولوا أن يحاصروها بتقييد كل الرجال وكل النساء كأنهم كلهم أشرار .. لا يمكن الاطمئنان إلى إرادتهم ، ويجب أن يعيشا تحت إرادة القانون .. لم يعد هناك اعتراف بإرادة الفرد .. ولا افتراض أن هذه الإرادة يمكن أن تقوم على الحب الانسانى .. والطهارة الانسانية .. والصدق الانسانى .. وإنى أتصور لو استدعيت المأذون ليعقد قرانى عليك كأنى ألجأ إلى موظف فى شركة سيارات لأشترى منه سيارة أركبها .. أو لأشترى منه ثلاجة تصون لى ما آكله .. أو اشترى بوتاجازا يحتفظ لى بوهج النار التى أطهو عليها حياتى ..

العقد بين البائع والمشترى لأن كل منهما لا يثق ولا يطمئن الى الآخر .. لا .. لن ألجأ إلى المأذون ليربطنى بك ويربطك بى .. ليس بيننا من يبيع نفسه للآخر أو يشترى الآخر .. اننا مرتبطان بقوة ارادتنا وحدنا.. إرادة تقوم على ارتباط شخصيتين كل منها بشخصية حرة .. حريتهما أوسع حتى عن القانون .. ومهمة المأذون هو اغتصاب هذه الحرية .. يخيل إلىّ أن المأذون انما يشد ورقة من دفتره ويلفها كأنه يصنع منها قرطاسا .. ثم يرفعنا نحن الاثنين ويلقى بنا فى هذا القرطاس .. لنعيش حياتنا كلها داخل قرطاس عقد الزواج .. لا .. انى لا أحتمل أن نعيش أنا وأنت داخل قرطاس الزواج .. اننا نعيش أحرارا منطلقين فى سماء ارادتنا .. ولسنا فى حاجة إلى مأذون شرعى يقبر إرادتنا تحت الأرض .. ويضع رقابنا تحت سيف القانون كأنه يهددنا به ..

وسكت رأفت وهو يزفر أنفاسه كأنه يستريح من مشوار طويل .. وقالت عليّة كأنها تحادث نفسها :

ـ هل نعيش الحرام أو الحلال ..

وقال رأفت من خلال زفراته :

ـ ان الحرام هو ما تخفيه عن الناس حتى لا تجاهرينهم بمعصية الله .. ونحن لا نخفى عن الناس لأننا لا نعصى الله .. فنحن نعيش فى الحلال ..

وقالت تائهة مع زفراتها :

ـ ان الحلال ليس ما ننفرد به دون بقية الناس .. إن الحلال هو ما يعترف به الناس ويعيشونه .. والناس لا تجمع بين رجل وامرأة إلا شرعا .. أى تجمعهم بعقد مكتوب على يد المأذون ..

وقال كأنه زهق من ترديد كلامه :

ـ إن المأذون يسجل إرادة هذا الرجل وإرادة هذه المرأة .. ونحن قد سجلنا ارادتنا باعلاننا وإشهارها بين الناس ..

ورفعت عينيها إليه وقالت كأنها قررت أن تلقى القنبلة :

ـ رأفت إنى حامل ..

وواجه عينيها بالدهشة كأنه فوجىء وتاه فى المفاجأة برهة .. وأخرج لسانه يبلل به شفتيه كأن دماءه قد جفت .. ولكنه ما لبث أن استعاد وعيه وعلت شفتيه ابتسامة تخفف من صدمة المفاجأة .. قال منطلقا :

ـ هل صحيح .. هل سأصبح أبا ..

وقالت وكأنها تقذفه بكلماتها :

ـ إذا لم نتزوج زواجا شرعيا على يد مأذون فلن تكون أبا ولن أكون أما .. فسنقتل مولودنا وهو لا يزال جنينا فى بطنى .. ولن أكون وحدى المسئولة عن قتله .. ستكون قاتلا معى .. فهو وليدنا نحن الاثنين ..

وصاح رأفت ثائرا :

ـ لماذا نقتله .. إن العالم كله سيعرف انه ابننا نحن الاثنين .. وسنكتب فى شهادة ميلاده اسم أمه .. عليّة .. واسم أبيه .. رأفت .. وشهادة الميلاد لا تفرض ابراز عقد الزواج .. يكتفى الاعتراف بإرادة الأب والأم انجاب مولود ..

وقالت كأنها تهم بالبكاء :

ـ أخاف على مولودى بأن يتهمه الناس بأنه ابن حرام .. ثم ما ذنبه أن يولد لوالدين لا يجمعهما الشرع الذى يدين به الناس.. أنك لم تأخذ رأيه قبل أن يولد فى اقتناعك بأننا لسنا فى حاجة إلى هذا الشرع ..وقد يعيش الدنيا وهو ساخط علينا نحن الاثنين .. يقتلنا لأننا جئنا به إثما حراما فى نظر كل الناس .. فلنقتله قبل أن يخرج إلى الدنيا ويقتلنا ..

وقال رأفت وقد بدأ يضعف فى مواجهة عليّة :

ـ إن مجرد اعترافنا به كأب وأم هو اعتراف وإعلان لشرعية ولادته ..

وصاحت عليّة ثائرة :

ـ لم أعد احتمل سماع هذا الكلام الذى تبرر به ما تصر عليه من أن أكون لك جارية ولست زوجة .. وقد كان الرجال ، زمان ، يعلنون ملكيتهم للجوارى .. ويعترف لهم الناس بهذه الملكية بمجرد إعلانها .. يعترفون بها كجارية مملوكة لهذا الرجل .. ويضعونها فى دنيا أخرى غير دنيا الزوجات ..

ولكن إذا أنجبت هذه الجارية أسرع الرجل وأعلن اعترافه بها كزوجة .. ونقلها إلى دنيا الزوجات .. حتى تكون أم ابنه ، زوجة لا مجرد جارية .. فإن الجوارى لا يعترف بهن كجاريات .. والمرأة لا يعترف بها كأم إلا إذا اعترف بها كزوجة .. وأنا قبلت أن أعيش معك جارية .. ولكنى لا أقبل أن أفرض على مولودى أن يكون ابن جارية .. لا يمكن أن يولد ويعيش إلا وهو ابن زوجة ..

وهم رأفت أن يرد عليها مجادلا ولكن عليّة صرخت فى وجهه ..

ـ قم الآن واذهب إلى أم حسنين البلانة وعد بها لتقوم بعملية قتل الجنين الذى فى بطنى .. لا أريد أن أذهب إليها وحدى .. فأنت الذى وضعت فى بطنى هذا الجنين وأنت المسئول عنه ..

وسقطت رأس رأفت على صدره وهو صامت .. ثم قام واقفا والقى العود الذى كان بين يديه ثم خطا خارجا وهو ينهج قائلا :

ـ انتظرينى ..

وخرج رأفت ..

وسقطت عليّة على وجهها ودموعها تعصر عينيها ..

□ □

ومضت ساعة ..

وعاد رأفت إلى البيت وبصحبته رجل يرتدى الجبة والقفطان وعلى رأسه عمامة ويحمل دفترا كبيرا للأوراق وبصحبته اثنان من الغرباء ..

وفتحت عليّة الباب لهم وانطلقت الدهشة صارخة على وجهها ..

من هؤلاء ؟

ورأفت لا ينطق بكلمة ..

ودخلوا وجلسوا ..

وانطلقت ابتسامة واسعة على شفتى عليّة .. ولسانها يترنح دون أن تتكلم كأنها تزغرد فى صمت .. لا شك أنه المأذون وبطانته ..

وشد رأفت عليّة من يدها وأجلسها بجانبه وقال للشيخ :

ـ اتفضل يا أستاذ .. لنبدأ .. على بركة الله ..

وفتح المأذون دفتره وأخذ يترنم ، ويسجل عقد الزواج ، ووقع عليه الغريبان اللذان جاءا معه كشاهدين . . وأم رأفت واقفة فى آخر الغرفة صامتة هادئة كأنها لا تدرى ماذا يجرى أمامها ..

وقام المأذون ومن معه وخرجوا بعد كلمات سريعة كأن لا معنى لها .. مبروك ..

وقفزت عليّة من فرحتها وحاولت أن تلقى نفسها على صدر رأفت .. ولكنه أزاحها فى رفق .. ومد يده إلى العقد الذى تركه المأذون .. أخذ نسخة منه وأخذ يلفها بين أصابعه ويجعلها فى شكل قرطاس .. ثم أخذ القرطاس وعلقه على الحائط .. وصاحت عليّة ضاحكة :

ـ ماذا تفعل ؟

وقال مبتسما ابتسامة ساخرة لا تخلو من مرارة :

ـ إنى أعلن الدنيا التى أصبحنا نعيش فيها .. ان دنيانا أصبحت فى هذا القرطاس .. قرطاس الزواج ..

وصاحت عليّة ضاحكة والسعادة ترقص فى مرح :

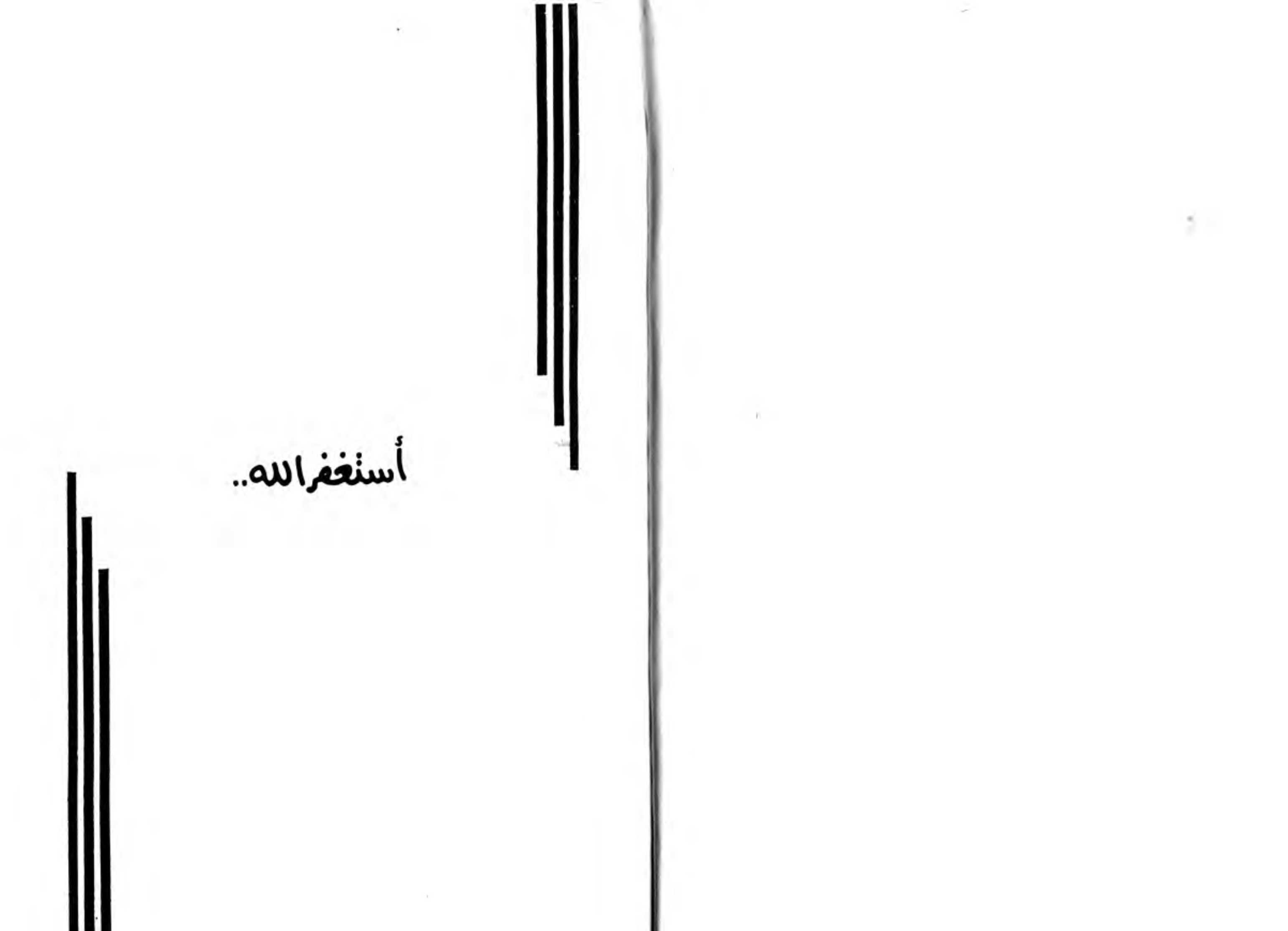
ـ إنها أجمل دنيا دخلت إليها لأعيش فيها .. والقرطاس واسع ..يساعنا أنت

وأنا .. ويساع أبناءنا .. ويساع حماتى .. ويساع كل ما يريده الله لنا ..

وقال وهو يستدير اليها ويأخذها بذراعيه إلى أحضانه :

ـ انى لا أحس بها قرطاسا يجمعنى بك وحدك .. وكل ما عدانا يحتاج إلى أن نقيمه فى قراطيس .. والدنيا كلها قراطيس معلقة كالقراطيس المعلقة على عربات باعة الترمس .. وقرطاس الزوجة .. وقرطاس البنوة .. وقرطاس الميزانية .. و .. و .. وقد كنت أحاول أن أعيش بلا قرطاس .. ولكنى لم أعد أطمئن إلا وأنا داخل قرطاس يجمعنى بك .. وبعدها سنبدأ فى جمع بقية القراطيس .. وسأعيش وأنا أجر عربة محملة بالقراطيس ..

ولم تحاول عليّة أن تفهمه .. وألقت نفسها بين شفتيه .. وهى تحس كأنها تغوص بينهما أكثر .. كأن الحياة لا تكتمل فعلا إلا داخل قرطاس ..


أستغفر الله..

لقد أصبح عادل الهجرسى يحس كأنه فيلسوف اجتماعى فقط .. أصبح يفلسف كل ما يحيط به من مظاهر الحياة بل أصبح يضع تفسيرا فلسفيا لكل فرد من أفراد المجتمع الذى يحيط به .. لقد ارتفع فوق القمة وأصبح يطل على الدنيا من تحته ، ويرى فيها مالم يكن يراه وهو يعيش فيها كمجرد واحد من أهل هذه الدنيا ..

وكان من بين المبادىء الفلسفية التى اكتشفها .. هو أن الفرد إذا غير عادة من عادات معيشته فإنه يجب أن يغير معها كل المجتمع الذى يعيش فيه .. فمثلا .. إذا قرر فرد يدخن السجائر أن يقلع عن التدخين فإنه يجد نفسه يبتعد عن كل المجتمع الذى كان يحيط به .. وهو مجتمع كل أفراده يدخنون .. وليس هو الذى اختار هذا المجتمع ولكنه وجد نفسه فيه منذ بدأ يدخن .. فإن التدخين ليس من غرائز الإنسان التى ولد بها وتشمل كل الناس .. ولكنه عادة مكتسبة من ناحية من نواحى المجتمع .. وقد يكون قد بدأ التدخين تقليدا لوالده حتى يصل مثله الى مظهر من مظاهر العظمة والقوة .. أو تقليدا لأصدقائه الذين سبقوه فى التدخين حتى يشاركهم فى استكمال مظاهر الرجولة المبكرة .. ويجد هذا الفرد نفسه يعيش وسط مجتمع كله من المدخنين .. فإذا قاوم التدخين وأقلع عنه وجد نفسه غريبا عن هذا المجتمع .. بل قد يجد نفسه غريبا حتى

عن أبيه الذى لايزال يدخن .. إنها غربة تفقده التجاوب الكامل مع عقلية ومظاهر المجتمع المدخن .. وهو يرى بعض الأفراد من غير المدخنين يترددون على مجتمع التدخين .. ولكنه يراهم كلهم كأنهم غرباء لايتحملون طويلا هذا المجتمع .. حتى بين الأخ وأخيه .. فقد يكون أحدهما يدخن والآخر لايدخن فإذا الواقع يفرض التباعد بينهما وكأن كلا منهما يعيش فى دنيا لا يعيش فيها الآخر .. وهو تباعد يفصل بين شخصية كل منهما وأخلاقه وأهدافه وأسلوبه فى الحياة ..

وقد وصلت به فلسفته الى محاولة اكتشاف السر فى تعود التدخين رغم أنه ليس من معالم غريزة الانسان ، انما هو مجرد اكتساب لعادة من العادات .. واكتشف بما أقنع نفسه به .. وهو أن التدخين هو تعود على تقاليد مجتمعات أجنبية خارجة عن المجتمع المصرى .. فإن التدخين لم ينتشر كل هذا الانتشار فى المجتمعات المصرية إلا بعد الاحتلال البريطانى .. وأصبح يمثل مظهرا من مظاهر قوة الانجليزى .. واندفع أفراد المجتمع المصرى يحاولون اكتساب هذا المظهر بأن يدخنوا كما يدخن الانجليز .. وقبل الاحتلال البريطانى كان المنتشر فى المجتمع المصرى هو تدخين الشيشة .. لأن الشيشة كانت تمثل المجتمع التركى .. وكانت تركيا هى التى تحتل مصر والشيشة تعتبر مظهرا من مظاهر العظمة والقوة التركية ، ولذلك اندفع المجتمع المصرى إلى محاولة اكتساب هذا المظهر بتدخين الشيشة كما يدخنها الأتراك .. وحتى الجوزة لابد أنها جاءت الى مصر من الخارج ، فليس فى كل ما خلفه قدماء المصريين من آثار ما يثبت أنهم كانوا يعرفون الجوزة ، وأن تدخينها كان منتشرا بينهم كانتشارها داخل المجتمع المصرى هذه الأيام ..

وعادل الهجرسى يمكن أن يتحدث طويلا ، ويعرض تفاصيل فلسفته حول انتشار التدخين فى مصر .. ولكن ليس المهم هو التدخين .. وهو نفسه يفرط فى تدخين السجائر والشيشة والجوزة ولا يخطر على باله أبدا أن يقلع عن

هذا التدخين .. إنما المهم هو تعود تعاطى الخمر ..

وهو يذكر إنه شرب الكأس الأولى وهو طالب فى الجامعة وكان يصحبه صديقه نبيل .. أو بلبل كما تعود أن يناديه .. وكان قد دعاه صديق أكبر منهما سنا إلى بيته وقدم لهما الكأس مؤكدا أنها تفتح شهيتهما قبل تناول العشاء .. وقد فتحت الكأس شهيتهما فعلا .. وقضيا مع صديقهما سهرة لا تكف فيها الضحكات .. ولم تكن الضحكات هى كل شيء،فقد بدأوا من ليلتها يتبادلون الأفكار .. وكانت أفكارا تعلن عن عبقرية كأنها كانت مدفونة .. وعن جرأة فى مواجهة الواقع الذى كانوا يعيشون مستسلمين له .. وقد انتهى عادل ليلتها وهو ليس مخمورا .. ولا يمكن اعتباره سكرانا .. إنه يسير طريقه فى خطوات عادية ويقول كلاما ليس فيه أى كلمة شاذة ، أو كلمة لايقصدها ولا يعيها ..

ومن يومها أصبح هو وصديقه بلبل يتعمدان البحث عن الكأس .. ولم يتعودا أن يبحثا عنها كل ليلة أو يجداها فى أى ليلة يريدانها .. وكان بلبل تغلبه شهوته أحيانا فيمد يده إلى مخبأ زجاجات الخمر الذى يحتفظ بها أبوه فى البيت ويحرم ابنه منها لأنه لايزال طالبا يذاكر دروسه .. يصب بلبل كأسا له وكأسا لصديقه عادل .. ثم يعودان الى المذاكرة .. كأس واحدة لكل منهما .. كأنهما يريدان مذاق الخمر لا مفعولها ..

إلى أن تخرجا كلاهما فى الجامعة .. وتخرجا بامتياز ووجد كل منهما عملا مشرفا مجديا .. وقد أصبحا يجتمعان كل ليلة فى بيت بلبل وزجاجة الخمر بينهما .. أو يكونان مدعوين إلى صديق يقدم لهما الزجاجة أيضا .. إنهما ودون تعمد أصبحا يختاران تلقائيا الأصدقاء الذين يقبلون قضاء السهرة معهم وكل منهم يقدم الزجاجة .. وعادل نفسه لم يكن يستقبل بلبل فى البيت ولا يدعو اليه الأصدقاء ، فليس فى بيته زجاجات ، وأبوه يحرم بشدة تقديمها ، ويعتبر

مجرد وجودها رجساً من عمل الشيطان .. وأصبح كلما أحس بواجب المجاملة ورد الجميل أن يدعو أصدقاءه إلى كأس فى أحد المحال أو الفنادق العامة .. وطبعا لم يعد عادل أو بلبل يكتفيان بكأس واحدة .. ولكنهما لم يصلا الى منتهى الإفراط .. كأسان أو على الأكثر ثلاثا .. انهما لم يسرفا فى تعود الاستسلام للخمر حتى يفقد أحدهما وعيه واتزانه..

وكانت شهيرة أخت بلبل تشاركهما جلسات الليالى .. وكانت هى أيضا وهى لاتزال عذراء تشرب كأسا أو اثنتين .. إن الكؤوس معترف بها فى تقاليد هذه العائلة ..

وقد جمع الحب بين عادل وشهيرة .. وربما كان حبهما لا علاقة له بالكأس أو لم تدفعهما الكأس اليه .. ولكنهما كانا أشد احساسا بهذا الحب ، وأشد جرأة فى التعبير عنه بعد أن يرتشفا الكأس الأولى ..

وقد تزوجا ..

وأصبح بيتهما لايخلو أبداً من الزجاجة ، والكأس تجمعهما كل ليلة .. وقد يكون معهما بلبل أو يكونان قد وجها الدعوة لبعض الأصدقاء .. وأغلب الليالى وحدهما .. والزجاجة والكأس دائما تشاركان فى إحياء سهرتهما .. إن كل مظاهر وأحاسيس الحب بينهما لا تتجمع وتتركز إلا مع الكأس .. بل إن شهوة كل منهما إلى الآخر لا تنطلق إلا مع الكأس .. حتى أنهما تعودا ألا يذوق كل منهما قبلة الآخر إلا ومعهما ما تتركه الكأس من رائحة تنطلق الى الشفاه .. كأن كلا منهما يقبل كأسا فى شفتى الآخر .. كأس معطرة برائحة الويسكى ، أو الكونياك ، أو النبيذ ، أو الجين .. وهذا لم يغير من طبيعتهما التى لاتتركهما يفرطان فى تناول الكأس .. فقط كأسان لكل منهما ويصلان أحيانا الى ثلاث كؤوس أو إلى أربع .. دون أن يصلا إلى أن يكون أحدهما فى حالة هذيان السكارى ..

وقد مرت السنوات وهو فى منتهى السعادة بزوجته وبنجاحه فى عمله ..

إنه يبنى نجاحه بسرعة .. وكل فكره أصبح مركزا فى تحقيق مزيد من النجاح .. ثم وجد نفسه لا ينتظر ساعات المساء التى تجمعه خلالها الكأس مع زوجته .. إنه أحيانا ينسى الكأس إلى أن تذكره بها زوجته شهيرة وتدعوه إليها صارخة كأنه قد نساها هى شخصيا .. ويعود ويلتقط الكأس ، ولكن ليس فى منتهى الاقبال الذى تعوده .. بدأ يحس كأن الكأس تعكر تركيز فكره على مشروعاته التى يحقق بها نجاحه ، والتى أصبحت تأخذ كل عقله فى كل ساعات يومه .. بل إنه أصبح يضيق بجلسات الكأس مع صديقه بلبل ، ومع بقية أصدقاء الكأس .. أصبح يعانى وهو جالس معهم فى إبعاد فكره عن مشروعات نجاحه حتى يتفرغ للاشتراك معهم فى أحاديثهم المنطلقة بلا مسئولية .. وأصبح يحس بضحكاتهم كأنها قطع من الحجارة يقذفونه بها حتى يضحك معهم .. وحتى لو ضحك لايحس بمتعة الضحك كاملة كما كان يحس بها .. ورغم ذلك فهو لايزال يرفع الكأس الى شفتيه كأنه يحترم تقاليد عائلية ثابتة لا يستطيع أن يخل بها ..

إلى أن دهمته حالة أخرى بدأت تسيطر عليه .. فإن استمرار نجاحه فى عمله بدأ يشعره بفضل الله عليه .. وكلما نجح فى تحقيق مشروع أحس بدافع قوى الى أن يصلى شكرا لله .. ثم بدأ يسائل نفسه عن اهماله أداء فريضة الصلاة .. لماذا لا يصلى دائما وكل الصلوات الخمس .. إن كل أفراد عائلته يؤدون الصلاة كاملة .. أبوه يصلى .. وأمه تصلى .. وأخوه الأكبر يصلى .. وأخته تصلى منذ كانت طفلة ولاتزال متمسكة بأداء الصلاة بعد ان تزوجت وأنجبت .. كان هو وحده فى العائلة كلها الذى لايواظب على الصلاة .. كان يدعى أحيانا أداء الصلاة إرضاء لوالده .. ولكنه لا يشغل نفسه أبدا بدوافع أداء الصلاة .. كأنه الكافر الوحيد بين أفراد العائلة .. ربما كانت هذه إحدى النوازع التى كانت تسيطر على صباه وشبابه .. نوازع الانطلاق بالحرية حتى حرية التخلص من نوازع الدين .. ولكنه الآن لا تسيطر عليه هذه النوازع .. فلماذا لا يتخلص منها ، ويبدأ فى أداء كل فروض الصلاة .. إنه يؤدى فرض الصيام فى رمضان بحكم التعود ، فلماذا لايعود نفسه أيضا على الصلاة ..

وبدأ يؤدى فروض الصلاة فعلا .. بل أن دوافعه الى الصلاة أصبحت أقوى من دوافعه الى صيام رمضان .. إنه يصوم بحكم التعود ، ولكنه يصلى بحكم وصوله الى استكمال إيمانه بفضل الله عليه وحاجته اليه ..

وكان يؤدى فروض الصلاة فى البيت .. وزوجته شهيرة تنظر الى ماجدّ عليه وهى ساخرة .. لقد عرفته وأحبته وتزوجته وهو لايصلى .. فماذا جدّ عليه .. لعله استجاب لنوازع شاذة أو لمظهر من مظاهر الجنون ..ولم يقلقها شذوذه أو جنونه فانه لاشىء ينقص من حولها .. وهو لايحاول أن يفرض عليها أن تبدأ هى الأخرى فى أداء فروض الصلاة .. إنه يتركها الى أن يدهمها هى الأخرى دافع الصلاة .. لقد عرفته وأحبته وتزوجته ، وكلاهما لا يصلى ، ولكنه أصبح يصلى وربما دفعها الحب الى أن تصلى معه حتى لاتتركه وحده فى صلاته .. حتى تقف معه بين يدى الله ليباركهما معا ويشملهما برضائه سبحانه وتعالى وهما معا .. هكذا كان يتمنى .. ولكن لاشىء يدفعها الى تحقيق أمنيته بأن تصلى معه .. إنها ليست فى حاجة الى شىء من الله ، ولاينقصها شىء منه هو شخصيا ..

حتى الكأس لم تنقصها ..

لاتزال الكأس تجمعها بزوجها كل مساء .. وكل ما تغير فيه أنه لم يعد يقرب الكأس إلا بعد أن يصلى صلاة العشاء مكتفيا بأن يفرض على نفسه الأمر بأن لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى .. إنه لايقرب الصلاة بعد أن يبلل شفتيه بالخمر حتى ولو لم يكن قد أصبح سكران ، ولذلك فهو لا يقرب الكأس إلا بعد أن يؤدى كل فروض الصلاة ..

ولكنه يزداد نفورا من الكأس .. بينما شهيرة تزداد إقبالا على الكأس حتى أصبحت كأنها تغرق نفسها فيها .. إلى أن خطر له خاطر آخر وهو جالس معها وأمام كل منهما كأسه وقال مبتسما وهو يحتضنها بعينين تبرقان بحبه :

- شهيرة ..إننا نعيش فى بيت واحد .. وننام فى فراش واحد .. وكل ما فى الحياة نعيشه معا .. فلماذا لا نشرب من كأس واحدة ..

وقالت فى دهشة كأنها لاتفهم وكأسها فى يدها :

- ماذا تقصد ؟

وقال وهو يلفها بمزيد من الحب :

- أقصد أن يكون لنا نحن الاثنين كأس واحدة .. أنت تأخذين رشفة من الكأس وأنا رشفة من نفس الكأس .. حتى لايكون لكل منا كأس تبعده عن الآخر .. إن رشفة الكأس كأنها همسة .. فلتجمعنا الهمسات فى كأس واحدة ..

وأطلقت شهيرة ضحكة عالية كأنها وجدت لعبة جديدة تلعب بها .. وأبعدت كأسها من أمامها ، ومدت يدها إلى كأسه ورفعتها الى شفتيها وارتشفتها .. ثم مدت يدها بها إلى شفتيه ليرتشف هو الآخر رشفة منها .

وقد كان يظن أن هذه الفكرة ستخفف عنها ثقل الخمر .. فقد أصبح هو الذى يمسك بالكأس ويرتشف منها .. وقد يدعى الارتشاف دون أن يرتشف منها ولاقطرة .. ثم يمدها إلى شفتيها .. ويسحبها قبل ان تتمادى فى ارتشافها .. ثم يعلن النهاية فى الوقت الذى يحدده ويدعوها الى الفراش ..

ولكن الفكرة لم تحقق ما يريد .. فلا هى أصبحت تخفف من شرب الخمر .. ولا هو أصبح مستريحا من الخمر .. رغم أنه لم يعد لهما سوى كأس واحدة .. إنها تمد يدها الى الكأس قبل أن يمد يده إليها .. وتسكب فى جوفها ما تريد دون أن تتركه يتحكم فيما تريده .. ثم تعطيه الكأس وقد لاتنتظر حتى يرشف منها وتعود وتأخذها إلى شفتيها .. أو قد تصل الكأس اليه ، ويكتفى بأن يبلل شفتيه بما فيها دون أن يسكبها فى بطنه .. ويظل محتفظا بها فى يده مدعيا أنه لايزال يشرب فلا تمهله طويلا وتشد الكأس إلى شفتيها ..

إنها مدمنة ..

ولا يمكنه أن يخفف من ادمانها ..

وأخيرا ثار على نفسه لتردده وتحايله في ما يريده .. وهو يريد أن يقلع عن شرب الخمر .. أن يحرمها ولو على نفسه وحده .. حتى هذه الرشفات من الكأس التى يبلل بها شفتيه أصبحت تتعبه كأنها رشفات من النار تشعل أمعاءه وتهرى معدته ، ثم ترتفع الى رأسه وتصيبها بصداع مؤلم عنيف يستمر حتى صباح اليوم التالى .. إنه لم يعد يحتمل شرب الخمر .. إلى أن كانت إحدى الأمسيات وجاءت زوجته شهيرة بالزجاجة والكأس ووضعتها بينهما وهى تجلس بجانبه .. ومد يده والتقط الكأس ثم ألقى بها على الأرض بعنف .. وتحطمت الكأس .. وهو يصرخ :

ـ لن أترك الكأس تصل الى شفتى .. خلاص .. لن أشرب الخمر ..

ونظرت إليه شهيرة فى ذهول .. ثم تخلصت من ذهولها ، وقالت فى برود :

ـ أنت حر .. وأنا حرة ..

ثم مدت يدها والتقطت كأسا أخرى صبت فيها الخمر ورفعتها الى شفتيها وشربت كل ما فيها فى جرعة واحدة .. كأنها تغيظه وتتحداه ..

وقضيا هذه الليلة وهو جالس معها صامتا يقلب فيما يصل الى يده من صحف أو أوراق ويطل بعينيه على السطور دون أن يقرأ منها شيئا .. أو يفتح الراديو يحاول أن يستمع اليه .. أو التليفزيون يحاول أن يتتبع بعينيه ما يعرض أمامه دون أن يرى شيئا .. وهى بجانبه صامتة أيضا تملأ الكأس ثم تصبها فى جوفها الى أن اكتفت فقامت مبتعدة عنه الى الفراش وهى لاتزال صامتة ..

ولعله أحس بأنه يجب أن يخفف عنها صدمتها بأن تركها تشرب الخمر وحدها .. فقام ولحق بها على الفراش ومد ذراعه يحتضنها .. ولكن ما أن همّ بأن يضع شفتيه على شفتيها حتى دهمته الرائحة المنطلقة منها .. رائحة الخمر .. وقد كان لايشم هذه الرائحة وهو مخمور مثلها تنطلق منه هو أيضا نفس الرائحة .. أما الليلة وهو لم يشرب الخمر فلم يستطع تحمل رائحته .. إنه يحس بها كزوبعة كريهة تعصف به .. وهى أيضا .. انها تحس بشفتيه كأنهما شفاه ميت فقد الحياة ..

ومضت الأيام مع مزيد من التباعد حتى أصبحت شهيرة تقضى أمسياتها وحدها مع الكأس ، بينما عادل وحده فى الغرفة الأخرى يقرأ أو يشاهد التليفزيون .. وهو يتمنى كأنه يحلم بأن تصدر الحكومة المصرية أمرا بمنع الخمر وتحريم وجوده تطبيقا لأوامر الاسلام ، ولكن فى مصر أديان أخرى لا تحرم شرب الخمر .. ومجرد اصدار هذا الأمر بالتحريم لايعنى ألا يشرب أحد ، ولكنه يفرض صفة اجتماعية تقلل من الاقبال على شرب الخمر ، وتحريم الحشيش لم يقض عليه ، ولكنه أقام صفة اجتماعية جعلت مجال الحشيش ضيقا على الأقل ، جعلت أى فرد ينكر أنه حشاش حتى لو كان حشاشا .. وقد يؤدى تحريم الخمر أيضا الى أن يصبح شربها سرا يختبىء به الشاربون وليس مظهرا علنيا يتباهى به الشاربون .. ولكن المشكلة أساسا هى أن الدول المصدرة للخمور هى دول راقية ، وأى دولة أخرى تحرم الخمر تدخل فى معركة أقرب الى الحرب ، وقد سبق أن حرمت أمريكا الخمر فدخلت فى معارك استمرت سنوات مع باعة الخمر تساندهم كل الدول التى تصنع الخمر وتصدره .. وانتهت هذه المعارك بهزيمة الدولة الأمريكية وعادت إلى إباحة الخمر .. لا أمل فى أن يتمنى بأن يصدر أمر بتحريم الخمر حتى يفرضه على زوجته شهيرة ..

إلى أن فوجىء ذات ليلة باختفاء زوجته .. إنها ليست فى غرفة الجلوس

تشرب كأسها .. ليست فى البيت كله .. وكاد يجن .. أين ذهبت .. لايمكن أن تكون قد انتحرت بعد أن هجر ليالى الكأس معها .. وأمسك بالتليفون وأخذ يسأل عنها لدى كل من تعرفهم الى أن وجدها لدى أخيها .. إنها معه .. تشرب معه .. وكانت حجتها بسيطة .. إنها لا تستطيع أن تستسلم للانفراد طول عمرها بكأسها .. وأخوها يشرب فقررت أن تعيش وهى تشرب معه ..

وقد استسلم ، وإن كان قد حاول أن يقنع أخاها بأن يأتى الى زيارته فى البيت ، ويشارك زوجته الكأس هنا لا هناك .. ولكن أخاها قال ضاحكا :

إنى لا أطيق أن أجلس وفى يدى كأسا وأمامى واحدا يرفض الكأس ويحلق فى كأنه يتمنى أن يخنقنى حتى لا أصب الكأس فى زورى ..

وأصبحت هذه هى حياتهما .. تذهب كل ليلة لتشرب الكأس مع أخيها .. وطبعا ليس أخوها دائما وحده فكثير من أصدقائه يجتمعون كل ليلة فى سهرة خمر .. ولعل زوجته شهيرة تنضم إليهم وتقضى السهرة بينهم وهى سكرانة .. ترى ماذا يقال وماذا يحدث .. والأوهام تلهب أعصاب الزوج المستسلم الضعيف .. وقد بدأ عادل يناقش نفسه .. إنه يحب زوجته ويريدها ، فإذا كانت الكأس هى أقوى ما يجمعهما ، فلماذا يهجر الكأس .. لماذا لا يعود ويشرب الخمر حتى يحتفظ بحبه .. إن الاسلام لا يمكن أن يقسو على المؤمنين به الى أن يحرمهم من الحب الشرعى حتى لو كان من المكتوب عليهم أن يتحدوا التقاليد ، ويشربوا الخمر ..

وبدأ فى إحدى الليالى يشرب .. كان وحده .. زوجته تركت البيت إلى أخيها كما تعودت أخيرا .. وقد جاء بزجاجة الخمر ومعها الكأس ، وجلس الجلسة التى كان يجلسها مع زوجته وهى تشاركه الخمر .. بل أنه جاء بكأس أخرى ووضعها على المائدة كأنها كأس زوجته وفى انتظار أن ترشف منها .. وهو يبتسم ساخرا بينه وبين نفسه .. لقد وصل إلى حد أن أصبح يجلس وحده

ويشرب وحده .. مع أنه لا يريد من الكأس إلا أن تجمعه بزوجته .. ولكن لليلة واحدة يفرض على نفسه فيها العودة إلى شرب الخمر .. وغدا سيشربها معها .. لن يتركها تغادر البيت بحثا عن من يصاحبها الكأس ، ستجمع الكأس بينه وبينها وحدهما .. فى الغرفة التى كانا يقضيان فيها ساعة يعدان نفسيهما للانتقال إلى الجنة التى تجمعهما فوق فراشهما ..

ورفع الكأس وشرب أول رشفة .. وأحس كأنه يشرب المر .. لم يعد يحس بأى متعة فى الكأس .. وشرب الرشفة الثانية ، وكأن النار قد اشتعلت فى معدته ومصارينه .. ولم يعد يحتمل بل أنه بدأ فى الصراخ وهو يتلوى على مقعده وهو يضغط بيديه على معدته ومصارينه .. ولم يعد يجرؤ على مجرد التفكير فى الرشفة الثالثة .. وليعترف بالحقيقة .. إنه لم يقلع عن شرب الخمر لمجرد التمسك والصلاح ، ولا تمسكا بتعاليم الدين الاسلامى .. إنه أقلع عن شرب الخمر لأنه لم يعد يحتمل شربها .. إنه مريض ولم تعد أمعاؤه تحتمل تلقى الخمر .. إنه لم يهرب من الخمر ، ولكنه يهرب من الآلام التى أصبحت الخمر تصبها على معدته وأمعائه ، وتشتد حتى ترتفع إلى عقله ويحس بأن رأسه يكاد ينفجر من جحيم الصداع .. هذه هى الحقيقة .. لقد هجر شرب الخمر لأن معدته لم تعد تحتمل شربه .. انه لم يتطور فى إيمانه بتعاليم الدين وفى تمسكه بشعائر الفضيلة ، ولكن صحته هى التى تطورت وتركته وهو لا يحتمل أن يشرب الخمر .. معدته ومصارينه هما اللذان فرضا عليه الامتناع عن شرب الخمر .. وليس عقله هو الذى ألح عليه حتى أخذه إلى دنيا الإيمان بتعاليم الدين وإلى دنيا الفضيلة ..

إذن فليس من حقه أن يلوم زوجته شهيرة لأنها لا تريد أن تشاركه فى الامتناع عن شرب الخمر .. إنها ليست مريضة مثله .. والخمر لا تسبب لها الآلام التى تسببها له .. إنها لاتزال تجد فى الخمر متعة الطيران إلى أعلى بعيدا عن هموم الدنيا .. ليس من حقه أن يلومها اذا لم تمتنع معه عن شرب

الخمر .. ان الأسباب التى دفعته إلى التوبة عن الخمر لا يستطيع أن يفرضها على زوجته شهيرة .. لايستطيع أن يفرض عليها هى الأخرى أن تمرض بمعدتها ومصارينها حتى لاتقبل الخمر .. ولكن كان يمكنها أن تكتشف انه مريض وتراعى واجبها بعد أن أصبح مريضا فتمتنع هى الأخرى عن شرب الخمر حتى لا تتركه وحيدا مع المرض .. ان واجب الزوجة الكاملة أن تراعى حالة زوجها وتعيش فى حدود ما تستطيعه حالته .. إنها ليست مريضة ولكن زوجها مريض وهذا يكفى لتبتعد عن الكأس .. ولكن شهيرة ليست زوجة كاملة .. وهو يحبها رغم أنها ليست كاملة ..

وهذه الخواطر التى تزحف عليه ويقضى ساعاته فى مناقشتها جعلته يتحمل أكثر ، الاستسلام لكل تصرفات زوجته شهيرة .. وقد أحس أنه أصبح يعتمد على بركة الله وحده فى تحمل هذا الاستسلام .. ووجد نفسه يتقرب إلى الله بأداء المزيد من فروض الدين .. أصبح يبالغ فى أداء الصلاة ويصلى التراويح .. ويحرص على صلاة الجماعة فى المساجد .. وأحيانا تطوف على شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يسأل نفسه .. هل كانت زوجته شهيرة يمكن أن تصلى معه .. إنها طوال عمرها كله لم تتجه إلى الله بركعة واحدة .. وهى ليست كافرة ولكن لعلها أقنعت نفسها بأن الله فرض الصلاة على الغلابة الجهلة .. وهى ليست من الغلابة الجهلة .. إنها تصل إلى الله بالمناقشة الواعية التى تفرض الحلال .. وتصل اليه بأن تمتع نفسها بالحياة لأنه هو الذى خلقها ووضعها فى هذه الحياة ..

إلى أن فوجىء فى إحدى الأمسيات بزوجته وقد جلست حيث تعودا أيام زمان أن يقضيا أمسياتهما ، وقد وضعت أمامها زجاجة الخمر وكأسا واحدة .. كأنها استسلمت هى الأخرى أنها لن تجد فى بيتها من يستحق كأسا أخرى .. ووقف أمامها كأنه مذهول بهذه المفاجأة .. لماذا لم تذهب هذه الليلة لتشرب الكأس مع أخيها .. ونظرت إليه نظرة عادية وبين شفتيها ابتسامة كأنها تربت

بها على خده .. كأن ليس هناك جديد تحمله هذه المفاجأة ، وقالت من خلال إبتسامتها :

- اجلس ياعادل .. واسمعنى .. لقد مرت الآن شهور ولم نعد نستطيع أن يعود كل منا إلى الآخر كما كنا .. لذلك فإنى أجد إنه من الأفضل أن تكون لكل منا حياته .. أى أن ننفصل .. ولا تكون زوجى ، ولا أكون زوجتك ..

وصاح مذهولا :

- ماذا تقصدين ..

قالت وهى لاتزال تبتسم :

- أقصد الطلاق .. وكل منا يصبح حرا فى بناء حياته من جديد ..

وقال فى ضعف يهز صوته :

- ولكننا نعيش أحرارا بلا طلاق .. أنت حرة فى كل حياتك ، وأنا حر رغم أننا زوجان ..

وقالت فى حدة كأنها تهدد :

- إن مجرد أن نعيش فى بيت واحد لا يعتبر زواجا .. إننا مطلقان داخل البيت فلنجعلها حياة طبيعية ونعيش الطلاق كله دون أن يجمعنا بيت .. إنى مصممة على الطلاق ، ولا تجعلنى ألجأ إلى وسائل أخرى ..

وأحس بالثورة تزحف عليه وتثير أعصابه وصرخ فى وجهها :

- لم يكن يجمعنا إلا الحب الذى عشناه منذ صبانا .. فما دام الحب قد تخلى عنك فأنت طالق .. طالق .. طالق..

وتركها خارجا بعد أن مد يده ورفع زجاجةالخمر من أمامها وألقى بها على الأرض وحطمها .. ونظرت اليه شهيرة ساخرة وتتبعته حتى اختفى ، ثم فتحت الدولاب وأخرجت زجاجة أخرى .. وعادت تشرب ..

وقد ذهب,وأقام مع عائلته وتركها تعيش وحدها فى بيتهما .. إن يعتبر أنه طلقها فعلا ، ولكنه لم يتخذ أى إجراء رسمى لتسجيل وإعلان هذا الطلاق .. وهى أيضا لم تطالب بإجراءات إعلان الطلاق .. يكفى أن كلا منهما قد أصبح يعيش وحده ليكونا مطلقين .. وهو يعيش معها فعلا طوال كل يوم .. لايكف عن التفكير فيها وتخيل تصرفاتها .. ترى كيف تعيش وكيف تفكر وهو بعيد عنها .. ربما كانت قد طلبت الطلاق لأنها تريد أن تتزوج واحدا من شلة الخمر التى تجمعها فى السهر مع أخيها .. مستحيل انها لا تستطيع أن تتزوج ، فهو لم يتخذ إجراءات الطلاق وإن كان يعيشان كمطلقين .. وعلى كل حال .. فإذا كان من حقها أن تبحث عن زوج آخر فهو من حقه هو الآخر أن يبحث عن زوجة أخرى .. ولايكفى أن تكون هى الأخرى على خلق وشريفة ومن عائلة محترمة ..و..و.. إلى آخر اللائحة التى تحدد عملية البحث عن زوجة .. إنما يجب أن تكون معه فى كل تفاصيل الحياة .. حتى يمكن أن تجمعهما حياة فى هذه الدنيا فهو الآن لايشرب الخمر فيجب أن تكون هى الأخرى لاتشرب .. وهو يعانى ضعفا فى معدته ومصارينه ، فيجب أن تكون لها معدة ومصارين تعانى هذا الضعف .. على الأقل حتى يعيشا داخل أصناف واحدة من الأغذية .. والأهم من ذلك أنه الآن فى الخامسة والأربعين من عمرة ، فيجب أن تكون هى فى الأربعين على الأقل .. فإن الزواج لاينجح إلا اذا جمع بين اثنين من جيل واحد .. أى أنه يجب أن يتزوج من جيل الأربعين ..

وقد مضت شهور طويلة وهو يعيش وحدته فى بيت عائلته دون أن يمضى يوما دون أن يقضيه مفكرا فيها ومتخيلا حياته بعيدا عنها .. إنه يحبها .. ولا يستطيع أن يطلق حبها حتى لو طلقها هى شخصيا .. وكان فى هذه الشهور قد بدأ يحس باسترداده لكامل قوة كيانه .. حتى قوة معدته ومصارينه .. والفضل طبعا لرعاية أمه التى كانت مشرفة على كل تفاصيل حياته ، بل وعلى كل لقمة تدخل إلى فمه ويأكلها .. وكانت مؤمنة بأن أقوى ما فى الطب هو

الاستسلام للطبيعة .. حتى أنها منذ يومين وضعت أمامه لقمة ساندويتش من الفسيخ .. مادام خلق الله قد اكتشفوا الفسيخ منذ آلاف السنين فلاشك أن فى الفسيخ فوائد دفعت خلق الله إلى اكتشافه فلماذا لا يجرب أكل الفسيخ .. وقد أكل ساندويتش الفسيخ مرغما تحت إلحاح أمه .. ولكن من العجيب أنه أحس بالراحة فعلا بعد أن أكل الفسيخ .. أحس كأن معدته ومصارينه قد استردتا كل قواها كأنها كانت تلعب لعبة رياضية مع الفسيخ .. إلى أن سأل نفسه يوما .. لماذا لا يجرب .. وليعترف بالواقع .. لقد حرم على نفسه شرب الخمر لأنه كان قد أصبح لايحتملها فى بطنه .. فليجرب .. ربما يستطيع الآن أن يتحملها .. وفعلا ذهب واشترى زجاجة من الخمر .. وأعد الكأس .. وردد فى منتهى الإخلاص .. استغفر الله .. استغفر الله .. استغفر الله . . ثم صب الكأس بين شفتيه .. عجيبة .. إنه لايحس بأى قلق ولا أى ألم .. إنه يستطيع الآن أن يشرب .. أن يعود إلى الخمر ..

ورفع سماعة التليفون بسرعة واتصل بزوجته شهيرة .. إنها فى البيت .. ولم ينطق بأى كلمة .. أعاد سماعة التليفون ، ثم قام مسرعا مهرولا بعد أن حمل زجاجة الخمر فى يده .. وركب سيارته وانطلق مسرعا إلى بيته .. بيت الزوجية القديم ..

ودخل البيت وشد شهيرة من يدها وأجلسها حيث تعودا أن يجلسا أيام زمان لقضاء الأمسيات ووضع بينهما زجاجة الخمر ، ثم قام وأتى بكأس لها وكأس له .. وبدءا يشربان ..

وقال بعد الكأس الأولى ..

لنعد كما كنا ..

وقالت وهى تلقى بنفسها فى أحضانه :

- لقد كنت دائما معى .. لا يشغلنى عنك إلا الكأس .. والآن كلاكما معى .. أنت والكأس .. وشفتاه فى شفتيها .. كأنه يشرب الخمر من أنفاسها ..

وعادا ..

ولم يتغير منه شىء الا أنه يغالى فى أداء الصلاة حتى صلاة العشاء ، ولا يكف عن أن يردد بينه وبين نفسه .. استغفر الله .. استغفر الله .. استغفر الله ..

غريبان من بطن واحدة ..

لم يكونا شقيقين ولكنهما أخوان .. من أم واحدة وكل منهما له أب .. الاسم الثانى .. أى اسم العائلة .. فكل منهما يحمل اسم أبيه .. الأخ الأكبر محمود الصفرانى .. والأصغر مصطفى عبدالخالق .. ومجرد اختلاف الاسم الثانى كان يشعر كل منهما بأنه غريب عن الآخر ولايشعران حتى بأنهما من أم واحدة .. ورغم ذلك فقد عاشا مرحلة طويلة من العمر وهما فى بيت واحد ، وتحت رعاية أم واحدة وأب واحد .. وقد تعودا كلما التقيا بغريب عنهما أن يذكرا له بعد إعلان اسميهما له بأنهما أخوان .. لأن الاسم وحده لايكفى لإعلان اخوتهما .. ولا حتى هناك تشابه بينهما يثير افتراض اخوتهما .. فكل منهما لم يأخذ شيئا من ملامح أمه تشركه مع الآخر فى تشابه واحد .. بل إن كلا منهما صورة من أبيه .. الأخ الأكبر محمود الصفرانى طويل القامة وبشرته لها لون أسمر فاتح وأنفه كبير مدلى حتى شفتيه .. وشعر رأسه ناعم منظم فوق رأسه .. الأخ الأصغر مصطفى عبدالخالق قصير القامة .. وبشرته لها لون أسمر غامق .. وكل ما على وجهه صغير .. أنفه صغير .. وشفتاه فى خط ضيق رفيع .. وعيناه ضيقتان .. وشعر رأسه أكرت منطلق بلا تنظيم كأنه حشائش برية سوداء تغطى قطعة من الأرض ..

ومنذ أن انطلق وعى كل منهما بالحياة وهما مختلفان فى كل ما تدفعهما

إليه هذه الحياة .. كأنهما متناقضان .. ووصل بهما التناقض إلى حد التباعد بينهما .. كان كل منهما لايطيق الآخر .. محمود لايطيق مصطفى .. ومصطفى لايطيق محمود ..

ولم يكن دافع هذا التناقض هو أن كلا منهما يعيش فى رعاية أب غير أب الآخر .. فأب محمود قد مات قبل أن يراه .. وأب مصطفى رغم ما هو معروف عنه من صرامة عنيفة إلا أنه لايفرق فى معاملة الولدين ..حتى من ناحية إحساسه وعواطفه .. فلايبدو أنه يفرق فى إحساسه بإبنه عن إحساسه بإبن زوجته .. بل كلاهما نشأ وكأن هذا الأب لايحس بهما هما الاثنان .. إنه صارم فى فرض إدارة حازمة على بيت العائلة تجمع كل من فيه .. وربما لايحس بالبيت إلا كدكان من أحد دكاكين مشروعاته المتعددة التى يديرها وينجح فى إدارتها .. بل إنه يبدو كأنه لايخص ابنه بما يميزه حتى يكون قادرا على صيانة الإرث من بعده .. إن ابنه هو الذى سيرثه فى حين سيبقى الابن الآخر بعيدا عن هذا الإرث .. ولكنه لايشغل نفسه بمصير هذا الإرث .. أما أمهما .. وهى الكيان الذى أنجبهما من بطن واحدة .. أمدهما بماء الحياة من كوز واحد .. فهى امرأة طيبة فى غاية الطيبة .. ومستسلمة إلى منتهى الاستسلام .. وربما كان عقلها أضيق من أن يتسع لمراقبة هذا التناقض بين ولديها .. ومحاولة فهم أسبابه والسعى إلى التغلب عليه والجمع بينهما فى أخوة صادقة لاتترك مجالا لكل هذا التناقض ..

ولعل الدافع الأساسى لهذا التناقض والتباعد بين الأخوين هو الاختلاف الواضح الواسع بين الشخصية التى ولد بهما كل منهما .. فالأخ الأكبر محمود يعتبر شخصية هادئة منطوية منذ ولد .. حتى أنه لم يكن من طبيعته السعى الى ثدى أمه ليرضعه .. كأن ليس من طبيعته أن يحس بالجوع .. فلا يبكى ولايصرخ مطالبا بالرضاعة ويظل هادئا مستسلما حتى تتذكره أمه وتقدم له ثديها .. ويظل يرضع حتى تجد أمه أنه أخذ ما يكفيه فتسحب ثديها من بين

شفتيه .. أما مصطفى فمنذ ولد وخرج إلى الحياة وهو لايكف عن المطالبة بالرضاعة .. كأنه لايشبع أبدا .. أو كأنه لايمكن أن يتنازل عن حق من حقوقه أو شىء يستطيع أن يصل إليه حتى بلا حق .. وتستسلم له الأم وتعطيه ثديها حتى إذا قدرت أنه قد أخذ كفايته وهمت أن تسحب ثديها من بين شفتيه ، عاد يصرخ بكل طاقته حتى تعيد له الثدى .. حتى لو أغمض عينيه ونام وهو يرضع وحاولت الأم أن تسحب ثديها منه فتح عينيه صارخا ، ولايمكن أن يسكت إلا إذا عاد الثدى إلى شفتيه .. كأن طبيعته لاتدفعه إلى مجرد الشبع ، ولكنها تدفعه إلى الاستئثار بكل ما يملكه .. وهو يعتبر نفسه مالكا لثدى أمه .. وليست أمه هى التى تملك ثديها ..

وقد ظل هذا التناقض يتسع مع عمرهما .. وعندما كانا صبيين كان محمود يلاحظ أنه عندما يجلس ليلاعب أخاه مصطفى لعبة السيجة أو الكوتشينة أنه يغش فى اللعب .. ويتسلل بأصابعه لينقل حجرا من أحجار السيجة أو ورقة من أوراق الكوتشينة خروجا على أمانة اللعب .. فيصرخ فى وجهه .. وإن كانت صرخاته دائما بريئة لاتحمل قوة التحدى والتهديد .. وأخوه مصطفى يرد على صرخاته ضاحكا ويقول فى تفاخر :

- ما هو الغش .. إنه شطارة .. ولايهم أن تغش أو لاتغش ، ولكن المهم هو أن تؤكد شطارتك بأن تكسب .. وهذه هى المرة الأولى التى تقاوم فيها شطارتى وتتهمنى بالغش .. ولكنى كسبتك مئات المرات من قبل دون أن تجد ما تقاوم به شطارتى .. فارحم نفسك من شغل عقلك باكتشاف الغش ، أو عدم الغش .. واحصر كل أهدافك فى أن تكسب .. لعلك تكسبنى ..

واكتفى محمود بأن يلوى شفتيه قرفا ، فقد تعود أن يسمع من أخيه مصطفى مثل هذه الآراء القذرة التى يحس كأنها تحريض على الحرام ..

حتى عندما كانا يلعبان مع صبية الحى ألعابا رياضية كان مصطفى يغش

فى كل لعبة يلعبها .. وينتصر .. أو يتفوق .. ولكنه لم يلعب أبدا لعبة كرة القدم .. ربما لأن مجال الغش فى هذه اللعبة ليس متوفرا ، فى حين أن محمود كان متعلقا بلعب الكرة لأن الغش ليس من طبيعته ..

وحتى فى امتحانات المدرسة .. لقد كان محمود يرقب أخاه مصطفى وهو يقضى ليالى قبل الامتحان فى إعداد الأوراق التى تسمى فى مجتمع الطلبة بأوراق « البرشام » .. يسجل عليها المواد التى يقدر أنه سيمتحن فيها ويخفيها فى كم سترته ، أو فى أنحاء بنطلونه حتى يغش منها وهو يمتحن .. وقد كان مصطفى ينجح فى كل امتحان .. بل كان يتفوق بنجاح على نجاح محمود الذى لايحاول أبدا أن يغش أو يعتمد على أوراق البرشام .. حتى أصبح معروفا فى العائلة أن الأخ الأصغر أشطر من الأخ الأكبر .. وقد كان الاثنان متزاملين دائما فى نفس المدرسة ، وفى نفس الفصل الدراسى رغم فارق السن بينهما .. ربما لأن محمود كان مهملا فى طفولته إلى حد أن تأخر إلحاقه بالمدرسة إلى أن ألحق بها مع أخيه الأصغر .. إلى أن حدث فى أحد الامتحانات المدرسية أن التقط المدرس الرقيب صورة مصطفى ، وهو ينقل عن ورقة البرشام فصاح فيه من آخر الصالة :

- ما هذه الورقة التى بين يديك ..

وقبل أن يصل إليه كان مصطفى قد دس ورقة البرشام فى جيب أخيه محمود الذى يجلس بجانبه دون أن يحس محمود بشىء متفرغا لكتابة إجابته عن أسئلة الامتحان .. وقال مصطفى للمدرس الرقيب الواقف فوق رأسه :

- ليس معى أى ورقة .. عجيب يا أستاذ أنا ليس من هذا الصنف الذى يحاول أن يغش ..

وصاح الأستاذ :

- لقد رأيت الورقة بعينى ..

ثم أخذ يفتش فى جيوب مصطفى وفى أنحائه .. بينما مصطفى ينظر نظرات خبيثة إلى أخيه محمود كأنه يخاف عليه أن يفتش هو الآخر .. ولم يجد المدرس مراقب الامتحان أى برشامة يحملها مصطفى ، ولكنه كان قد لاحظ نظراته إلى أخيه .. فتركه وفاجأ محمود بأن بدأ يفتشه هو الآخر .. ومحمود تكاد تخنقه المفاجأة .. وما كاد الرقيب يدس يده فى جيبه حتى التقط منه ورقة البرشام .. وصاح :

- اذن هو أنت الذى كنت تغش ..

وصاح محمود :

- والله العظيم لست أنا صاحب هذه الورقة .. ولا أدرى كيف دخلت جيبى .. والله العظيم أنا عمرى ما غشيت ..

ثم أجهش بالبكاء ..

ولكن المدرس لم يرحمه وأمسك بتلابيبه وقاده مقبوضا عليه إلى مكتب التحقيق .. ومحمود يبكى ويقسم على أنه برىء دون أن يتهم أخاه بأنه صاحب هذه البرشامة .. ولعله هو الذى دسها فى جيبه ..

وكان محمود معروف فى المدرسة بأدبه ودماثة أخلاقه ، وهدوء طباعه .. لذلك بدأ ناظر المدرسة يعامله برفق .. وبعد أن قارن بين ما هو مكتوب فى ورقة البرشام وما كتبه من أجوبة فى ورقة الامتحان .. ثم مقارنة الخط المكتوب هنا وهناك .. قرر براءته وإعادته ليتم الامتحان .. وإن كان حضرة الناظر يحس بأنه غلبته شفقته على محمود .. بل أنه قرر انهاء التحقيق كله وكأن شيئا لم يحدث .. وعاد محمود إلى الامتحان وهو يعانى آثار الصدمة ، ولكنه مكتف بإخفاء هذه المعاناة داخل صدره دون أى كلمة يقذفها فى وجه

أخيه مصطفى بل دون أن يطلق عليه من عينيه أى نظرة .. وجلس يحاول أن يحصر ذهنه فى الإجابة على أسئلة الامتحان ..

وحتى بعد أن عاد إلى بيت العائلة .. لم يحاول محمود أن يشكو إلى أمه ، أو يشكو أخاه إلى أبيه .. ومصطفى هو الآخر لا يطرأ الموضوع ولو بكلمة اعتذار لأخيه .. إنها مجرد صدمة لم يكن يحسب حسابها وقد مرت بسلام .. صدفة عابرة لاتستحق أن تخلق مشكلة ..

وقد نجح كلاهما فى هذا الامتحان .. وإن كان مصطفى الغشاش قد تفوق فى درجاته على محمود الطاهر البرىء ..

واستمر بهما هذا التناقض حتى توفى رب العائلة وهو أب مصطفى .. وقد كان مصطفى هو الوارث الوحيد وأصبح المالك لكل ما كان يملكه الأب .. ولكن الأم كانت قد قدرت مصير ابنها الأكبر محمود الذى لا يشمله هذا الإرث فتنازلت له عن نصيبها من إرث زوجها .. كما كانت قد ادخرت خفية عن ابنها مصطفى وسلمت ما ادخرته لابنها محمود .. وبذلك تقارب مستوى إعتماد كل من الأخين فيما أصبح لكل منهما .. وإن كان الأخ الأصغر لايزال هو الاكثر ثراء وهو الأعلى فى مستوى رأس ماله .. وكان الاثنان لايزالان فى السنة النهائية من المدرسة الثانوية عندما توفى الأب .. وقد قطع الأخ الأصغر مصطفى دراسته فورا بمجرد موت أبيه وتفرغ للعمل فى السوق .. وكان قد عاش فى هذه السوق وتعود عليها فى حياة والده .. أما الأخ الأكبر محمود فقد استمر فى المدرسة حتى إنتهى من الثانوية والتحق بكلية التجارة .. ولكنه فى الوقت نفسه كان حريصا على الاحتفاظ بالأموال التى أصبحت له .. ويتعامل ببعضها أحيانا فى السوق .. فهو أيضا فهم الكثير عن هذه السوق بمعاشرته لزوج أمه الذى كان بمثابة أبيه ..

ولكن الفارق بينهما كبير فى التعامل داخل السوق .. إن مصطفى لايهمه

الأسلوب الذى يتعامل به .. قد يكذب أو يغش أو يزيف أو ينافق .. والمهم هو أن يصل إلى الهدف الذى يطمع فيه .. أى أن يصل إلى تحقيق المزيد من الربح .. فى حين أن محمود لايتعامل إلا بالأسلوب النظيف سواء أفلح به فى تحقيق الهدف أو لم يفلح .. أى أن ليس هناك فارق بينهما فى الهدف .. كلاهما يريد أن ينجح فى كل صفقاته ويحقق أرباحه .. ولكن الفارق فى أسلوب كل منهما والخطوات التى يخطوها لتحقيق هذا الهدف ..

وكان مصطفى قد بدأ يقيم الدعوات السخية داخل البيت لمن يتعامل معهم من رجال السوق .. يقدم فيها الخمر وقد يدعو اليها نوعا منحلا من النساء للترفيه عن المدعوين .. ومحمود يغلى داخل نفسه وهو يشاهد هذه الدعوات التى تتم داخل بيته .. أو على الأقل داخل البيت الذى يقيم فيه .. انه متدين بطبيعته .. يصلى ويصوم .. وهو حريص على رضاء الله عنه فى كل حركة من حركاته وفى كل كلمة من كلماته .. والله لايبيح تقديم الخمر .. ولا يبيح هذا التهتك بين الرجال والنساء .. وأخوه مصطفى لايؤمن إلا بأن الله قد وهب الانسان العقل .. وتركه حرا فى استغلال عقله لتحقيق مآربه .. وهو لا يصلى ولا يصوم .. إلا اذا اضطر يوما إلى المشاركة فى الصلاة لتحقيق هدف يرمى إليه عن طريق أحد المصلين .. فيتظاهر بالصلاة معه .. أو يصوم مضطرا لأنه دعى إلى مأدبة إفطار تجمع فريقا من أهل السوق يحتاج اليهم فى معاملاته .. أى يدعى صياما كاذبا .. وقد حاول محمود أن يقنع أمه بأن تطلب من مصطفى أن يمتنع عن إقامة هذه الليالى أو على الأقل يقيمها خارج البيت .. ولكن أمه كما هى .. ضعيفة .. مستسلمة .. وهى لا تظهر فى هذه الليالى التى يقيمها مصطفى .. ولكنها تتفانى فى إعدادها وتوفير متطلباتها ارضاء له .. إلى أن قرر محمود ألا يشترك بنفسه أبدا فى هذه الليالى .. وبعد أن غاب عنها بضع ليال حادثه أخوه مصطفى فى هدوء وكأنه يشفق عليه ويعتبره ناقص العقل .. قائلا :

ماذا لا تشترك معى فى الترحيب بأصدقائى .. لا أحد يفرض عليك شيئا لا تريده .. إنك فقط تجلس معهم ، وقد تكتفى بالفرجة عليهم .. ومحاولة فهم ما يدور فى خواطرهم من أعمال السوق .. مادمت أنت أيضا لك أعمال فى السوق ..

وكطبيعة محمود بدأ يشارك فى هذه الليالى ارضاء لأخيه لا اقتناعا بأسلوب تعامله فى السوق .. وكان يجلس بين المدعوين يغلبه الصمت كأنه فعلا يكتفى بالتفرج عليهم .. ولكنه كان يضيق بسرعة ويتركهم ويعزل نفسه عنهم فى غرفته قبل انتهاء السهرة .. وهم يعتبرونه وهو جالس بينهم كأنه إنسان شاذ ليس منهم ولايحتاجون اليه كما لايحتاج اليهم .. ولا يكاد يختفى من بينهم حتى يتضاحكوا عليه ، ولكن دون النيل منه حرصا على إحساس أخيه صاحب الدعوة ..

والسنوات تمر .. والأخ الأصغر يعيش دائما فى مشاكل تنطلق من تعامله فى السوق .. حتى أصبح أخوه الأكبر محمود مقتنعا بأن مصطفى لايستطيع أن يحقق أهدافه إلا بالتصدى لهذه المشاكل .. فى حين أن محمود لايقدم على أى عملية من عمليات السوق إلا بعد أن يتأكد مائة فى المائة من انه لن يواجه أى مشكلة .. وهو مستعد لأن يرفض أى عملية مهما قدر لها من أرباح لو كان واحدا فى المائة منها معرضا لإثارة أى مشكلة ..

وكان مصطفى لايكف بين حين وآخر عن أن يشرك أخاه محمود فى إحدى عملياته .. كأنه طامع فى استغلال رأس المال الذى يملكه .. إنه أقرب رأس مال إليه .. إنه رأس مال أخيه .. وقد جاءه يوما وهو منطلق بالفرحة .. أو ربما كان يدعى هذه الفرحة .. وصاح :

- لقد وقعنا على أكبر عملية يمكن أن تحقق سيادتنا على السوق كلها .. أكثر من مائة ألف دجاجة مجمدة مستوردة نتولى نحن توزيعها على أساس

نصف الجملة .. تصور كم نربح من هذه العملية .. أن التقدير المبدئى للربح يصل إلى مليون جنيه ..

وقال محمود فى براءة :

- من الذى قام باستيراد هذا الدجاج ..

وقال مصطفى من خلال فرحته :

- انه الحاج عمر البهنسى .. وقد اتفقت معه على أن يأخذ نصيبه بعد التوزيع بعد أن نساهم فى مقدم الثمن ..

وقال محمود وهو يلوى شفتيه ساخطا :

- إن الحاج عمر معروف بأنه غشاش ومهرب وحرامى .. وقد سبق أن حكم عليه بالحبس ثلاثة شهور ومصادرة أمواله ..

وصاح مصطفى :

- ولماذا لا تفترض أن الحاج عمر قد تغير وأصبح يراعى القانون فى كل تصرفاته .. ثم أن البضاعة لن تظهر فى السوق باسم الحاج عمر إنما باسمنا نحن الاثنين حتى نجنبها شكوك رجال الحكومة .. ان اسمنا من أطهر أسماء السوق ..

وطال الحديث ومصطفى يلح على محمود بأن يشترك معه فى الصفقة .. وقد استسلم محمود أخيرا ، وإن كان لم يشترك إلا بنسبة محدودة لا تتعدى العشرة آلاف جنيه ..

ولم تمض أسابيع حتى اكتشفت الحكومة أن هذه الكمية الضخمة من

الدجاج المجمد مصابة بالاشعاع الذرى علاوة على أنها دخلت معتمدة على تلاعب فى إجراءات الجمرك ..وصادرت الحكومة كل كمية الدجاج ، وثارت مشكلة من أعنف المشاكل التى سبق أن خاضها مصطفى عبدالخالق .. إلى ان استطاع أن يحصر العملية كلها فى مسئولية الحاج عمر .. وخرج هو وأخوه محمود بريئين .. وان كان مصطفى لم يرد المبلغ الذى دفعه أخوه .. محتجا بأنه سبق أن دفع للحاج عمر ، ولايستطيع أن يطالب بما دفعه حتى لا يعتبر شريكا له ويقبض عليه معه ..

ومن يومها اتخذ محمود قراراً لايحيد عنه أبدا يقضى بألأ يساهم مع أخيه مصطفى فى أى عملية من عمليات السوق ..

وكان محمود قد أتم تخرجه فى كلية التجارة بجامعة القاهرة .. وتفرغ كله لحياة السوق .. وكان لايحقق إلا أرباحا متواضعة .. ولكنها دائما أرباح نظيفة .. بينما أخوه مصطفى يحقق أرباحا هائلة ليست دائما نظيفة .. واختلفا فى تقدير أهل السوق وعامة الناس لكل منهما .. محمود يقدرونه على أنه رجل أعمال نظيف .. وان كانت نظافته تصل أحيانا إلى حد الغباء .. بينما يقدرون أخاه مصطفى على أنه رجل أعمال خطير .. يتردد كل من يتعامل معه فى قبول أسلوبه فى التعامل .. ولكنه قطعا أذكى من أخيه ..

وأحس محمود بعد تخرجه وتفرغه للعمل بحاجته إلى إتمام نصف دينه .. ولم يتردد فى اختيار ناديه زوجة له .. إنها بنت الجيران .. كان يراها من بعيد .. وأعجب بها من بعيد .. واحبها وتمناها من بعيد .. وربما كانت هى أيضا قد تعلقت به من بعيد .. لذلك تم زواجه بها بمجرد ان تقدم اليها عن طريق أمه ..

وعاش بزوجته فى نفس بيت العائلة الذى يضم امه وأخاه مصطفى .. ومنذ

اليوم الأول قرر ألا تشترك زوجته أو تظهر أمام غريب خلال هذه الليالى التى يقيمها مصطفى .. ولكن مصطفى اعترض وصاح محتجا :

إن زوجتك نادية أصبحت ست البيت .. فكيف لا تستقبل أصدقائى وبينهم من يأتى ومعه زوجته .. وقد كان أصدقائى يعذروننا لأن أمى لاتستقبلهم لأنها عجوز .. ولكن كيف يعذروننا اذا لم تستقبلهم زوجتك وترحب بهم ..

وقال محمود فى حدة :

ـ لن أسمح لزوجتى أن تظهر فى جلسة تقدم فيها الخمر ..

وصاح مصطفى :

ـ مالها ومال الخمر .. ومن يفرض عليها الخمر ..

وطال بينهما الجدل إلى أن ضعف محمود واستسلم لأن تشترك زوجته فى الترحيب بأصدقاء أخيه مصطفى خصوصا وقد علم أن بينهم ثلاثة من المدعوين مع زوجاتهم ..

وكان محمود يتصور أن أى حفل يجمع الرجال بنساء محترمات شريفات يفرض أن تتجمع النساء مع بعضهن فى ناحية بينما يتجمع الرجال فى ناحية أخرى .. حتى يتجنبوا كلهم ما يمكن أن يدفعهم اليه الوسواس الخناس .. ولكنه وجد أن هذا الحفل جمع بجانب الزوجات نساء من النوع الآخر اللاتى تعودن تلبية دعوات مصطفى ، ولسن من الزوجات بل من المنطلقات إلى أى وجل .. ثم إن الرجال والنساء اختلط بعضهم ببعض منذ اللحظة الأولى .. كل رجل بجانبه امرأة .. حتى الزوجات ليست بينهن واحدة بجانب زوجها أو بجانب زوجة أخرى ..

وقد استقبل الرجال زوجته نادية وهم مبهورون كأنها نجم جديد قد لمع فى

سمائهم .. نجم يشع بنور هادىء من الجمال الذى يشع بسذاجة الأبرياء .. وفرض الحفل نفسه على زوجته فوجدت نفسها تجلس بجانب رجل من المدعوين .. ثم يجذبها رجل آخر لينفرد بها بجانبه .. وهو نفسه جالس بعيد عنها لاتخفت عيناه عن تتبعها .. ويخيل اليه أن هذا الرجل يحادثها بكلام لايسمعه كأنه يهمس فى أذنيها .. وخيل اليه أن الرجل الآخر مد يده وتحسس يد زوجته .. ثم فوجىء بزوجته تقوم وتتقدم إلى المائدة التى تحمل زجاجات الخمر وتبدأ فى صب كأس .. ربما تلبية لمطلب الرجل الذى كان يجلس بجانبها .. وجن محمود وفقد كل سيطرته على أعصابه وصرخ :

- نادية ..

ثم قفز من على مقعده وانطلق اليها وشدها من ذراعها قبل أن تحمل الكأس التى صبتها ، وخرج بها من الحفل ودخل بها إلى غرفته وأغلق الباب عليهما بالمفتاح ..

وعقدت الدهشة ألسنة المدعوين وهم يتتبعونه ، ولكن ما كادت الدهشة تخف حتى انطلقوا يتضاحكون عليه .. ولعله قال كلاما كثيرا لزوجته ، ولكنه لم يقل شيئا من يومها لأخيه مصطفى .. وفى الصباح التالى قضى اليوم كله يبحث عن شقة .. لقد قرر ان ينعزل هو وزوجته عن أخيه ، ويقيما وحدهما بعيدا عنه .. لم يعد يحتمل أكثر .. وقد استطاع فعلا أن يجد الشقة فى يوم واحد .. وأن يزودها بما تحتاجه من قطع الأثاث الضرورية فى يومين .. ولم يهمه كم دفع من أمواله .. إنه مصمم على العزلة عن أخيه مهما دفع .. ويوم خرج من بيت العائلة خير أمه من أن تنتقل معه لتعيش معه أو تبقى كما هى مع مصطفى .. ولم تنتقل الأم معه .. انها لاتستطيع أن تترك البيت الذى عاشت فيه كل هذا العمر .. واذا كان محمود هو الابن البكرى الأكبر .. فإن مصطفى هو أيضا آخر العنقود .. ابنها الأصغر .. وحاول مصطفى أن يقنعه

بألا يترك بيت العائلة .. ولكنه قابل إلحاحه بصمت جاف كأنه لم يعد يطيق أن يسمع منه كلمة .. وخرج هو وزوجته إلى بيته الجديد ..

وأصبح ما بين محمود وأخيه مصطفى كأنه قطيعة تامة .. فكلاهما لايتصل بالآخر ولا يسأل عنه إلا فى المناسبات العامة .. أو إذا حدث لأحدهما حادث كبير .. بل إن محمود لم يعد يعرف عن مصطفى إلا ما يسمعه صدفة .. وكل ما يسمعه ينطلق فى السوق وينحصر فى العمليات الكبيرة التى يقوم بها مصطفى ويحقق بها الأرباح الضخمة ويجتاز بها مشاكل خطيرة يستطيع أن يجتازها .. ومحمود لا يستطيع أن يتوقف عن المقارنة بينه وبين أخيه .. إن كلا منهما يعيش فى دنيا لا يعيش فيها الآخر .. ربما كان كل منهما قد ورث دنياه عن أبيه .. فمحمود يسمع عن أبيه أنه كان رجلاً فى منتهى التدين .. وكان أيضا من تجار السوق ، ولكنه كان معروفا بأنه شريف متواضع فى أهدافه التى تحقق أرباحه .. ويتمسك بأسلوب نظيف فى تحقيق هذه الأهداف ، ولا يقدم على أى هدف يفرض عليه أى أسلوب قذر من أساليب الغش .. أما أب مصطفى فمعروف عنه فى السوق أنه كان مغامرا جريئا يعيش المشاكل ولا يحقق أى هدف إلا من خلال هذه المشاكل مهما لطخت سمعته كرجل أعمال .. بل سمع أنه لم يتزوج أمه إلا لأنه كان أيامها فى بدايته .. وكانت أطماعه لا تزال محصورة فى رؤوس الأموال الصغيرة .. وكانت أمه ، كما كان ابنها قد آل إليهما ميراث متواضع بعد وفاة الأب فتزوجها ليستولى على هذا الإرث .. وقد استولى عليه فعلا .. أى أن محمود وأخاه مصطفى ورث كل منهما طبيعته عن أبيه ..

وقد كان محمود رغم قطيعته لأخيه مصطفى يواظب على الاتصال بأمه ليطمئن عليها ويزود حنان الابن للأم .. ولكنه كان يتعمد أن يتصل بها فى أوقات لن يلتقى خلالها بمصطفى .. أو يتصل بها بالتليفون وهو واثق أن مصطفى لن يرد عليه .. ورغم ذلك فقد ظل أبدا يشعر بالشوق إلى أخيه ..

وقد تزوج مصطفى أيضا .. ولكنه لم يتزوج مجرد فتاة من بنات الجيران .. أو فتاة أعجب بها من بعيد كما تزوج محمود .. ولكنه تزوج ابنة وكيل الوزارة الذى يعتبر أقوى شخصية مسيطرة على السوق .. وقد وصل محمود بطاقة دعوة لحضور حفل الزواج كأنه غريب لا دخل له فى حياة أخيه .. وقد ذهب إلى الحفل بصحبة زوجته .. وكما توقع لم يكن الحفل مقسما إلى مكان مخصص للرجال وآخر مخصص للنساء .. ولكنه كان حفلا يخلط بين الجنسين .. ورغم احساس محمود بفرحة صامته لزواج أخيه فإنه لم يستسلم لتقاليد هذا الحفل وظل ملتصقا بزوجته لا يتركها أبدا وحدها بين بقية المدعوين .. لم يتركها إلا فترة عابرة وضعها فيها بجانب أمه ..

وقد انتقل مصطفى بزوجته من بيت العائلة ومعه أمه إلى فيلا كأنها قصر فخم فى أرقى أحياء القاهرة .. إنه الآن من الشخصيات البارزة فى مصر .. بينما محمود ظل كما هو .. باق والعائلة فى الشقة المتواضعة التى استأجرها منذ سنوات .. ولايميز شخصيته إلا تواضعه ونظافته وأسلوبه الشريف فى تحقيق أى هدف من أهدافه .. وهو ما جعل القطيعة بينهما تصبح واقعا أكيدا .. كل منهما يعيش دنيا تزداد تباعدا عن دنيا الآخر ..

□ □

ومرت سنوات طويلة ..

وكان الأخ الأكبر محمود قد انجب ابنه عبدالهادى .. وابنتين .. سميرة على اسم أمه .. وشريفة على اسم أم زوجته .. وكان محمود فخورا بابنه ويزداد فخرا كلما كبر .. ويخيل إليه أن ابنه ورث عنه كل طبيعته .. فهو منذ البداية وهو متدين مأخوذ بأداء كل الفروض بإنطلاق سمح كأنه ليس مجبرا على ادائها ولا يفتعل فيها شيئا .. ثم انه نظيف شريف فى كل أساليب حياته التى يحقق بها أهدافه .. حتى وهو يلعب مع بقية الأطفال فهو لم يلعب إلا

نظيفا شريفا دون أن يخطر على باله أن يتحايل ليفوز فى أى لعبة .. وقد كبر عبدالهادى حتى أتم دراسته الثانوية بنجاح دائم ، ثم اختار أن يلتحق بكلية التجارة كوالده دون أن يفرض عليه والده رأيه .. وقد بدأ خلال ذلك يغوص ويفهم أعمال السوق التى يتعامل فيها والده .. وكان أحيانا يقول لوالده آراءه فى توجيه العمل .. ويقتنع بها الوالد ، وتنتهى بأن تحقق النجاح .. انه يبدو كأنه أذكى من أبيه .. ولعل الدنيا التى ولد وعاش فيها قد زودته بذكاء أكبر .. فهو لم يعش غريبا فى بيته مع زوج أم يثير فيه عوامل نفسية قاسية تمتص جزءا من ذكائه .. ولم يكن له أخ ليس بشقيقه ويعيش معه فى دنيا ليست دنياه ..

وكان الابن قد تخرج فى الجامعة وبلغت ثقة أبيه فيه إلى حد وكله فى إدارة كل أعماله .. وهو يحقق بهذه الأعمال من النجاح أكثر مما كان الأب يحققه .. وهو نجاح شريف نظيف لا تعترضه أى مشاكل يمكن أن تعرض الأب أو الابن لكلام الناس ..

إلى أن فوجىء محمود يوما بزوجته تقول له أن ابنهما عبدالهادى كان فى زيارة عمه مصطفى .. وشهق محمود فى هلع .. ماذا جمع ابنه بأخيه مصطفى رغم القطيعة الكاملة بين العائلتين .. ربما كان مصطفى قد سمع عن شطارة عبدالهادى فى أعمال السوق فاصطاده ليستغله كما هى عادته ..

ونادى محمود ابنه وسأله فورا دون أن يستطيع كتم الهلع الذى سيطر عليه :

ـ هل كنت فى زيارة أخى مصطفى ..

وقال عبدالهادى فى هدوء :

ـ نعم .. ذهبت إلى زيارته ..

وقال الأب :

- هل هو الذى اتصل بك ودعاك إلى هذه الزيارة ؟

وقال عبدالهادى دون أن يفقد ابتسامته :

- لا .. أنا الذى اتصلت به وطلبت زيارته ..

وصاح الأب :

- لماذا .. ماذا كنت تريد منه ؟!

وقال عبدالهادى :

- لاشىء .. ولكنى أردت أن أرى عمى وأعرفه ..

وقال الأب كأنه عاد يعيش مأساته :

- لقد عانيت من عمك هذا الكثير حتى أنى ابتعدت عنه ، وقطعت كل ما بينى وبينه ..

وقال عبدالهادى فى برود :

- إنى لم أعان منه شيئا حتى أقاطعه أنا الآخر ..

وصاح الأب :

- إن من طبيعته الغش .. والكذب .. والتزييف .. والانحلال فى كل مجالات العمل .. وأخاف عليك من أن تقع فى براثنه ..

وجلس عبدالهادى بجانب أبيه ، وقال وهو ينظر اليه برفق :

يا أبى إنى اسمع عن كل رجال السوق أنهم غشاشون وكذابون ومزيفون ومنحلون ، ولو استسلمت لما أسمعه لهجرت السوق كلها حتى لا أعرض نفسى لكل هذه القذارات .. ولكنى عودت نفسى على ألا أهتم بما أسمعه عن الناس ، ولا أهتم بتعامل الناس بعضهم مع بعض .. كل ما أهتم به هو التعامل معى أنا .. أى قد يغش أحدهم الآخر ، ولكنه لايمكن أن يغشنى أنا .. لأنى أعتبر نفسى أذكى وأقوى من أن يغشنى غشاش .. أما إذا استطاع واحد أن يغشنى فعلا فإنى أقاطع التعامل معه وأطرده عن دنياى .. وهو ما لم يحدث لى حتى اليوم .. وأكثر من ذلك .. إنى لا أربط كل من أعرفهم بحاجتى إلى التعامل معهم فى السوق .. إنى أرحب بكل من أعرفهم من خارج السوق .. ولا أختار بينهم .. بل أرحب بأى صدفة تجمعنى بأى انسان مهما كان يمثل .. سواء يمثل الحلال أم الحرام .. وسواء كان غنيا أو فقيرا .. ناجحا أو فاشلا .. فإن السوق لاتنحصر فى هذه الدائرة الضيقة .. ولكن السوق هى سوق الدنيا كلها .. وأنا استلهم الله وأدرب نفسى على أن يتسع عقلى لتحمل الدنيا كلها .. وكنت دائما أحس بأنى مقصر فى حق نفسى لأنى لا أعرف أقرب الناس إلى بعد أبى .. وهو عمى .. أخوك .. حتى لو كان أخا غير شقيق .. ثم إنى لست مسئولا عما جرى بينك وبينه أيام زمان .. ويجب ان اكتشف بنفسى ما يمكن أن يجرى بينه وبينى أنا .. لذلك تجرأت وذهبت اليه دون أن استأذنك وإن كنت قد أبلغت أمى ..

وتاه الأب مع نفسه .. ربما كان ابنه على حق .. فهو لم يعان ما عاناه .. وليس من حق الأب أن يورث معاناته لأبنائه .. ويكفى أن يروى لهم أحداث التاريخ ، ويعرض عليهم آراءه ، ثم يتركهم أحرارا فى مواجهة تاريخهم وتحقيق ما يقتنعون به من آراء .. وابتسم لابنه ابتسامة مرتعشة وقال له :

وكيف استقبلك أخى مصطفى ..

وقال الابن منطلقا :

- استقبلنى بفرحة صاخبة .. كأنه أبى وقد وجدنى بعد أن كنت تائها عنه .. بل لم يحس أحدنا بأنه غريب عن الآخر ، وكأننا لم نكن أبدا محرومين أحدنا من الآخر .. والواقع أنى بعد فترة بدأت أشعر بالإشفاق عليه .. فقد ذهبت اليه وأنا أتصور كما أسمع عنه بأنه قوى جبار يبطش بكل ما أمامه .. ولكنه بدأ يحدثنى كأنه يشكو من ضعفه .. وينسب ضعفه إلى وحدته .. إنه وحيد بعد أن توفيت زوجته رغم أنه أنجب ولدين .. كبرا دون أن يساهم أحدا منهما فى حمل مسئولية أبيه ويشاركه فى عمله .. أحدهما أصبح طبيبا ، والثانى يحترف العزف على الجيتار وله فرقة موسيقية .. وقد تزوج كل منهما وانفصل بعائلته عن أبيه .. بل لايذكرانه إلا إذا احتاجا أن يمدهما ببعض أمواله .. حتى ابناه انفصل أحدهما عن الآخر .. ليس حول عمى مصطفى أى رباط عائلى .. لا بيننا وبينه ، ولا بينه وبين أولاده ..

وقال الأب كأنه يرثى أخاه :

- إنه منذ ولد وفرديته مسيطرة عليه .. لم يكن يرتبط أبدا لا بأبيه .. ولا بأمه ، ولا بى .. فليس غريبا أن ينفصل بفرديته حتى عن أولاده..

وقال عبدالهادى وهو لايزال مشفقا على عمه :

- ولكنه يبدو منهارا .. وجهه منهار بعضه على بعض .. وقوامه مهدل ، كأنه أيضا منهار بعضه على بعض .. إنه يبدو بالنسبة لك كأنه هو الأخ الأكبر وأنت الأصغر ..

وقال الأب كأنه لا يشفق على أخيه :

- لقد قضى عمره فى معارك عنيفة تحوطه مشاكل خطيرة ، ولاشك أن كل ذلك أنهك كيانه حتى سبقنى نحو الشيخوخة ..

وابتسم الأب ابتسامة حاقدة واستطرد قائلا :

- لقد كان دائما يتباهى بأنه يسبقنى إلى كل شىء .. وقد التقيت به منذ عامين يوم أن ماتت أمى ولاحظت أن التجاعيد بدأت تزحف على وجهه .. ولكنه لم يثر شفقتى فقد عودنى ألا أشفق عليه .. إنه متعال ، ويرفض شفقة أحد عليه ..

وقال عبدالهادى وهو لايزال غارقا فى احساسه بالشفقة على عمه :

- لقد أحسست بأنه يعانى الكثير فى أعماله .. وإن كان لم يصارحنى بما يعانيه ..

وقال الأب وهو يبعد عينيه عن ابنه :

- لم أتعود أن أصدق أخى مصطفى سواء ادعى المعاناة أو ادعى القوة .. فأرجوك أن تحرص وانت تحس بأنه يعانى .. فقد تكون معاناة كاذبة تخفى هدفا آخر من أهدافه تكون أنت ضحيته ..

وقال عبدالهادى وهو يقوم مبتعدا :

- اطمئن يا أبى .. لا أحد يستطيع أن يكذب على ..

وبعد أيام عاد عبدالهادى يقول لوالده :

- لقد كنت فى زيارة عمى .. إنه فى نكبة .. يكاد يعلن إفلاسه .. حتى أنه

قرر أن يبيع القصر الذى يقيم فيه ليسدد بعض الديون حتى أنى وعدته بأن أساعده فى عملية بيع هذا القصر ..

وصاح فيه أبوه :

- إنك لست سمسارا حتى تتعهد ببيع أو شراء المبانى ..

وقال ابنه عبدالهادى فى هدوء :

- وعدته أن أشترك فى البحث عن سمسار والاتفاق معه ومراجعة العملية .. انه منهك ، ولم يعد يستطيع أن يتحمل المسئولية كاملة وحده .. واطمئن يا أبى ..

وابتعد عبدالهادى وهو واثق من استمرار رضاء أبيه عنه ..

وبعد أيام عاد إليه قائلا :

- إن عمى لم يعد يطيق الابتعاد عنك .. ولو مجرد رؤياك .. وقد كان يلح على أن أصحبك فى زيارته .. ولكنى أقنعته بأن الأخ الأصغر يجب أن يكون البادىء بزيارة الأخ الأكبر .. وسيأتى لزيارتنا هذا المساء ..

ورغم المفاجأة فقد بدأ محمود يحس فعلا بالشوق إلى لقاء أخيه مصطفى .. إنه مجرد لقاء أخ بأخيه لن يتسع لأى عمل يبرز الخلاف بين طبيعتيهما .. وقد قضى محمود فعلا طوال اليوم وهو يعد لاستقبال أخيه .. ويتذكر ما كان يفضله ليوصى زوجته بإعداده له .. وعندما رأى أخاه مصطفى أمامه أحس بدموع الفرحةتكاد تنطلق من عينيه .. ولم يكتفيا بأن يصافح أحدهما الآخر بل جمعتهما الأحضان .. وانهارت الدموع الصامتة فعلا على وجنتيهما .. وتكلما كثيرا وذكرياتهما تطلق الضحكات .. وكأنهما نسيا ما كان بينهما من خلاف وصل إلى حد القطيعة بينهما .. إلى أن قال مصطفى :

- هل سرد عليك ابننا عبدالهادى تفاصيل المشروع الذى تحدثنا فيه ..

وقال محمود :

- أى مشروع .. ان ابنى لم يحدثنى عن أى مشروع لك دخل فيه ..

وقال عبدالهادى وهو فرح بأبيه وعمه :

- لقد فضلت أن يعرض هذا المشروع بينكما دون أن أتدخل فى عرضه .. فأنتما الأصل وانتما الأساس .. وتنحنح مصطفى ، ثم قال بلهجة جدية كأنه مقبل على عمل كبير :

- إن عبدالهادى يعلم أنى أعانى متاعب كثيرة فى أعمالى .. ولكن رأس المال الذى لايزال سليماً يوازى تقريبا رأس المال الذى تعتمد عليه أنت يا محمود .. لذلك فقد فكرت فى ان ننضم فى شركة واحدة .. تتولى أعمالى وأعمالك .. وذلك على أن يكون ابنك وابنى عبدالهادى وكيلا عنى كما هو وكيل عنك .. وله مطلق الحرية فى إدارة العمل ..

وسكت محمود طويلا إلى أن قال :

- ما رأيك أنت يا عبدالهادى ..

وقال عبدالهادى فى جدية :

- لقد مكننى عمى مصطفى من دراسة رأس المال الذى يتقدم به .. كما مكنته من دراسة رأس مالنا .. وأنا واثق أن مشاركتنا ستحقق نجاحا كبيرا بإذن الله ..

والتفت محمود إلى أخيه مصطفى قائلا :

ـ وأين أولادك ؟

وتنهد مصطفى كأنه يسخر من نفسه :

ـ لو كنت أراهما لكانا معى اليوم .. واطمئن .. لقد اتفقت مع عبدالهادى على ألاّ ندخل اسم أى واحد من ابنائى فى عقد الشركة .. وأن يكون نصيبهما من الإرث بعد أن أذهب إلى الله مقصوراً على حقهمافى رأس المال دون أى حق فى إرث الشركة .. أى لن يكون لأى منهما حق التدخل فى أعمال الشركة سواء خلال حياتى أو بعد مماتى .. لقد أصبحت مقتنعا بأنى أنا وأنت لم ننجب الا ابنا واحدا هو عبدالهادى ..

محمود غارق فى التفكير .. وابتسامته الضيقة تتسع .. وتتسع أكثر .. ثم صاح ينادى زوجته ناديه .. ثم قام إلى داخل الشقه وعاد يشدها لتجلس مع أخيه مصطفى .. بعد أن مضت سنوات طويلة كان يحرم عليها لقاء أى رجل غريب .. وكأن أخاه مصطفى أحد الغرباء ..

ولكن الدنيا تغيرت ..

المحتويات